فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

المسلم اليهودي

ثلاثية اليهود (١)

كمال رحيم

عن الرواية..

موضوع هذه الرواية موضوع حساس، يعالجه الكاتب معالجة جريئة وليست صاخبة، معالجة فنية من خلال تشكيلات جمالية تتسلل إلى القارئ وتراوغه وترسخ في وجدانه، وبلغة فيها دفء العامية وجزالة الفصحى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ خاص

إلى أحباء أعزاء رحلوا..

يوسف الشاروني..

عبد المنعم تليمة..

محمد محمود عبد الرازق..

فلن يغيبوا أبدًا من الذاكرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

لم نعرف بوفاة أبي إلا بعدها بشهر..

سمعنا طرقتين على شُرَّاعة الباب فالتويت بجسدي محاولًا الإفلات من أُمِّ حسن، إلَّا أنَّها دفعتني بمرفقها دفعةً خفيفةً إلى داخل حِجْرها، لم أستجب لها والتفتُّ برأسي إلى الوراء وعيناي تتبسَّمان لهذا القادم. كنت أحسبه جدِّي، فإذا هي واحدة من معارف أمي ترتدي فستانًا وشالًا أسودين، جاءت تُعزِّينا في أبي ففوجئتُ بأنه لا أحد في البيت سمع بخبر موته.

جلست على الكنبة تقلِّب النظر فينا وتتعجَّب من أننا لا نعلم بشيء حتى الآن، وأمي تُحدِّق فيها وهي ما بين الخَضَّة وعدم التصديق ووجهها يذوي لحظةً بعد لحظة.

قالت لنا الضيفة: إنها لم تعلم بالأمر هي الأخرى إلَّا مصادفةً، أبلغها به قريب لزوجها كان يزورهم أول أمس، قال لها: إن أبي وبعض رفاقه من الفدائيِّين كانوا يستقلُّون قاربًا في بحيرة المنزلة متجهين إلى بورسعيد، عددهم كان كبيرًا، ضعف الحمولة تقريبًا غير الطعام والسلاح والعتاد، وتمسح دمعة تسربت من عينيها:

- انقلب بيهم، راحوا! راحوا كلهم يا حسرة!

وطفقت تحكي لأمي ما قاله قريب زوجها عن جدِّي شيخ البلدة، وسُرَادِق العزاء الذي كان يسدُّ الشارع والشوارع التي حوله، والخلق الآتين من كُلِّ مكانٍ على الأقدام أو فوق الحمير، والنسوة الباكيات في البيوت، والمقرئ الذي لا يكمل التلاوة وسريعًا يقول (صدق الله العظيم)؛ لينصرف المُعزُّون ويأتي غيرهم ممن تحلَّقوا بالسرادق ويُلطِّخون في الدخول، وأمي ذاهلة وعيناها مُنكَّستان.

ظلت على هذا النحو دقيقةً أو دقيقتين، ثم قامت نصف قومة تقول بنبرة ما بين الحزن والغضب:

- وإيه اللي ودَّاه هناك، ومالنا احنا ومال الحرب، أعمل إيه أنا دلوقتي؟! أروح فين وآجي منين؟!

انحنت عليها الضيفة تحتويها بذراعيها، كما هبَّت أُمّ حسن واقفةً تُربِّت على رأسها وتقول:

- الصبر يا حبيبتي الصبر.

- صبر إيه؟ واجيب الصبر منين! دا أنا بقالي سنة معرفش عنه حاجة وفضلت صابرة وساكتة، إنما دلوقتي صبر إيه بقى.. إخص عليك يا محمود تفوتني كده وتفوت ابنك اللي لسَّه مشفتوش.

فنظرت الضيفة نحوي:

- بسم الله الرحمن الرحيم، هو المحروس دا ابن محمود؟

وأمي التي تقلِّب كفَّيْها من موت أبي الذي جاء في غير أوانه ووَرَّطها هذه الورطة:

- أيوه هوه، هو دا جلال، أروح بيه فين دلوقتي؟ كل حاجة في الدنيا معاكساني، ظروف العيشة وظروف جوازي وظروف أهلي، ألاقيها منين ولَّا منين!

وكان صوت الراديو يأتي عاليًا من المطبخ، حيث جدَّتي تقف أمام الحوض تخبط وترزع في الأكواب والملاعق والأطباق وكل ما يقع عليه بصرها، وتسعل بين الحين والحين سعلاتٍ تتلقَّاها أذناي بضَجَر.

صاحت عليها أُمُّ حسن:

- يا ست إيقون يا ست إيقون، يا أم إيزاك.

فأشاحت أمي بيدها:

- بلاش بلاش..

- ما هي لازم تعرف يا كاميليا..

- سيبيها سيبيها أنا مش ناقصة مَرَار..

فعادت أُمّ حسن إلى جلستها وانحنت عليَّ، وهي تتمتم بصوتٍ خافت: بسم الله الرحمن الرحيم، وأعطتني ثديها، ولمَّا تمنَّعتُ أخذت تُربِّت على ظهري حتى استجبت، وبدأتُ ألوك اللبن المنسكب في فمي متلذذًا ولا أبتلعه عامدًا فيتسرب من بين شفتَيَّ وينسالُ حتى أطراف عنقي، وساد صمتٌ كئيبٌ لا يعكره سوى سُعال جدَّتي الآتي من المطبخ، بعدما أغلقت الراديو أول ما دقت الساعة الثامنة والنصف وبدأت تلاوة قرآن العشاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويبدو أني أحسست بالأمر أو هالني وجه أمي المدفون في صدر المرأة التي تزورنا، وأنفاسها التي تخرج بصوت مسموع، فرفعت بصري نحو أُمِّ حسن

مستفسرًا، لأجد عينيها هما الأخريين محمرتين ودمعة عالقة برموشها على وشك السقوط على جبهتي. بدا وجهها على نحوٍ لم آلفَهُ من قبل فلفظتُ حَلَمة ثديها على الفور وشببت خائفًا، وبسرعةٍ أمسكت هي بي من السروال خوفًا من أن أسقط، إلَّا أنِّي أفلتُّ من يدها وارتميت على أمي، ولما شعرت بأنها تعيد المحاولة لإرجاعي، لم أجد حلًّا إلا التشبُّث بعنق أمي والصراخ بأعلى صوتٍ أقدر عليه.

قالت لي أمي بعد أن كبرت: إن هذه كانت عادتي، فما إن يطرأ شيءٌ على البيت، شيءٌ محزنٌ أو حتى مفرح، كنت أتركُ الدنيا كلها، الطعام، اللعب، الرضاعة، كل كل شيء، وألقي بنفسي على صدرها، فتحتويني وتُدخل كفَّ يدها أسفل ملابسي وتظل تُملِّس على ظهري حتى أستكين.

وتربَّثت أُمُّ حسن لحظة ثم أدخلت ثديها في صدر الجلباب، وشدت طرحتها السوداء عليه. أمي وضيفتها كانتا مشغولتيْن عنها بالكلام عن أهل أبي، أنا وحدي الذي كنت منتبهًا لها. طفقتُ أتابعها وهي تعدل فردة حذائها المقلوب بطرف إصبع قدمها الكبير، ثم وهي تُحْكِم عقدة الطرحة التي على رأسها، وعندما مالت بكتفها لتسحب الفردة الثانية من أسفل الكنبة عرفت أنها تتهيَّأ للقيام، إلَّا أنَّ أمي تدخلت في آخر لحظة، ضغطت على رُكبتها ضغطةً خفيفةً لتبقى قليلًا وتكمل لي الرضعة، وعندها تقوَّستُ بظهري وبدأت في إعادة حساباتي مرةً ثانية.

قالت أمي للضيفة وهي تُربِّت على ركبة أُمِّ حسن: إنها جارتها وأختها التي تعرف كل أسرارها وأنها مهما فعلت لن تستطيع رد جميلها، فقد تطوعت لإرضاعي مع ابنها (حسن) بعد أن جفَّ اللبن في صدرها، وأم حسن من الحياء تحاول منعها من الاسترسال ثم تزحزحت بعجيزتها نحوها واحتضنتها مُعزِّيةً، وأمي تبادلها النظر وعيناها مُمتنَّتان.

وانتصبت أنا واقفًا في حِجْر أمي أُلاعبها وأُشاغلها، أشدُّها من أُذُنها ومن ياقة الجلباب وأضربها بكفَّيَّ الصغيرتين على عنقها ووجنتيها، ولم أغفل بالطبع عن تحركات أم حسن. لم أبدأ في الزمجرة إلَّا لما رأيتُها تزيح الطرحة إلى ما وراء ظهرها، وتفكُّ الزرار المحكوم على ثديها. فهمت ما عقدَتِ العزم عليه، غير أني كنت شبعًا أو ربما نفسي مسدودة عن الرضاعة وشرب الحليب، فانثنيتُ بركبتي محاولًا الإفلات من تحت ذراع أمي إلَّا أنَّ أُمّ حسن قطعت عليَّ الطريق، جذبتني بحركةٍ خاطفةٍ وأنا أعافر وأشهق من حِدَّة البكاء، وهي تُهدهدني وتؤرجحني ثم احتوتني بذراعيها وضمَّتني إليها، وأخذت تعلو وتهبط بصدرها وأنفاسها تختلط بأنفاسي. كتمتني كتمة سوداء، كنتُ أشبه باللعبة بين يديها وأدركتُ أنه لا فائدة من المقاومة، فاستكنتُ بين أحضانها وتحسَّست

ثديها معاودًا الرضاعة وعيناي على أمي، ولما غلبني النَّعاس أراحتني على الكنبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أعرف كَم انقضى من الوقت بعد ذلك، ربما دقيقة أو أكثر أو أقل، لا أدري.. كل الذي أتذكَّره، أني قمت مخضوضًا على صوت جدَّتي.

كانت خنفاء، غير أن خنافتها لم تكن خنافة صريحة واضحة كالناس المصابين بهذا الداء، خنافة خفيفة وتتحسن بالنشوق، فإصبعها الصغيرة تُدخل نُتْفةً منه في أنفها وتسحب نَفَسًا طويلًا وعطسة فالثانية ويصبح صوتها معقولًا، ربما العيب الذي ظل معها ولا علاج له الرِّتْم الذي كانت تتكلم به، رتم سريع فكما الرهوان عندما تتكلم، ولا يمكن لأحد فهم كلامها بتاتًا إلَّا إذا تأهب جيدًا ودَقَّق السمع.

يبدو أن الخبر وصل إلى المطبخ فأتت مسرعة، وقفت بقامتها القصيرة وشعرها المَشُوب بالحُمْرة، تمسح يدها في المريلة التي ترتديها على جلباب البيت، ثم أشارت إليَّ قائلة:

- أمَّال مين اللي هيربِّي بسلامته؟

لم تردَّ أمي، وأحسَّت الضيفة بالحرج، هبَّت واقفةً لتنصرف، إلَّا أنَّ أمي أمسكتها من ذراعها وأعادتها إلى الكنبة.

وجدَّتي لا تزال واقفةً وقد ركبها (العصبي)، رُكْبتها اليسرى انثنت قليلًا والساق من أول هذه الركبة حتى مُشْط القدم ترتعش رعشات سريعة:

- البابا هو اللي هيربي! هيربي منين؟ دا فقير وكحيان، دا واحد بيصلَّح ساعات ورزقه يوم بيوم..

وتشير بسبَّابتها نحو صدرها:

- وأنا خلاص نظري راح وبَطَّلت خياطة..

ثم تشيح بغضبٍ في وجه أمي:

- وحضرتها خالية شغل من ساعة لمَّا البيه جوزها خلَّاها تسيب بنك صيدناوي، يعنى عشانا عليك يارب..

وفكَّت المريلة، كوَّرتها وألقتها بضجر ثم جلست إلى جانبي. جاءت ركبتها بجوار رأسي تمامًا، وكنت أنا مُمدَّدًا على ظهري فالتمستُ الحيطة، تزحزحتُ

قليلًا حتى ابتعدت عنها عدة بوصات، وقلبتُ عيني إلى الوراء لأتمكن من رؤيتها.

للوهلة الأولى بدا أنفها من الزاوية التي أنظر منها أكبر قليلًا من الحجم الذي تعوَّدتُ عليه، لكن هذا لم يشغلني كثيرًا، الذي أثار انتباهي الرعشةُ التي أصابت زاوية فمها اليسرى، أعرفها، فدائمًا تجيئها كلما تأهبت للدخول في مشاجرة، ووجدت نفسي بعدها منجذبًا نحو ذراعيها. لا تعرفان السُّكات أبدًا.. أبدًا أبدًا! ظلت عيناي تدوران معهما وهما يعلوان ويهبطان، وأصابعها التي تثني وتنفرد إلى أن أشاحت بكفِّها نحوي فجأةً، فحسبت أنها تُسدِّد لطمةً إلى وجهي، فانتفضتُ خائفًا. أظن أني انقلبت ساعتها على وجهي، وكدت أسقط من فوق ظهر الكنبة لولا أمي، هبَّت إليَّ وخطفتني خطفًا من أمامها وهي تشير لها بحنق كي تهدأ، فيكفي الذي نحن فيه!

وهي لا تبالي بي ولا بأمي ولا بأي أحد، استدارت بعدها نحو المرأة التي تزورنا قائلة:

- قلت لها يا بنتي البني آدم ده مش لنا! اقبلي سوسو ابن خالتك ولَّا مكرم جارنا اللي في أول الشارع، ومفيش فايده! راسها ناشفة زَيّ أبوها، كان فيه إيه اللي اسمه محمود ده؟ والله ما كان يدخل في ذمتي بسحتوت.

فردت عليها المرأة وبادرةُ غضبٍ تفوح من كلامها:

- الله يرحمه بقى يا نينة، دا شهيد ومقامه كبير عند رَبِّنا.

- شهيد!

وتدخَّلت أمي بغضب:

- أيوه شهيد! مش كان رايح يدافع عن بلده، يبقى شهيد.

- أنا لا بتكلم دلوقتي عن الحرب ولا الشهادة، كان فيه إيه يا عين أُمِّك علشان تتجوزيه؟! دا لا كان مِنِّنا ولا من دِينَّا..

ويبدو أنها شعرت بأنها أوقعت الضيفة في حرج، فتداركت:

- أستغفر الله أستغفر الله، هو أنا قلت إيه، مش قصدي مش قصدي والله.. أنا قصدي إن الجوازة الخايبة دي مكنتش لنا.

وساد الصمت إلى أن قالت الضيفة:

- معلش يا تانت، ما انتي حضرتك عارفه قد إيه كانت كاميليا بتحبه ومتعلقة بيه.

- بتحبه! وجالنا إيه من الحب، آهو ضيَّع البنت معاه.

- نصيب يا تانت، نصيب.

فانحنت جدَّتي برأسها تقلِّب كفَّها وتغمغم: نصيب، نصيب إيه! أقولَّها ضيَّع البنت، تقولِّي نصيب! أقولَّها مش عارفة إيه، تقولِّي شهيد!

فصاحت فيها أمي:

- ماما! وبعدين.

لم تلتفت جدَّتي إليها، شدت حُقُّ النشوق من أسفل شلتة الكنبة، دسَّت نُثْفةً منه في فتحتَيْ أنفها وعادت برأسها قليلًا إلى الوراء، عيناها مشدودتان ورعشة واحمرار خفيف يكسوان مقدمة الأنف، ثم ما لبثت أن دخلت في شوطٍ من العطس أشبه بالعراك والضيفة تحدق فيها وتميل إلى الوراء حَذِرةً من الرذاذ المتساقط. وبعد أن فرغت أخرجت منديلًا أسودَ من عِبِّها (وهات يا تسليك في أنفها)، ثم مالت على الضيفة تهمس برتمها السريع:

- أربع سنين يا بنتي وإحنا نقار في نقار! ييجي يوم ويغيب شهر! ولمَّا ييجي تبقى فرحانة وبتتنطط.

وتقلِّب كفَّيْها بدهشة:

- فرحانة على إيه بنت العبيطة! لا وتقول إيه: الدنيا مش سايعاني النهارده يا نينة، مش عارفه إيه يا نينة ولا أبصَر إيه يا نينة!

ثم تبتسم جدَّتي ابتسامة غيظ:

- ولما حضرته يشرَّف عندنا هنا، أقول له: يا بْنِي شوف لك شقة تلمَّك إنت ومراتك بدال الأوضة اللي إنت واخدها فوق السطوح؟ يهز راسه! يا بْنِي قلت للبابا والماما إن مراتك حامل؟ يهز راسه! يا بْنِي؟ يهز راسه! لا أنا عارفه قال ولَّا مقلش! يا بْنِي خلِّي البابا والماما يزورونا؟ يهز راسه! طيب نزورهم إحنا؟ يهز راسه! أقولَّه، يهز راسه! أقوله، يهز راسه!

ولم تعد تتحمل الضيفة ولا أم حسن، انصرفتا، وانسلَّت أمي إلى غرفتها..

كنت أسمع بكاءَها وهي تقوم من فوق الكنبة متوجهةً للغرفة، وجاهدتُ للنزول والحَبْو وراءها.

وفي منتصف الليل أتى جدِّي، أبلغته جدَّتي بالخبر وهو على باب الشقة.

أطرق رأسه وقال:

- يا رحمن يا رحيم.

وفتح علينا باب الغرفة وعيناه مهمومتان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

جدِّي كان من اليهود الغلابة..

فالشقة التي نعيش فيها معه كانت بائسة، والصالة بالذات التي نجلس ونأكل ونشرب فيها ليس بها سوى أريكة لا تزال باقيةً من جهاز جدَّتي وحشوها ساقط، غير كنبتين بلدي متقابلتين ومَكسوَّتين بقماشٍ رخيصٍ طالته حروق السجائر وتناثرت عليه هنا وهناك؛ خاصة الموضع المخصص لجلوس جدِّي.

وعلى أول الطرقة المؤدية إلى المطبخ مقعدان من الخيزران، يحجبان جانبًا من ماكينة خياطة ماركة (سينجر) موصدة منذ زمن، وكليم قديم من الصوف يشغل بالكاد المساحة التي تفصل بين الكنبتين، تتوسطه دائرةٌ سوداء تتفرع منها خطوطٌ بكل الألوان، وفي أحد أطرافه رقعتان لم تفلح جدَّتي في رتقهما بعد أن طعنت في السن، وتبدوان من أول نظرة للكليم.

أما الجدار فلا لون له تقريبًا.

تقول أمي: إنها منذ أن وعت على الدنيا لا تتذكر أن يدًا أمسكت بالفرشاة وقامت بدهانه، وبه ثقوب كانت من قبل موضعًا لبراويز تحمل صور أفراد العائلة، خالي إيزاك الذي رحل ولا نعرف عنه شيئًا، وخالي شمعون الذي أخذ صورته ليعلقها في شقته الجديدة.

الصورتان المتبقيتان لخالتي بِيلَّا وهي واقفة بملابس المدرسة، وإلى جوارها جدَّتي جالسة على مقعد من الجلد ذي مسندين، والأخرى لجدِّي زكي في برواز ذهبيٍّ تآكلت حروفه، ووجهه فيها مُكفَهِرٌّ على غير عادته في الطبيعة، والطربوش مائلٌ إلى اليسار ويبدو جانبٌ من ياقة الجاكتة الكحلي والكراڤتة الرمادي، اللتين لا يرتدي غيرهما سواء أكُنَّا في الشتاء أم حتى في الصيف.

وعلى يمين الصالة غرفتان إحداهما لجدِّي والثانية لي أنا وأمي، وأمام كل واحدة منهما فروة غنم بلون بُنِّي، فلم يكن غيرنا بالشقة، خالي شمعون يسكن في أول الشارع هو وزوجته سارة، وخالتي بيلا غادرتنا السنة الماضية بعد أن تزوجت وتعيش الآن في بورفؤاد مع زوجها وابنتهما راشيل، وبقية أهل أمي أكثرهم هاجر ولم تبقَ إلَّا عائلةٌ تعيش بالقرب من محل (بريموس) بالعتبة، وأختٌ لجدَّتي تقطن بمفردها في شارع شيكولاني بشبرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جدِّي هو أول من يستيقظ في البيت..

أشعر بحركته في الصالة وهو يمر متجهًا إلى الحمَّام..

أنظر إلى أمي فأجدها نائمة، وعندها تبدأ محاولاتي للتدلِّي من السرير، غالبًا ما تنجح، إلَّا أنِّي كنت أسقط أحيانًا على ركبتي أو تلتوي ساقي، فأنطلق في صراخٍ حادٍّ لا أخفف منه إلا لمَّا أجد يدين تحملانني من الأرض وتُهَدْهِدانني وقبلاتٍ متتالية على موضع الألم حتى أرضى. غالبًا ما تكون يدَيْ جدِّي زكي؛ فقد كان يُسرع إليَّ من أي مكان بالشقة وقبل حتى أن تنتبه أمي.

بعد مناوشاتٍ مع أمي ومحاولاتٍ فاشلة منها لإعادتي إلى السرير، أجتاز باب الغرفة زاحفًا فأجده جالسًا على الكنبة. يتبسم لي، فأزيد من سرعتي في الحَبْوِ حتى أصل إلى قدميه. كنت أندهشُ من حجمهما الكبير وأُقْعِي على مؤخَّرتي قُبالتهما مُفكِّرًا في الذي أفعله بهما. أبدأ أولًا بضربهما بلكماتٍ سريعةٍ وجدِّي يرمقني من أعلى، وكلما بدا الرضا على وجهه أزيد أنا من ضرباتي حتى ألهث، فتكف يداي وأظل ساكنًا إلَّا صدري وحده الذي كان يعلو ويهبط. لحظة وتجذبني الشعيرات السوداء النابتة على أصابع قدمه فأنحني محاولًا اقتلاع واحدة منها، تستجيب الشعرةُ وتنساب بين أصابعي غير أنها سرعان ما تفلت.

أحاول مرةً ثانيةً وثالثةً وسابعةً حتى ينتابني الملل، فأضطر لفعل الأشياء السهلة، أخربش بأظفاري في باطن القدم، أو أضع أي شيء ألقاه أمامي بين فتحات الأصابع، عود كبريت، رباط حذاء، بقايا حبَّة كراملة تكون في جيبي.

يرفعني جدِّي إليه ضاحكًا ويعدل من ملابسي، وعندما يجد سروالي مبلولًا يبحث في الدولاب أو أسفل المقاعد وأحيانًا في أدراج التسريحة عن واحدٍ آخر نظيف، وأمي لا تزال تَغطُّ في النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمجرد استيقاظ جدَّتي يتبدل مزاجي وأبدأ في التحفُّز..

أراها خارجةً من غرفتها منكوشة الشعر، عادةً ما تكون ممسكةً بينسة بأطراف أصابعها، تقف لحظاتٍ بالقرب منا وتشبكها في شعرها، وأكفُّ أنا عن الحركة. أركن ظهري على حافة الكنبة وعيناي عليها، تلقي التحية على جدِّي، وتقول له كلمة أو كلمتين وتمضي. لم تكن تبالي بوجودي وكنت أتحاشاها أنا الآخر، وإن تصادف واحتكَّ ذيل جلبابها بي أثناء مرورها أمامي أعتبر هذا تحرشًا بي وأبدأ في الزمجرة. يلحقني جدِّي. يرفعني من الأرض ويضعني في حِجْره، أو يلقي بي في الهواء ويتلقَّفني، أو يسرع ويضع أمامي كل ما هو متوافر في البيت من كراكيب ليشغلني بها، أغطية زجاجات، أُسْتِيك ساعة، صفَّارة قديمة، طبق مكسور، أو بعض الفواغ...

أترك اللعب فجأة وأتوجه صوب الشرفة..

فعندما تناديني كنت ألقي ما بيدي وأحبو نحوها، ولا أستجيب أبدًا لأيَّةِ محاولةٍ تُبذل لسحبي بعيدًا عنها.

ينادون عليَّ فلا ألتفتُ إليهم، يلقون أمامي بالمسخوط الذي أحبُّه كي أعدل عمَّا في رأسي ولا فائدة، يشدونني من خصري وقدميَّ فأستمر زاحفًا على يدَيّ. تضربني أمي على مؤخَّرتي فيعلو صراخي ولا أتنازل أبدًا عن مطلبي، وعندما يَملُّون مني يتركونني، لكن عينَيْ جدِّي بالذات لم تكونا تغفلان عني.

أول ما أجتاز باب الشرفة كنت أتوقف ثانيةً أو ثانيتين لأستريح، وتروح عيناي عادةً إلى الجدار فإن وجدت ذبابة أو صرصارًا أو رءُوس الثوم المعلقة في الزوايا تهتز بفعل الهواء أتابع ما أرى. وعندما أتذكَّر المهمة التي أنا قادم لها أصرف النظر عن هذه الأشياء التافهة، ودومًا كنت أحتاطُ وأنظرُ خلفي كل دقيقةٍ خوفًا من أن يكون هناك من لا يزال يقتفي أثري. أعافر بعدها لأدخل جانبًا من رأسي بين القضبان الحديدية للشرفة وتنتابني نشوة كأنها السحر. أرى الناس، الأولاد والبنات، الرجل الذي يدفع عربةً أمامه وينادي على الآيس كريم، دُكَّان عَمْ مرزوق الفطاطري، عطارة الحاج محمود زوج أُمّ حسن، فرن أبو عجوة، بقالة الخواجة كافورس، وقهوة أبو عوف...

ساعات كنت ألمح أُمَّ حسن سائرةً في الطريق..

أعرفها عن بُعدٍ فأناغي عليها وتنساب الرِّيالَة من فمي على (الباقتة) المتدلية على صدري، وإذا رفعتْ عَينيْها مرة ورأتني تشير إليَّ فأضحك بصوتٍ عالٍ وأضرب بلاط الشرفة بقدمي. والذي كان يخلبُ لُبِّي أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، محل عصير القصب المواجه لعمارتنا، كنت أعشق رؤيته خاصةً عندما تأتي غبشة المغرب، وتضيء واجهته باللمبات (النيون) البيضاء والحمراء والخضراء. تظل تضيء وتنطفئ على نحوٍ مُتتالٍ وأنا أتأملها مشدوهًا وجسدي تنهشه اللذَّة، ومن هذا الذي يقدر وقتها على أخذي إلى الداخل؟! كنت أبكي وأحوِّل البيت إلى مناحة، فيتركونني حتى أستسلم للنُّعاس ويحملونني بحذر بعدها إلى الفراش.

طالما حكت لي أمي عن هذه الأيام..

خاصةً تلك الليلة التي أراد جدِّي وجدَّتي الاحتفال فيها بعيد زواجهما في البلكونة، اشترى جدِّي دستة جاتوه من حلواني بميدان الجيش وبسكوت مَحْشوًّا بالعجوة وغُرَيِّبَة وبيتي فور وبقسماطًا بالسمسم وكيسَيْ لُبّ وفول سوداني، وبناء على طلب جدَّتي أتى من بقالة كافورس بزجاجه بيرة (ستيلا) من الحجم الكبير، ووضعت أمي الشاي باللبن في الأكواب ورصُّوا كل شيءٍ

على المنضدة. غير أن جدَّتي لم تستسغ وجودي ومحاولاتي الدَّءُوبة للوقوف على حِجْرِ جدِّي للمشاركة في هذه الوليمة، فحلفَتْ بكُلِّ غالٍ عليها ألَّا يبدأ الاحتفال إلَّا بعد أن تأخذني أمي إلى السرير وتقوم بتنييمي ولَو قَسْرًا. ولما خفت صوتانا أنا وأمي استبشرت خيرًا. هي ربع ساعة فقط وفوجئا بعودتي إليهما زاحفًا، والبرَّازة تتأرجح أمامي، أمي هي التي نامت! ضحك جدِّي ضحكةً عاليةً وخطفني من فوق الأرض ووضعني على رُكْبته.

كانت ليلةً سوداء على جدَّتي؛ أشدُّ الطَّبَق الذي أمامها مرةً وأقذفها مرةً ثانية ببقايا قطعة الجاتوه التي في يدي، أما كيسا الفول السوداني واللُّبّ فقد أطحتهما على الأرض بضربةٍ من يدي.

وعندما بدأت جدَّتي في احتساء البيرة قطعت النفس تمامًا، أرمقها بوجهٍ مشدودٍ وهي ترفع الزجاجة وتصبُّ منها في (الشوب) الذي في يدها، يطشُّ السائل فتتسع حدقتا عيني وأظل أترقَّب، تعلو الرغاوي بصوتٍ خافتٍ حتى تسيلَ من حافَّة (الشوب) فأفقد صوابي، ولا تستطيع يدا جدِّي كبح جماحي، أقفز بثلثَيْ جسدي على المنضدة وأشد منها (الشوب) فتدور معركةٌ بيننا. لم تَنْتهِ الليلة على خيرٍ ولحقت الخسارةُ بالطرفين، قرصتني هي في ذراعي قرصةً ازرقَّ بسببها أسبوعًا، وكسرت أنا لها (الشوب) خمسين قطعة.

أقسمت بعدها ألَّا تدخل البيرة في البيت حتى أكبر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

جاء خالي شمعون لزيارتنا..

فتحت أمي له الباب وطارت إلى غرفتها، دخل ومعه ضيفٌ وجلسا متجاورْين، وخرج جدِّي وجدَّتي وراء بعضهما من الغرفة الثانية.

كان جدِّي حليق الذقن على غير عادته يوم الإجازة، المنشَّة في يده، ويرتدي الچاكت الكُحْلي على جلبابٍ أبيض وعلى رأسه الطربوش، نفس اللبس الذي يذهب به إلى المعبد أيام السبت، وجدَّتي بالفستان القطيفة النِّيتي الذي تدَّخره للمناسبات. جلسا على الكنبة المواجهة لخالي والضيف، أمي هي التي بقيت في غرفتها.

كنتُ في الصالة ساعتها وأمامي مجموعةٌ لا بأس بها من الكراكيب ومزاجي رائقٌ لِلَّعب، ألكُم المسخوط عدةَ مراتٍ في رأسه ثم أنحني عليه وأعَضُّه عضَّةً طويلة في بطنه لعلَّه يبكي أو يصدر عنه أي شيء ولا فائدة، فأنحِّيه جانبًا وأبدأ في النفخ في زجاجةٍ فارغةٍ أو دحرجتها أمامي جيئةً وذهابًا، أو الدّقّ بقبضة يدي على ساعة قديمة من مُخلَّفات جدِّي.

فجأةً وأنا في حموة اللعب شدني منظرٌ مثير..

فردة شبشب جدَّتي..

الفردةُ البرتقالي أم فيونكة حمراء من أعلى، الفردة التي كانت ترفعها في وجهي وتهددني بها فأطير خائفًا، الملعونة أُمْ كعب (مَبْرِي) التي كنت أعمل لها ألف حساب، خرجت كلها من قدمها اليُمنى وتعلقت بالإصبع الكبيرة، وجدَّتي المشغولة بتفحُّص الضيف تؤرجحها إلى أعلى وأسفل بحركة لا تتوقف.

استفزني المشهد!

وبلا وعي مني أو تخطيط وجدتُ نفسي أحبو بحذرٍ نحو جدَّتي، وأخطفها خطفًا من قدمها وأعود مسرعًا إلى موضعي الأول وعيناي تلمعان ببريق النصر، وأول ما التقطتُ أنفاسي ألقيتُها بكل عزمي ناحية باب الشرفة، ثم انهمكتُ في اللعب ثانيةً وكأن شيئًا لم يحدث. ضحك خالي شمعون على فعلتي وتبسَّم الضيف، أما جدِّي فلم يملك نفسه، انفتح في نوبة ضحك عالية ورأسه وكتفاه تهتزُّ، لم يتوقف إلا لمَّا رفعت جدَّتي حاجبها الأيسر ونظرت إليه، ويبدو أنها - ودونَ أن نشعر - وخزته بشيءٍ حادٍّ في مؤخَّرته، إبرة أو دبوس أو ربما

قرصته قرصةً مؤلمةً بأظفارها؛ إذ رأيته يهبُّ فجأةً إلى الأمام، ثم يتقلقل على الكنبة مبتعدًا عنها وهو يضع يده على موضع الإصابة.

واحترامًا للضيف وكي لا تعطيه جدَّتي انطباعًا سيئًا عني لم تشخط فيَّ، اكتفت بالإشارة إلى خالي بأن يحملني إلى الداخل أنا وكل متعلقاتي فأسرعت إلى جدِّي محتميًا، وضع يده على رأسي ولم يرفعني إلى جانبه، أو يضعني في حجره كعادته. عرفت بالغريزة أن الموقف ليس في صالحي وهو لا يستطيع التصرف، فمكثتُ بجوار قدمه يداي مُتدلِّيتان في حِجْري وهادئًا لا أتحرك حتى لا أثير حفيظة جدَّتي أكثر من ذلك.

قال خالي شمعون لجدِّي وجدَّتي، وهو يشير إلى الضيف:

- الأستاذ لبيب قَطَّاوي.

ردَّا بصوتٍ واحد:

- أهلًا وسهلًا.

أردف خالي:

- حضرته بيشتغل صرَّاف في محل شملا ووالده عنده فابريكة بسطرمة في الفَجَّالة.

ثم تأنَّى لحظةً وأضاف:

- وكان كلِّمني على كاميليا، هو عارفها من أيام ما كانت بتشتغل في صيدناوي قبل لمَّا...

وتوقف..

تداركته جدَّتي، تبسَّمت للأستاذ لبيب وسألته: إن كان يقرب لجماعة القَطَّاويَّة الذين يسكنون في العباسيَّة الشرقيَّة.

قال: إنه لا يعرفهم.

قالت: إنها لا تقصد عائلة قطاوي باشا وإنما جماعة القطاوية الذين يعملون في سباكة الفِضَّة.

لم يُجِبْ. رفع شفته السُّفلَى وسكت، تنحنحت وسكتت هي الأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الأستاذ لبيب خفيف الشعر، راح الثلث الأمامي من شعره تقريبًا رغم أنه لا يزال شابًّا، أما قامتُه فقصيرةٌ بشكل لافت، تزيد قليلًا على قامة الولد الكبير؛ لذا لم تأخذ قدماه راحتهما على الأرض. مقدمة الحذاء هي فقط التي كانت تصل إلى الكليم ثم تعود وترتفع بمقدار بوصة أو بوصتيْن تقريبًا، اضطرَّ الأستاذ لبيب إلى التزحزح قليلًا إلى الأمام حتى هبطت قدماه على الأرض واستراحتا. وفي العموم كان هذا الرجل رذلًا، لا يبتسم ولا يضحك وكلامه بالقَطَّارة، دمي لم يتوافق مع دمه من اللحظة الأولى وأظن أنه بادلني نفس الشعور ولم يسترح لشقاوتي، اعتبرها دلعًا ماسخًا ونقصًا في التربية، ولا أظن أن جدِّي كان مرتاحًا له هو الآخر، جدَّتي هي التي كانت ملهوفةً على تزويج أمي من أيِّ يهوديٍّ يطرُق بابنا حتى ولو كان هذا التافه..

نظر تجاهي فوجدني أنظرُ إليه أنا الآخر، فأشاح بوجهه مقلبًا عينيه في محتويات الشقة. ساعة الحائط، رأس ماكينة الخياطة، وصُرصْار من الحجم الصغير يهبط على الستارة المعلقة على أول الطَّرْقَة المُفْضيَة إلى المطبخ متجهًا نحوه، غير أن أكثر شيء شد بصره هو صورة جدِّي المعلقة على الجدار المواجه له، دقَّق النظر فيها ثم هبط بعينيه إلى جدِّي القابع أسفل منها ويرمقه من طرفٍ خَفيٍّ هو الآخر. بدا الأستاذ لبيب لبرهةٍ وكأنه مشغولٌ بعقدِ مقارنةٍ بين الأصل والصورة، أرخى رأسه بعدها ولم تعُدْ تصدُر عنه أيَّةُ حركةٍ حتى حسبت أنه نام.

وقامت جدَّتي..

نقرت على باب غرفتنا وكلمت أمي كلمتين من فتحة الباب، ثم أسرعت إلى المطبخ. قبل أن تغلق أمي الباب لمحتني وأنا أتطلَّع إليها بدهشة، تبسَّمت فرددت عليها بضحكة لها صوت، كان وجهها غريبًا بعض الشيء وليس الذي اعتدت عليه، البشرة أكثر تألُّقًا بفعل البودرة والمساحيق، وأذناها الصغيرتان تحملان حَلَقًا كبير الحجم على هيئة نجمة سُداسيَّة الشكل.

أتت جدَّتي بصينيَّة عليها دورقٌ وزجاجتا مياهٍ غازيَّةٍ وأكوابٌ فارغة، أخذ الأستاذ لبيب الزجاجة ذات اللون الأحمر ومد خالي يده للزجاجة الثانية. كنت أحب اللون الأحمر فهببتُ على قدميَّ دفعة واحدة وخطوت خطوة ثم انكفأت على وجهي، كانت هذه هي المحاولة الأولى للوقوف وجاءت عفوًا. لم أعبأ بالسقطة أو أفكر في بكاء، انطلقت حبوًا كما الريح نحو الضيف لأعاركه على الزجاجة، فشاطت النار في جدَّتي وقامت نصفَ قومةٍ لتهددني وأنا أزداد تصميمًا، لم أكترث بها وبقيت تحت أقدام الرجل أشده من جوربه ليعطيني إياها. رَبَّت على ظهري وتركها لي، فعدتُ إلى موقعي الأول أمام الكراكيب

وهي تتدحرج أمامي وقد فرغ نصف محتواها على الكليم، وأسرع خالي إلى المطبخ وأحضر زجاجةً ثانية.

قال وهو لا يزال واقفًا يرفع غطاء الزجاجة بفتَّاحة في يده:

- الأستاذ لبيب معرفه قديمة، فين! من أيام مدرسة الخديوي إسماعيل لمَّا كُنَّا ساكنين في الناحية التانية من شارع الخليج.

هزَّ الأستاذ لبيب رأسه بلا أيِّ انفعالاتٍ أو علق بكلمةٍ على أيام المدرسة وهذه الذكريات، خلع نظَّارته الطبيَّة ونفخ في زجاجها عدة مرات، ثم التفت إلى خالي يسأله عن ورقة (بَفْرَة) فأتى له بدفتر كامل، شد ورقتين من الدفتر وانهمك في تنظيف زجاج النظارة.

وقالت جدَّتي:

- فكَّرتني بأيام زمان يا شمعون، كانت أيام حلوه، صحيح العمارة كانت قديمة ومحدوفة لجُوَّه إنما سكانها كان ربعهم يهود على جريج وطلاينة والعيشة مرتاحة، مش البلاوي اللي معانا هنا في العمارة!

فقال جدِّي وهو يشيح بيده:

- يا ستِّي هنا ولَّا هناك آهي كلها عيشة وكلنا ولاد آدم وحَوَّا.

وبنبرةٍ جادَّةٍ غيَّر مسار الحديث:

- أهلًا وسهلًا يا أستاذ لبيب، شرَّفتنا.

وأسرع خالي:

- الأستاذ لبيب عايز يتقدم لخطبة كاميليا.

تحسس جدِّي طرفَيْ شاربه، وهو يقول بصوتٍ رزين:

- ويا ترى حضرته عارف ظروفها؟

- ظروفها!

قالها الأستاذ لبيب بصوتٍ خافتٍ وهو يميل برأسه ناحية جدِّي، وكانت أمي قد فتحت باب غرفتها فرفع الجميع رءُوسهم نحوها، سلمت بايماءَةٍ خفيفةٍ وجلست بين جدِّي وجدَّتي.

قالت على الفور وبصوت متوتر:

- أنا عارفه لبيب وشفته قبل كده بدال المرة عشرة وموافقة عليه، بس الولد؟ المهم الولد؟

تطلَّع إليها الأستاذ لبيب مستفسرًا عن هذا الولد، ولمعت عيناه وهو يرمقني بنظرةٍ خاطفة. وبعد بُرهةِ صمتٍ نظر إلى خالي والقلق بادٍ على وجهه، إلَّا أنَّ جدَّتي صرفت الانتباه إليها لما أدخلت يدها أسفل شلتة الكنبة وأخرجت حُقُّ النشوق. لكزها جدِّي بمرفقه كي تُرجئَ الأمر، فلا داعي الآن للعطس والتمَخُّط والرذاذ في حضور الأغراب، غير أنها لم تكترث به وهمَّت بفتح الحُقِّ؛ لكنها أعادته إلى موضعه على الفور عندما لمحت الأستاذ لبيب يتابع ما تفعل، أكيد دار في ذهنه ما دار في ذهن جدِّي..

وهرشت جدَّتي رأسها وقالت:

- وماله الولد؟ دا يتيم ومحتاج الرحمة، وإذا الرب أذَن وتمِّم بخير شوية عندي وشوية عندكم.

ثم مالت نحو الأستاذ لبيب وأردفت:

- ولَّا إيه يا أستاذ؟

فردَّ بدهشة:

- الولد! واد إيه؟

- الواد جلال ابن كاميليا، المفعوص دَهُه - وأشارت إليَّ - شوف وِشُّه عامل زَيّ الملايكة إزاي.

فقال وعيناه تتحاشيان النظر إليها:

- آه..

- مش كده برضه يا بْنِي؟

امتقع وجه الأستاذ لبيب وأدرك أنه إن لم يتصدَّ لجدَّتي فلا محالةَ سوف يشرب مقلبًا، غير أن وسائل دفاعه لم تسعفه بردٍّ فوريّ فآثر الصمت، انحنى برأسه قليلًا وازداد انتباهًا.

واسترسلت جدَّتي:

- الكام شهر الأولنِّيين ضروري هيكون عندي، وبعدها أمه تاخده وأنا جاهزة في أي وقت لمَّا تحب تجيبه.

وتبعها خالي:

- طبعًا طبعًا لازم يكون عندك في الأول يا نينة علشان حتى الرضاعة.

ثم ابتلع ريقه وأضاف وعيناه تتحاشيان الأستاذ لبيب:

- وهو يقدر يسيب أُمّ حسن لحد ما يتفطم؟

بقى جدِّي صامتًا يراقب ما يجري ويتنقل بعينيه بين المتكلمين، سكنت المِنَشَّة في يده فجأةً وقال بصوتٍ قاطع:

- اسمع يا ابن الحلال، الولد مسلم وأبوه متوفي وأمه مش قادرة تستغنى عنه، يناسبك الوضع ده؟

انطلق لسان الأستاذ لبيب عاليًا وهو ينتفض واقفًا:

- إيه؟ بتقولوا إيه!

ثم التفت إلى خالي:

- أنا مكنتش فاكر الحكاية كده ياسي شمعون! ما قلتليش ليه من الأول؟ مخلِّفة عيِّل دي لوحدها حكاية وإن اتبلعت تتبلع بالعافية، إنما مسلم! عايزني أربِّي عيل مسلم في بيتي! آدي اللي ناقص يا سيدنا..

فقال خالي بحدَّة هو الآخر:

- فيه إيه يا لبيب؟ عاملها حكاية كده ليه! ما أنت عارف إن كل اللي بييجي من بطن يهودية يبقى يهودي.

وساد الصمت، حتى أنا الآخر كفَفتُ عن اللعب متابعًا ما يجري، ويبدو أن الأستاذ لبيب شعر بأنه خرج عن حدود اللياقة بما قال، فعاد إلى الكنبة والكل يتطلع إليه منتظرًا بقية كلامه.

قال بهدوءٍ وعيناه في عينَيْ جدِّي:

- إذا كنت يا عمي بتسألني عن الوضع ده يناسبني ولا لأه؟ أنا بقول لأه وألف لأه، وأنا بصراحه عايز كاميليا وبس، خلُّوا الولد عندكم، كل واحد أعلَم بحاله وأدرَى بظروفه.

وغمغم مُحدِّثًا نفسه: يا خبر أسود دي كانت الماما تروح فيها..

فقالت له جدَّتي:

- حيلك يا أستاذ لبيب، حيلك حيلك الحكاية عايزه شوية تفكير، وبقولك إنه في الأول حيفضل الواد معايا وفين بقى لحد ما يتفطم.

نظر إليها بضيق:

- لا رضاعة ولا فطام خلُّوا الولد عندكم، دي مسألة مبدأ لا فيها كلام ولا فصال.

- طب يا ْبنِي شاور نفسك ورُدّ علينا بعدين؟

فقال وهو يُجفِّف عرقه:

- أشاور نفسي! قوي قوي أشاور نفسي..

وعندما خرج قالت جدَّتي لأمي بغضب:

- يعني كان لازم تجيبي سيرة الزفت ده أول ما تطلعي من الأوضة؟

فردَّت عليها بحنق:

- كفايه بقى يا نينة، كفاية كفاية.

وأسرعت باكيةً إلى غرفتها، وأنا وراءها على أربعٍ وأبكي لبكائها.

مال بخِت أمي بسببي، فلم يرجع الأستاذ لبيب طبعًا ولا أيٌّ من خُطَّابها اليهود الذين أَتَوْا بعده، فما إن يَرَنِي أحدٌ منهم إلَّا وينقلب الأمر في غير صالحها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

كبرنا معًا أنا وبعض أولاد العمارة..

حسن أخي في الرَّضَاع، فهمي ابن الأستاذ حسني باشكاتب المحكمة، علي ومصطفى الأخوان التوأم، ونادية بنت مدام السبكي.

نجحوا جميعًا في إقناع أمهاتهم بالنزول إلى الشارع، وأتوا إلى أمي.

وقفوا على بعد خطوات من الباب يلحُّون عليها كي أنزل معهم وهي ترفض، فلم يكن أحد من الأولاد يجرؤ على الدخول إلى شقتنا. كلامهم معنا كان على الباب فقط ومن مسافة، فشقَّتُنا ليست كأي شقة في العمارة وإنما كان لها دائمًا وضعُها الخاص، وأول ما يقترب منها الأولاد، الصغار منهم بالذات، كانت تنتابهم الرهبة وكأنهم مُقْدمُون على عالم سري محفوف بالغموض؛ لكنه وعلى أيَّة حال غموض جذاب يشوقهم لمعرفتنا على حقيقتنا! ماذا نأكل؟ وماذا نشرب والذي نلبسه أو نفعله عندما نكون بمعزل عن الناس؟ ومَنْ هؤلاء الناس الذين نعلق صورهم فوق الجدران؟ وهذا الشمعدان ذو الأذرع السبعة الذي يحظى بتقديرنا! وكل ما في بيتنا ولا يرونه بتاتًا في أي بيتٍ من بيوت المسلمين..

كانوا لا يستطيعون كبح جماح فضولهم أبدًا، وعيونهم رغمًا عنهم تتسلل دائمًا من فتحة الباب وهم يُكلِّموننا لعلَّهم يلمحون شيئًا من أشيائنا المستورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المهم أن مشكلة نزولي مع الأولاد حُلَّت، فجدِّي لم يكن قد خرج وبعد مشاوراتٍ وأخذٍ ورَدٍّ بينه وبين أمي وافقت.

اختارت لنا الأمهات أحد أيام الجمعة حيث تهدأ الحركة في الخارج، على أن يراقبونا من الشرفات وكانت سلسلة التعليمات التي أُلقيت علينا طويلة. حفظها كل واحد منَّا على أصابع يده وسمَّعها لأمه، أولها أن نمسك بأيدي بعضنا البعض ونمشي في تشكيل أشبه بالطابور وراء الست شوق زوجة البَوَّاب، وآخرها أن نصعد على الفور وبلا أي تَلكُّؤ أول ما ينادون علينا.

كانت الساعة العاشرة صباحًا هي ساعة الصفر..

تجمَّعنا كلنا على بسطة السلم المواجهة لشقة أُمّ حسن التي في الدور الثاني، وعندما شرعنا في التحرك أمسك مصطفى بجلباب الست شوق كما أوصته أمه، فنهره أخوه منبهًا إيَّاه إلى أن تصرفه هذا سوف يُقلِّل من قدرنا

أمام الناس في الشارع، وأيَّدناه كلنا مستهجنين من أخيه هذا التصرف الخائب!

كُنَّا جادِّين ساعتها وحسبنا أننا أصبحنا رجالًا بالفعل؛ لكننا انكشفنا أمام أنفسنا أول ما خرجنا من باب العمارة. أصابتنا رجفةٌ من الوسع والحركة والأصوات العالية، ووقفنا خائفين كالكلاب الصغيرة التي تضع ذيولها بين أرجلها عندما تواجه موقفًا صعبًا، لم نكن نعرف أي اتجاه نسلك، وأول ما كُنَّا نرى أولادًا كبارًا ماڑّين أمامنا نرجع تلقائيًّا عدة خطوات إلى الوراء حتى يبتعدوا، لم نفعل ذلك مع الرجال والنساء، كُنَّا ننظر إليهم على أنهم مثل آبائنا وأمهاتنا، الأولاد هم الذين خشيناهم بالغريزة ومن النظرة الأولى.

تقدَّمتنا الست شوق ونحن وراءها كما الدجاج شابكين أيادينا في أيادي البعض، وننظر إلى أنفسنا غير مصدقين. تلكَّأنا أمام القترينات واشترينا "سميط" وغُرَيِّبَة وكعب الغزال من فرن "أبو عجوة"، وانطلقنا كالسهام إلى المشروبات الغازِّيَّة. فمنَّا من شرب السينالكو أو الأورانجو أو الإسباتس، ومنا من اكتفى بالمصَّاصة التي في يده، وعندما تحرَّش بنا صبي الخواجة كافورس تصدَّت له الست شوق وأوقفته عند حده.

لم تزِد الجولة على مائتي متر عدنا بعدها مكرهين، بعد أن تبادلت امرأة البَوَّاب الإشارات مع أمهاتنا اللائي في الشرفات، وأخذنا نصيح ونقفز على السلم وندبدب بأقدامنا من الفرحة كأننا عائدين من غزوة.

طلبت من أمي بعدها أن أخرج مع الأولاد..

قالت: انتظر لباكر فغدًا إجازة جَدِّك وسوف تخرج معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان اليوم يوم سبت وجدِّي جالسٌ في موقعه المعتاد على الكنبة يقرأ في كتابٍ غلافُه أسود منقوش بزخارف بارزة، وسعال جدَّتي يأتي متقطعًا من داخل غرفتها.

لم ينتبه إلينا لمَّا تسحَّبنا وجلسنا قُبالتَه.

سألتُ أمي عما يقرأ؟

قالت بصوتٍ خافت: الكتاب المُقدَّس، ووضعت إصبع السبَّابة على فمها المزموم مشيرةً لي أن أسكت.

عندما كنت أسير مع أمي أو جدِّي في الشارع أو وأنا واقف في الشرفة، كنت أسمع الأولاد يحلفون بالقرآن، فمِلْتُ برأسي نحوها وسألتها بصوتٍ كالهمس:

إن كان هو الذي يقرؤه؟

سكتت برهةً وقالت: لا، وطلبت مني إغلاق فمي.

ويبدو أن جدِّي كان يسمعنا..

أرخَى النظَّارة قليلًا إلى أسفل وبدَتْ تقطيبةٌ على جبهته، وكأن شيئًا غريبًا يطفو على وجهه، ولم تكفَّ عيناه عن بعث رسائل مُشفَّرة إلى أمي، والتي كان واضحًا أنها تعي ما يُقال لها ووجهها يرد ويتكلم بدلًا عن فمها المغلق. ظلَّا عدة لحظات يتحدثان بلغةٍ لا أفهمُها، لغة تخصُّهما وحدهما، ثم أغلق جدِّي الكتاب المُقدَّس، وهبَّ واقفًا وأخذني ونزل. مشى بي خطواتٍ قليلةً وتوقف أمام محلٍّ لعصير القصب، فخرج إلينا صاحبه المعلم حبيب أطيب وأعز صديق لجدِّي في الشارع.

كان نحيفًا منتصب العود والشارب، وفيه كبرياء وعزة نفس أهل الصعيد، وعمامته شالُها بياضُه ناصعٌ ولها ربطةٌ مَهيبة ليست لأي عمامة في الشارع. وعندما يكون هناك نقصٌ في عمال المحَل، كان الرجل يُشمِّرُ جلبابه حتى أعلى الفَخِذَيْن ويلفُّ هذا الجزء المشمور مُخْرِجًا إياه من فتحة السيَّالة ويدخل إلى جوف المحل للمساعدة. تبدو ساقاه عندئذٍ بلونٍ أفتَح قليلًا من بشرة وجهه، ومُعوجَّتيْن بشكلٍ لافت، ولا أعرف ما هذا الذي يطرأ على عمامته، تفقد وقارها ويبدو المعلم حبيب كشخصٍ آخر غير الذي أراه جالسًا ساقًا على ساق أمام المحل أو خلف البنك يُحصل أسعار المشروبات.

طلبَ مقعدين لنا وشُوبَّيْن من عصير القصب، ثم حدَّق فيَّ وقال:

- مش هوه ده ابن المحروسة؟

هز جدِّي رأسه بالإيجاب، وقطَّب المعلم حبيب ما بين حاجبيه مردفًا:

- برضه لسه مفيش أخبار عن بسلامته جوزها؟

أومأ جدِّي صامتًا، وهو يحيط ذقنه بأصابع يده، فقال المعلم حبيب:

- جرى إيه يا أبو إيزاك! وهو أنا كل ما افتح معاك الموضوع ده يركبك الهَمّ.

رفع جدِّي رأسه وقال بصوتٍ خافت، وهو يتحسَّس شعري بيده:

- لسه.. الغايب حِجَّته معاه.

- وأهله يا عم زكي، مش كنتوا تسألوهم؟ دي الحكاية كده يبقى فيها إنَّ!

ثم أشاح بكفِّه في الهواء، وقال بعد أن رجع بعينيه من لفتةٍ سريعةٍ على مدخل المحل:

- الأصول كده يا عم زكي ولازم تعرفوا راسكم من رجليكم، دا غايب بقاله كتير، دي سنين مش حكاية شهر ولَّا اتنين!

فقال جدِّي وأصابعه تجري على صفحة عنقي:

- يصَحّ برضه.. يصَحّ..

وطأطأ رأسه بكآبةٍ ينظر إلى فردتَيْ حذائه الكالحتين، وأغمضتُ أنا عينَيَّ برهةً لأريحهما من وهج الشمس وانتابتني رغبةٌ مفاجئةٌ في أن أرجعَ إلى البيت وأنام.

نادى المعلم حبيب على أحد صبيانه، وطلب منه إحضار كوب الشاي الذي تركه على البنك. رشف منه رشفةً، وقال لجدِّي وهو يطرق بأصابعه على فتحة علبة السجائر البلمونت مستخرجًا واحدة:

- مش يا ترى برضه عارفين أهله مين؟

- عارفين! إلَّا عارفين! بلد كده في ضواحي الجيزة.

- يعني عارفينها؟

- أُمَّال! عارفينها ونُصّ.

- طيب وساكت ليه ياعم زكي؟ دلوقت الأمور اختلفت والغيبة طالت.

ومال على جدِّي مكملًا بصوتٍ أخفض قليلًا:

- إلا انتم طلَّعتم شهادة ميلاد لجلال؟

رد جدِّي بدهشة:

- شهادة ميلاد! أُمَّال إيه يا معلم! دي طالعة من ساعتها، وعندي عقد جواز كاميليا من أبو جلال على يد مأذون ومتسجِّل ومكتوب فيه أسماء الشهود.

ثم التقط أنفاسه وأردف:

- إنت عارف الحاج محمود العطار آهو هو الشاهد الأول، ولبيب الصُّرَماتي اللي فاتح على الناصية هو الشاهد التاني.

رجع المعلم حبيب بظهره قليلًا إلى الوراء، وقال وهو يُسوِّي شاربه:

- أما أمرك غريب يا عم زكي! طيب وليه السُّكات لحَدّ دلوقتي؟ ماتروح تسأل عليه عند أهله؟

فأجاب جدِّي بانزعاج:

- أنا!

- أيوه إنت ولَّا ابنك شمعون، ولَّا انت عايز أم جلال هيَّه اللي تروح لوحدها.

وقلتُ أنا بلهفةٍ وجذعي يهبُّ إلى الأمام:

- هو انت تعرف بابا يا عَمّ حبيب؟

فرَبَّت على رأسي:

- أمَّال! أعرفه ونص وياما شرب عصير قصب من عندي هو والست والدتك.

لمعت عيناي:

- وشكله إيه؟

نقر بأصابعه على جبهته، بدا كأنما يتذكَّر شيئًا بعيدًا:

- شكله؟ شكله؟ شكله إيه يا واد يا حبيب؟ آه.. شكله شكل راجل محترم، طول بعرض وحاجه كده تفرح.

ثم استأذن لحظةً لتصريف بعض أشغاله، فانتهزها جدِّي فرصةً وانصرف وأنا في يده. لم يكمل الجولة التي وعدتني بها أمي، وعاد بي إلى الشقة دون أن يفتح أحدٌ منَّا فمه بكلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الليل سألتُ أمي عن أبي؟

قالت: ذهب إلى الحرب ولم يَعُدْ.

قلت: متى يعود؟

قالت بشيءٍ من الحِدَّة: مات يا جلال. مات. مات.

شددتُ ذراعي من يدها وأسرعتُ إلى السرير وطفقت أبكي، فأتت ورائي تُخرج رأسي المدفون أسفل المخدة وتضعه في حِجْرها، وبعد أن خفَّت نوبة البكاء والشهيق رفعتُ رأسي إليها، فوجدت دمعًا ينسال على خديها.

احتضنَّا بعضنا وأنا أقول لها بصوتٍ مبحوح: إن جدِّي لا يعلم بموت أبي! وسوف يذهب للسؤال عنه عند أهله.

قالت وعيناها لا تزالان تدمعان: جدك رجل كبير ولا يعرف ما يقول.

وبدأت التفكير في أبي الميت، غير أني كنت صغيرًا ولا أعرف من أين أبدأ، وليس من مجيب على التساؤلات التي تملأ رأسي، لا أمي ولا جدِّي، أما خالي وجدَّتي فلم تكن لي بهما صلة.

كل ما استطعته هو صنع صورة له في مُخيِّلتي، لكني حتى في هذا الأمر كنت مشوَّشًا، فبعد أن أستقر على أنه كان طويلًا وعريضًا كما قال المعلم حبيب، أعود وأتخيَّله سمينًا أو قصيرًا، ومرة له وجه مثل وجه جدِّي، وأحيانًا كثيرة أصنع تقاطيعه بنفسي وأغيرها من وقتٍ لآخر. فأمي - سامحها الله - لم تقُلْ لي عنه إلا القليل ولا وصفته لي عندما طلبت منها ذلك. وأم حسن كانت في حرجٍ منها، وكلما سألتها عنه إما أن تغير الحديث أو يكون جوابها بالحساب.. الذي عرفته فقط أيامها، أن أبي كان طالبًا في كلية الحقوق وأنه التقى بأمي مصادفةً عندما ذهب لشراء قطعة صوف لأبيه من محل صيدناوي، وتحابَّا وتزوَّجا بعدها بشهرين في غرفةٍ على سطوح إحدى عمارات الشارع.

وشيئًا فشيئًا أخذت أصنع عالمًا يخصني، وتكون لي فيه أسرار، وقد أسمع كلمةً عن أبي فأشيِّد منها معمارًا في الخيال أهيم فيه، ليس فقط في أوقات قبل النوم حيث تهدأ الحركة في البيت، بل وأنا في عز انشغالي باللعب أو محاطًا بالناس.

لاحظت أمي ذلك فكانت تشغلني بالحكايات..

تحكي لي مرةً عن شمشون الجبَّار، ومرةً عن شاؤول الذي هزم أهل كنعان وأذاقهم الويل، والحكايتان اللتان كانت تكثر من روايتهما كانتا حكاية سيدنا موسى الذي فلق البحر بعصاه، والناس الذين وضعوهم في أفران وخنقوهم.

سألتها: مَنْ هم؟

قالت: أهلنا المساكين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

5

وذهبنا إلى سينما مصر بشارع الجيش..

أغلق جدِّي الكتاب المُقدَّس أول ما رآنا أنا وأمي بملابس الخروج، انتصب واقفًا وبيده الطربوش، وظلت جدَّتي محنيَّةً على كتاب قايضت عليه بائع الروبابيكيا بأربع زجاجات فارغة. كتاب من (كتب الجيب) المترجمة عن امرأة سفَّاحة في الريف الإيطالي، أزهقت عشرين روحًا دون أن يطرف لها جفن. طلب منها جدِّي أن تعيد التفكير وتأتي معنا فما زال في الوقت متسع، فقالت له: لا، دون أن ترفع عينيها عن الكتاب، وعلى مقربة منها كانت توجد صينيَّة مملوءة عن آخرها بالبصل، وبجوارها سِكِّينٌ لها نصلٌ حادٌّ.

سعل جدِّي سعلة خفيفة:

- يللا يللا يا إيڤون، دا انتي هتنبسطي خالص من الفيلم.

التفتت إليه:

- فيلم إيه ده؟ فيه ضرب وخناقات يعني؟ حاجة كده من بتاعة فريد شوقي ومحمود المليجي؟

- ضرب إيه وخناقات إيه! دا فيلم هادي وحلو وكله مشاعر.

- يبقى مينفعنيش.

وشمَّرت أكمامها ثم أمسكت بالسكين، وأغلقنا نحن الباب عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجنا من شارع (عباس) حيث نسكن بحي الظاهر، واخترقنا شارع الخليج المصري فالمذبح الإنجليزي، وأنا أمسك بيد جدِّي مرةً وبيد أمي مرةً ثانية حتى وصلنا إلى شارع الجيش.

توقف بنا جدِّي أمام دَرَّاجةٍ بصندوقٍ أماميٍّ مرسوم على أحد جانبيه صورة بالحجم الكبير لميكي ماوس وهو يغمز بإحدى عينيه، وعلى الجانب الآخر صورةٌ ثانيةٌ له ولكن بحجم أصغر وهو يُغافل قطة كبيرة مغمضة العينين ويربط ساقيها الخلفيتين بحبل في يده.

كان صاحب الدراجة رجلًا كبيرًا في السن ولا يكفُّ عن التلفُّت حوله، وأول ما يرى أطفالًا ماڑين أمامه أو حتى على مسافة منه كان يصيح بأعلى صوته:

- الچيلاتي الساقع.. الساقع..

أتأمله فيلحظُني، ويعاود النداء بصوتٍ أعلى مثيرًا نشوتي:

- أيوه الساقع.. الساقع..

اشترى لي جدِّي بسكوتة چيلاتي بستة مليمات، غير أنِّي لم أقنع بها، رددتُها إلى الرجل وأنا أقول له محبطًا.

- دي صغيرة يا عَمّ!

تبسَّم لي وأعطاني واحدةً أخرى أكبر حجمًا، وأَبَى أن يأخذ من جدِّي فرق الثمن.

ورغم ذلك قلت:

- وكمان لحسة..

قلتُها كما كان يقولُها الأولاد الكبار لبائع الچيلاتي الذي يمرُّ في شارعنا، فضحك جدِّي وانحنى عليَّ يُقبِّلني ويقول:

- أيوه كده! ابني بصحيح، أهو كده الشغل يا جلجل.

توقفنا ثانيةً أمام مقلة لبّ وأخذنا قرطاسين مملوءين باللب والسوداني، وبدأ جدِّي في التهيُّؤ لعبور الشارع. تشبَّثت بيده جيدًا، فقد كان الترام بجلجلته المُدويَّة آتيًا من بعيد، وأنا أعمل له ألف حساب وأتطلع إليه دائمًا بمهابةٍ وخوف، منذ أن رأيتُه مرة يدهس درَّاجةً تركها صاحبها سهوًا على حافَّة القضيب ويدحرجها أمامه كالكرة، وقد ظل هذا المشهد في ذاكرتي سنين طويلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كُنَّا أمام باب السينما الساعة العاشرة بالضبط، والناس تتأهَّب للدخول. وفي المدخل لوحةٌ خشبيةٌ كبيرةٌ عليها ملصق تحتل أغلبه صورة لبطلة الفيلم ليلى مراد، وفي الفراغ المتبقي صورةٌ لنجيب الريحاني وعلى رأسه طربوش وأخرى لأنور وجدي يرتدي بدلة طيَّار. أما على اليسار، فتوجد لوحةٌ أصغر قليلًا عليها صورة لأولاد العم سام يرتدون القبَّعات والبنطلونات الچينز وفي أيديهم مسدساتٌ يتقاتلون بها على امرأة نصف عارية، وفي خلفية الصورة واحدٌ منهم مُلقًى على الأرض وتسيل منه الدماء.

لم يدفع جدِّي سوى ثمن تذكرتين..

تمكّن من إقناع العمال الذين على الباب بأني صغير ولا أفهم في الأفلام، وأننا عادةً لا نشاهد إلا فيلمًا واحدًا ونترك بعدها مقاعدنا لإدارة السينما تتصرف فيها كما تشاء. لم يكن جمهور الحفلة الصباحية كبيرًا والمقاعد نصفُها خالٍ تقريبًا، فتسامحوا مع جدِّي وقال واحد منهم ضاحكًا: إنه يعرفنا وأن جدِّي يقول هذا الكلام دائمًا ولا يشتري أكثر من تذكرتين مهما كان العدد الذي معه.

جلسنا أخيرًا في الصالة نشاهد الجريدة الناطقة..

كانت كلها عن الثورة ورجال الثورة وإنجازات الثورة، وكلما ظهر الرئيس جمال عبدالناصر على الشاشة كانت الناس تصفِّق ولا يخلو الأمر من واحد يصفِّر عاليًا ويصيح قائلًا: شد حيلك يا ريِّس، فيرد عليه آخر: أيوه كده يا أبو خالد.. آدي الهِمَّة.

افتتنتُ أنا الآخر بالرئيس ووجدت نفسي أصفق له مع الناس وألكز أمي بمرفقي كي تفعل مثلنا، وهي ترمُقني بدهشةٍ ثم تميل على أُذُن جدِّي. وعندما بدأ فيلم (غَزَل البنات)، سكنت الحركة تمامًا في السينما وتعلقت كل الأبصار بليلى مراد، وكان جدِّي متأثرًا بأداء نجيب الريحاني.

مال على أمي وقال لها: إنه مسكين! مات فجأة، أهلكته جرعة علاج زائدة أعطوها له لمَّا أصابه مرض التيفود، وحصد غيره العز والمال. وانفتح بعدها في الكلام عن ليلى مراد، قال: إنها من عائلة كلها فنانين، أخوها منير وأبوها زكي مراد: يا سلام على صوته.

وتنهَّد:

- يا سلام كمان لو سمعتي أغنية (حيرانة ليه) اللي لحَّنها لها الأستاذ داود حسني.

فقالت له: إنها لم تسمع من قبل بهذه الأغنية ولا بداود حسني.

وهز هو رأسه ساخرًا:

- متعرفهوش! طب إتلهي، ولما نروَّح أبقى أقولِّك مين هو داود حسني!

تململ الجالسون خلفنا من الشوشرة التي يُحدثها جدِّي، قال له واحد منهم:

- سَمَع هُسّ.

وأضاف آخر بتأفُّف:

- صوتك شويه يا عم الحاج، إحنا جايين نتفرج مش نتحاكَى مع بعضنا، وبعدين يا عمنا لو سمحت اقلع الطربوش اللي على راسك ده، دا أنا شويه آجي يمين وشويه آجي شمال علشان أشوف لما عنيَّه احوَّلِت.

التفت جدِّي ربع التفاتة إلى الوراء ثم خلع الطربوش ووضعه على حِجْره، ولم تصدُر عنه أيَّة همسة حتى انتهى الفيلم.

وعندما أُضيئت أنوار الصالة للاستراحة قبل عرض الفيلم الأجنبي، تَحجَّج جدِّي بالصداع وخرجنا وأمي تعاتبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم السبت الماضي كانت معنا جدَّتي وشاهدنا كلنا فيلم (غرام وانتقام) ليوسف وهبي وأسمهان، وأول ما بدأ الفيلم الأجنبي عملها جدِّي أيضًا.

قال إن النظَّارة لا تسعفه في قراءة الترجمة.

وخرجنا وجدَّتي تعاركه طول الطريق؛ لأنه ضيَّع عليها مشاهدة فيلم من أفلام الأكْشَن التي تحبها.

أما السبت الذي قبله فخرجت أنا وجدِّي وحدنا..

ركبنا الأتوبيس من شارع الجيش حتى شارع سبيل الخازندار حيث معبدنا، معبد (القَرَّائين)، زحام قليل على الباب ويهود كبار ينزلون من العربات الأمريكاني الكبيرة الفورد والكاديلاك والشيڤروليه، يرتدون البَلاطِي الموهير والفساتين والبذلات الكحلي والرمادي وربطات العنق الفرنسية، وفي أيديهم أطفال صغار شعورُهم مُصفَّفة وبأطقم ثياب تؤهِّلهم لاحتلال أغلفة مجلات الأزياء والأناقة، يمرقون من باب المعبد شامخي الرءُوس ولا ينظرون إلى أحد. والباقون غلابة مثلنا ممن يشترون ملابسهم من محلات الموسكي وشارع كلوت بك أو ربما من الحواري التي تُباع فيها الملابس المستعملة، وامرأتان أو ثلاث من العجائز ما زلن يحتفظن بنجمة داود على صدورهن.

أول ما بدأت الصلاة سلمني جدِّي إلى رجلٍ من معارفه يعمل في نظافة المعبد، وضعني الرجل بين جمعٍ من الأولاد يجلسون صامتين وأمامهم كاهنٌ يتلو عليهم سِفْرَ الخروج، وعندما فرغ بدءُوا كلهم في ترتيل مزامير داود من الذاكرة وبصوتٍ له إيقاع. شعرتُ بالغربة أول الأمر إلَّا أنِّي شيئًا فشيئًا بدأت أُجاريهم، أحرك شفتيَّ وأهُزُّ رأسي كما يفعلون.

قال لي جدِّي ونحن في طريق العودة:

- انبسطت يا جلجل؟

أجبته بلا مبالاة:

- آه انبسطت، بس لو كُنَّا رحنا السينما كان أحسن.

رَبَّت على كتفي:

- السبت الجاي كلنا رايحين، حتى الماما لو مرضيتش تيجي معانا هنكتِّفها أنا وأنت بحبل كبير وهيلا بيلا وناخدها معانا.

انفجرتُ في الضحك وأنا أقول:

- ولو نامت في السينما زَيّ المرة اللي فاتت نسيبها على الكرسي ونروح إحنا على البيت.

- ضروري ضروري علشان تحرَّم.

باغتنَي بعدها:

- وحفظت حاجه من مزامير داود؟

- مين داود دا جدِّي؟

- داود! سبحان الله يا جلال هو فيه حد في الدنيا ميعرفشي سيدنا داود، دا ملك من ملوكُنَّا.

- ملك؟

- مش ملك زَيّ ملوك اليومين دول.. حاجة أكبر بكتير، زَيّ ما يكون كده نبي.

أردف بعدها:

- وزكريَّا كمان نبي، ويعقوب وإسحاق وموسى، كل دُول أنبيا وغيرهم كتير.

ثم تأمَّلني وأضاف بلهجةِ عتابٍ خفيفة:

- مش لازم تعرف الحاجات دي يا جلال.

سألتُه:

- وسيِّدنا مُحمَّد هو راخر نبي زَيِّهم؟

انحنى بقامته نحوي، وقال بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

- بتقول مين؟ سيِّدنا مُحمَّد!

- أصل أنا بسمع الأولاد في الشارع بيقولوا سيدنا محمد.. سيدنا محمد.. وبيعملوا له ألف حساب وبيحلفوا بيه كمان.

شمخ برأسه قليلًا إلى أعلى، ثم التفت إليَّ وهو يهرش أسفل شاربه:

- ولا تزعل يا أستاذ جلجل، ومحمد كمان نبيّ.

واحتواني بنظرةٍ حانية..

كان يُحبُّني ويريد إرضائي بأي طريقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

وأصبحتُ مختصًّا بشراء طبَق الفول..

كبرتُ قليلًا فرأت أمي تنحية الست شوق امرأة البَوَّاب من هذه المَهمَّة؛ خاصةً وأن الست شوق لم تكن تتساهل في مسألة البقشيش، تطالبنا به كل عدة أيام إذا نسينا، أوكلت المهمة لي.

تنادي عليَّ كل صباحٍ بصوتٍ عذبٍ مُنغَّم:

- جلال، واد يا جلال، يا جلجل.

تظل تنادي عليَّ حتى أفتح عيني فأرى أشعَّة الشمس قد تسرَّبت من بين فتحات شيش النافذة المغلق، وتَمدَّدتُ على الجدار المواجه لي.

وأتذكر الفول فأقفز في الحال من الفراش، ثانية واحدة في الحمَّام ثم تضع لي أمي الشبشب في قدمي، وتُشمِّر لي بنطال البيجامة ثلاث شمرات على الأقل. وساعات كانت تثنيه عدة ثنيات من عند موضع الأستك، أو ترفعه كله من الوسط حتى يصل إلى أول صدري، فجدِّي كانت له سياسة خاصة بشراء ملابسي، يشتريها دائمًا بمقاسات أكبر لتكفيني من ثلاث إلى أربع سنوات، ولا يهمُّ أن أبدو فيها كالعبيط.

تسلمني أمي السلطانيَّة والقرش صاغ، وتنبِّه عليَّ أن أمشي على الرصيف، وألَّا أكلم أحدًا، وبعد أن يفرغ عم محمد من وضع الفول أطلب منه مغرفة إضافيَّة. في الأول كانت تشدَّني من أُذُنِي وهي تُحفِّظني هذه التعليمات، توقَّفتْ بعد ذلك عن هذه العادة بعدما أثبتُّ لها جدارتي بهذه المهمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحق أن الأمر كان في بدايته مشكلة..

ففي أول يوم نزلت فيه حاملًا السلطانيَّة، فوجئت بزحامٍ حول دكان الفول، حلقة أشبه بحدوة الحصان مؤلَّفة من صبيانٍ وبنات، وناسٍ بجلابيب إفرنجية وبيجامات، ونسوةٍ وبوَّابين وسمكريَّة وأناسٍ على كل لَون، الكل يحيط بالطاولة الرخامية للمحل، والحالُ ما بين زَغْدٍ وشتائم خفيفة وضرب بالكوع.

لم أجرؤ بالطبع على الاقتراب، وقفت كالتائه بل وفكرت في أن أعود، لا أعرف من أين أتتني الحميَّة مرةً واحدة ودخلت في المعمعة أنا الآخر. أخذتُ أعافرُ بجسدي متخذًا من السلطانية ساترًا أحمي به رأسي، ومن لطف الله أن كانت المنطقة التي تسللت منها بعيدة عن الصراعات وضربات الأكتاف؛

فاستغللتُ نحافتي وقِصَر قامتي وفتحتُ لي ثغرةً بين الركب والأفخاذ نفذت منها حتى وصلت إلى عم محمد، وكُلِّلت مهمتي بالنجاح عندما شببتُ على أمشاط قدمي ووضعت ذقني على حافة الطاولة الرخامية؛ لأجد نفسي وجهًا لوجه أمام قدرَتَيْ فولٍ مَهِيبتَيْن.

صحتُ بوجهي المدهوش وصوتي الرفيع:

- بقرش فول يا عم.

تأمَّلني ثانيةً واحدة، وقال بصوتٍ نافدِ الصبر:

- حُطَّ السلطانية على البنك وجنبها القرش.

ولما فعلتُ أردفَ بصوتٍ متعجل:

- فول سادة وللا بزيت؟ والزيت طيب وللا حار؟ وللا الفول بالسمن؟

لم يكُنْ هذا الأمر ضمن التعليمات التي تلقَّيتُها فأدركت أني في ورطة، وكعادتي في مثل هذه المواقف قطعت النَّفسَ والكلام، اكتفيت بالنظر ببلاهةٍ في وجه عم محمد إلى أن التقطت عيناي شاربَه فاستقرتا عليه. كان والحق "شارب مسخرة" ومركزَ جذبٍ لطفل مثلي، محروقًا حرقًا طازَجًا ومنكوشًا شعرة هنا وشعرة هناك، ومساحة لا يُستهان بها ممسوحة تمامًا وليس بها شعرة واحدة، والشارب كله ليس بنفس اللون الأسود، الأطراف بالذات تميل إلى اللون الذهبي القاتم، ربَّما أتت المشاكل التي يعاني منها هذا الشارب، من صهد نار المَوْقِد ولسعات زيت الطعميَّة التي لا ترحم.

صاح فيَّ والرذاذ يتساقط من فمه:

- إنت ابن مين يا وَلَة؟!

لم يسألني أحد هذا السؤال من قبل فازداد ارتباكي؛ خاصةً أنه لم تكن بذهني إجابة حاضرة ولا أعرف حتى بقية اسم أبي. ازدردتُ ريقي ولم تَحِدْ عيناي عن الشارب الذي اتخذته هدفًا لي، وهو يرميني بنظراتٍ من نارٍ ويستحثُّني بهزَّاتٍ من رأسه كي أنطق. وبصراحة خفتُ منه وأحسستُ بقطرةِ بولٍ في سروالي، وما يُدريني فقد يرميني بمغرفة الفول التي في يده، وإن لم يفعلها هو فأكيد سوف أتعرَّضُ للإهانةِ من الناسِ الذين شاطت فيهم النارُ من هذه العَطلَة.

شخط بخشونة:

- طب يللا يا وَلَة من هنا، يللا يللا وسَّع لغيرك.

كان لا بد أن أتصرَّف، فقلت بتلعثم:

- ابن الخواجه زكي الأرزع.

حدق فيَّ مليًّا:

- كده! تبقى إنت بقى ابن الست كاميليا، هو إنت جلال؟

هززتُ رأسي بالإيجاب، فقال بابتسِّام:

- خلاص يبقى الفول سادة.

وبعد أن أفرغ الفول في السلطانية قلت له بثقة:

- وكمان مغرفة؟

ضحك بصوتٍ عالٍ، وزادني مغرفتين.

صرتُ بعدها أصغر وأعز زبون لديه، يلقاني ببشاشةٍ وقبل أن أطلب المغرفة الإضافية كان يقول:

- وآدي مغرفة كمان ياسي جلجل، وسلم لي على عم زكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظللت أروح وأجيء كل يوم بسلطانيَّة الفول على نحوٍ آليّ، أمشي على الرصيف ولا أنحرف بوصةً عن المسار الذي حدَّدتْه لي أمي، إلى أن اكتشفت أن الأمر لا يتطلب كل هذه الحَيْطة، وشيئًا فشيئًا زالت رهبتي من الشارع وأَلِفْتُ ناسَه، عم حسني الباشكاتب الذي يبدو دائمًا وكأنه في عَجلَة من أمره، يخرج مسرعًا من باب العمارة فتنادي عليه زوجته من الشرفة، يتطلع إليها مُتأفِّفًا وهو ينظر في ساعته.

تسأله: أين ترك لها مصروف البيت؟ أو تلقي له المنديل أو المنَشَّة وعلبة السجائر.

تملأ الضحكةُ وجهَه، ويقول وعيناه تتطلعان إلى زوجته:

- أي والله! العَجلَة من الشيطان.

ويلتفتُ فيجدُني إلى جواره ممسكًا بالسلطانية، يشدُّني من أُذُنِي مداعبًا:

- أيوه كده يا جلجل، شد حيلك.

لا ينتظر مني إجابة، يكمل سيره على نفس الوتيرة المسرعة، وامرأتهُ واقفةٌ تتبعه بنظراتها من أعلى حتى يواريه الشارع.

وصبي الحاج محمود العطار الذي يسحب مقعدًا من مقلة اللب المجاورة، يجلس عليه حتى يأتوه بالمفتاح، وعم طُلْبه الكُنَّاس ببذلته الحكوميَّة المهترئة ممسكًا بمقشةٍ تعلو عصاها مستوى كتفه، يكنسُ دقيقةً ويتلكَّأ عشرة.

وعند أول ناصية كنت أدخل إلى الشارع المجاور وسلطانية الفول الفارغة في يدي، أو واضعًا إيَّاها على رأسي كأنما هي قُبَّعة، أتأمل واجهات المحلات، البقالة والخردوات وكُشك السجائر أو حتى فرن الخبز، وعندما أصلُ إلى محل الأزهار ذي القاترينة التي يسحُّ منها الماء كالدموع أقف منبهرًا.

وبدأتُ أنتبهُ إلى ما ينبعثُ من راديو قهوة (أبو عوف)، وأطرَب لسماع الأغاني التي تُذاع في أول الصباح..

أم كلثوم وهي تغني: محلاك يا مصري وإنت على الدقَّة، أو عندما تشرئِبُّ بعنقها وتقول: مصرُ التي في خاطري وفي فمي.. أحبُّها من كل روحي ودمي..

ومحمد قنديل الذي يغازل بصوته، ويقول: جميل وأسمر..

والموسيقى، موسيقى أغنية الله وأكبر، ومحمد عبدالوهاب الذي يتألَّم ويقول: أخي جاوز الظالمون المدى.. فحق الجهاد وحق الفدا، لم أفهم وقتَها شيئًا مما كان يقولُه، غير أن قلبي كان يعرفُ هذه الأغنية من دون باقي الأغاني.

والذي سحرني أيامها ولا يزال باقيًا في أُذُنِي إلى الآن، هو صوتُ الشيخ الدمنهوري، لم أكُنْ أعرف أن ما يتلوه هو القرآن، انجذبت إليه دون أن أفهم ما يقول.

جذبني صوتُه..

وتملَّكني إحساسٌ بأن صاحب هذا الصوت رجل طيب، ويحبُّني مثلما أحبُّه، وبتُّ أتلكَّأ أمام القهوة حتى يفرغ من القراءة، بل وبدأت أصنعُ له صورةً في مُخيَّلتي، لحية بيضاء، وجه مستدير، عمامة أكبر من عمامة المعلم حبيب، وعصًا يتوكأ عليها وهو سائر..

كنت لا أزال مشوَّشًا والدنيا كلها مبهمة عليَّ، فسألت أمي عما يقوله الشيخ الدمنهوري، غير أنها لم تردَّ عليَّ، وعندما زاد إلحاحي قالت بلا مبالاة:

- دمنهوري! ومين الدمنهوري ده؟

- بَسْمعُه في الراديو بتاع قهوة أبو عوف.

- وإيه اللي يخلِّيك تتلطَّع جنب القهاوي، علشان كده بتغيب بالساعة كل ما ابعتك تجيب الفول.

- وأنا أعمل إيه؟ ما هي القهوة في سِكِّتي.

فدفعتني بإصبع السبَّابة في ظهري:

- طيب يللا يا فالح علشان تفطر.

وقبل أن أغيبَ عن نظرها أردفَتْ بحزم:

- وإيَّاك تتلطَّع هنا وللا هنا تاني، أنا هقَف لك في البلكونة من هنا ورايح.

وجدَّتي الجالسةُ على الكنبة، ترمقُنا بوجهٍ مُتجِّهمٍ وتُنَخْرِب بعود كبريت في ضروسها التي ضربها السوس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

كُنَّا في طريق العودة من عند بائع الفول..

سلطانيَّتَي الفول بين أكُفِّنا أنا وحسن أخي في الرَّضاع، هو بجلباب نوم كستور مقاسه مضبوط عليه، وأنا أُحبَّ في بيچامةٍ أكبر من مقاسي بنمرتين، وأتمايلُ بالسلطانية على كَفِّ يدي يمينًا ويسارًا دون أن تسقط منها حبة فول واحدة.

وأصيح مزهوًا بنفسي:

- وسَّع وسَّع.. وسع لجلجل الخطير.. أيوه الخطير..

ينظر حسن إليَّ متعجبًا، فأتحداه أن يفعل مثلي، يهمُّ المسكين بالمحاولة فترتعش السلطانية في يده، ويبدأ ماء الفول في الانسكاب على حوافِّها، يتوقف ويتابعني بغيظ.. معذور.. فثلاثة أشهر كاملة وأنا أشتري الفول وأتدرب على هذه المسألة، وهو لا يزال مستجدًّا لم ينزل الشارع إلا من يومين.

تذكَّرتُ حديثي مع أمي عن الشيخ الدمنهوري والتلاوة التي كان يتلوها، فكففتُ عن اللعب وسألته، فقال لي باستغراب: ألا تعرفها؟

قلت: لا.

- دا كلام ربنا يا عبيط، دا القرآن! هو فيَّه في الدنيا دي كلها حد ميعرفش القرآن!

ويرمقني بدهشة:

- جرى إيه يا جلال! مش إنت مسلم؟

وأنا بدهشة كدهشته:

- مسلم!

- أيوه مسلم..

ووجدني أحدِّق فيه، فأردف ما بين السخرية والاستغراب:

- وهو انت يا خايب متعرفش إنك مسلم؟ دا انت مسلم ونُصّ، أُمَّك وأهلها يا حفيظ يارب هُمَّا اللي يهود..

- يهود! يعني إيه يهود؟

- يعنى ناس رايحة في داهية، ويا رحمن يا رحيم عليهم يوم القيامة على النار حدف.

استندتُ بظهري إلى جدار العمارة، وهو لا يزالُ يقول:

- وانت كمان لازم تصلِّي وتصوم وتحفض القرآن وإلَّا هتخُشّ النار.

ولما رآني مشدوهًا مما يقول:

- أيوه هتخش النار، ومش كده وبس دا قبل ما يرموك في النار الملايكة هتنزل ضرب فيك بمرزبة حديد.

- أنا!

- أمَّال إنت فاكر إيه، وكل مرزبة فيهم قد عمود النور ومولَّعة نار.

فسألتُه عن أهلي..

- أهلك! أهلك مين يا حبيبي! دُول أول ناس هتخُشّ النار.

همستُ بصوتٍ خائف:

- والماما؟

- طبعًا.

- وجدي؟ جدي هو كمان هيدخل النار؟

فأجاب بحسم:

- جدك! آه من جدك ده، دي الملايكة قاعدة مستنيَّاه مخصوص، حاطِّين أيديهم على خدهم وبيقولوا إمتى بس يموت، وأول ما ييجي يوم القيامة هيجروا وراه ويمسكوه من رقبته وينزلوا فيه ضرب، ولما يتعبوا من الضرب وأيديهم توجعهم هيشيلوه من أيديه ورجليه وهِيلَا بِيلَا ويحدفوه في الولعة.

صحتُ فيه بغضب:

- إنت كدَّاب وستين كداب، أبوك وأمك هما اللي هيَخشُّوا في النار.

- يعني مَنْتَش مصدقني؟

- أيوه مش مصدق يا كداب يا وسخ.

- يا عبيط هُمَّا اللي هيخشوا النار مش إنت، إنت مسلم وهتدخل الجنة زيَّك زيِّنا.

قلت بصوتٍ خافت:

- وعرفت منين؟

- عرفت! وهو أنا وحدي اللي عارف! كل الناس عارفة، طب اسأل كده أي واحد ماشي في الشارع وهو يقولَّك.

ارتقيتُ الدَّرَج بخطواتٍ واهنة، وتركته يناكف مع امرأة البَوَّاب، إلا أنه لحق بي على البَسْطَة الثانية وطفق يجذبني من كُمِّ البيجامة ويقول لاهثًا:

- يللا نحُطّ سلاطين الفول على جنب ونتسابق على السلم زَيّ إمبارح.

لم أُجِب.

- هنشوف مين اللي يوصل السطح الأول.

وضعت قدمي على الدرجة التالية دون أن ألتفت إليه.

- يللا يللا بلاش غلاسة.

ووقف يتابعني باستغرابٍ وأنا أصعدُ مبتعدًا، حتى نقرتُ بأصابعي على شُرَّاعة الباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت جدَّتي تسترخي بكل جسدها على الكنبة وفي يدها مرآةٌ صغيرةٌ تقربها وتبعدها عن وجهها، وفي اليد الأخرى ملقاطٌ تنتشُ به الشَّعيْرَات السوداء النابتة فوق شفتها العليا.

عندما كانت الجدة بنتًا صغيرةً كان الأمر مجرد زَغَب خفيف، المشكلة أنه بمرور الزمن اشتدَّ عود هذا الزَّغَب وصار له قوامٌ كقوام الشعر تمامًا وتناثر بكثرة في هذا المكان المهم. لفَّت الجدة على المستوصفات، وعملت كل الوصفات البلديَّة ولا فائدة، لم ينجح أحدٌ في السيطرة على هذا الزغب أو وقف نُمُوِّه، والذي زاد الأمرَ تعقيدًا أنها لو غفلت عنه أسبوعًا واحدًا يصبحُ مشروع شارب، فجُنَّ جنونُها وأصبحت تلاحقُه دائمًا بالملقاط حتى لا تفضحها نسوة العمارة.

نحَّتْ جدَّتي الملقاط جانبًا، واستدارت بوجهها نحوي:

- اتأخرت ليه يا سخام؟ آهو جدك نزل من غير فطار.

أجبتُها بصوتٍ جاف:

- وأنا هعمل إيه يعني، شوفوا حد غيري يجيب الفول، وبعدين جدِّي قايل من امبارح إنه نازل من بدري ومش هيفطر معانا.

وأمسكتني أُمِّي من ياقة البيچامة:

- عرفنا يا فالح، بس الكلام يكون بأدب مع جدتك.

لم أردَّ وأعطيتُها السلطانيَّة بلا اعتناء، فمالت منها وانسكب بعضُ ما فيها على صدر جلبابها.

فصرخَتْ في وجهي:

- مالك يا ولد! فيك إيه؟

قلت وأنا أشيحُ بيدي في وجهها:

- خلاص خلاص عرفت اللي بيقوله الشيخ الدمنهوري.

- عرفت إيه يا ناصح؟

- بيقرا قرآن.

- ما يقرا اللي يقراه واحنا مالنا..

ووضعت يدها على رأسي، وهي تكملُ بنبرةٍ أقلَّ حِدَّة:

- وهو انت ماتعرفش يا حبيبي إننا يهود وكتابنا التوراه، إحنا يا جلال حاجة وهُمَّا حاجة تانية.

- يهود؟

- أيوه يهود..

- كلنا يهود؟

وبدأت جدَّتي في تشمير أكمامها وهي ترمقُني بعينيها، أما أمي فأومأت رأسها بالإيجاب.

فقلت:

- كلنا كلنا؟

- أيوه أنا وجدك وخالك وخالتك، كلنا كلنا.

- وأنا كمان؟

لم تُجِبْ.

باغتَها سؤالي فلم تعرف ما الذي تقولُه أو تفعلُه..

اكتفت بالتحديق في وجهي، ثم لاح طيفُ ابتسامةٍ على وجهها، لاح لثانية أو ثانيتين، والابتسامة التي رصدتها أو ربما توهمتها كانت مرتبكة تخفي شيئًا وراءها، شيئًا ليس هيِّنًا أو حتى صغيرًا فملامح وجهها كلها كانت تقطع بأنها في أزمة، وأن رأسها فارغٌ تمامًا من أيَّة إجابة، كنت صغيرًا وقتها وكذلك مضطربًا أو على الأقل مُشتَّتًا فلم أفهم سبب حَيْرتِها أو

أرحمها.

والداهية أن لساني انزلق بعدها قائلًا:

- أصل العيال بتقول إني مسلم وهدخل الجنَّة، وانتوا كلكم رايحين النار، كلكم كلكم جدَّتي وخالي وخالتي...

وأخذتُ أُعدِّد أسماءَهم على أصابع يدي دون ذكر لجدى أو أمى، كنت أحبهما ولا أصدق أبدًا أنهما سوف يدخلان النار، وفي غمرة كلامي وانفعالي لم أنتبه إلى جدَّتي وهي تنزل من فوق الكنبة التي ورائي وتخطو بحذرٍ شديدٍ حتى أطبقت على عنقي. شُلَّ تفكيري من المفاجأة وانكفأتُ بيديَّ على شلتة الكنبة المقابلة، ولم تدَعْ هي لي بالطبع أيَّة فرصة للإفلات، فبحركةٍ خاطفةٍ من حركات فريد شوقي لفَّت مِرْفَقِي إلى ما وراء ظهري، أما أُذُنِي اليُمنى - وبأكملها - فصارت في قبضة يدها الأخرى، تلفُّها يمينًا ويسارًا وتشدُّني منها إلى أسفل حتى ركعت على الكليم وعوائي يتردد في جنبات الشقة. لم توقف هجومها، إلا لما استسلمتُ وتمددتُ على ظهري وكتفاي تلامسان الأرض كما يحدث في حلبات المصارعة، وعندها وضعتْ رُكبتَها فوق بطني وبدأت في الشتائم.

- عيال مين يا وسخ يا ْبن الوسخ! نار لما تلسعهم هُمَّا وأهاليهم، ومالهم اليهود يا حبيب أمك دول أسياد الناس يا ْبنِ الجزمة، وهو إنت تطول!

وأمي تلفُّ من هنا ومن الناحية الثانية، وتناور بكل طاقتها لتفُكَّ أسْرِي..

سَترُ اللهِ هو الذي أنقذني، سمعنا طرقًا على الباب فرفعت جدَّتي ركبتها قليلًا واستدارت نحو الباب، وأصابعها - وبلا وعيٍ منها - ترتخي شيئًا فشيئًا عن

شَحْمَةِ أُذُنِي فانتهزتُ الفرصة وأفلتُّ بجلدي. وهمَّت أمي بفتح الباب فصاحت فيها جدَّتي بألَّا تفعل، وإلا أفلتَ ابن الكلب - تقصدُني - وهرب إلى الشارع. كنت على بُعد ياردتين منها أتلفَّت حولي كالفأر الفالت لتَوِّه من المصيدة، وأُذُنِي الحمراء كالدم (تَوِنُّ) من الألم، فصحتُ فيها بكل عزمي:

- أنا مش يهودي ومش هدخل النار زيِّك يا أم منقار.

كنت أعرف أن هذا هو اسمها الكودي الذي تتداوله نسوة العمارة سرًّا، ومن غيظي انطلق على لساني رغمًا عني، فقامت عليَّ بفردة الشبشب وأنا أجري أمامها:

- جاك خابط في نافوخك إنت واللي جابك، وكمان بتقِلّ أدبك! أنا أم منقار يا بْنِ البرطوشة! هي دي آخرة الرباية والمصاريف؟!

وأمي في ذيلنا:

- مش كده يا ماما، هتعملي عقلك بعقله!

ويرتفع صوتُها:

- قلنا لك مِيتْ مرَّه قبل كده ملكيش دعوة يا ماما بالولد ده..

- مليش دعوة إزاي، قليل الأدب وعايز يتربَّى مش سامعة بيقول إيه! وكمان لازم يعرف إنه حتَّة من أمه اللي ولدته وشايله همُّه، يبقى زيُّه زيَّها، إن كانت يهودِيَّة يبقى يهودي، وإن كانت عفريت أزرق يبقى هو كمان عفريت أزرق.

كُنَّا نجري وراء بعضنا البعض من مكان إلى آخر، ولم تَثْنِهِ المعركة إلا لما احتميتُ بالبلكونة. خافت جدَّتي من الفضيحة لو رآها الناس في الشارع على هذا النحو، فوقفت على باب البلكونة وقذفتني بفردة شبشبها في وجهي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حسم جدِّي الأمر عندما أتى في المساء.

انتحى بأمي وجدَّتي في غرفته وأغلقوا الباب عليهم، وأنا مُمدَّد على الفراش عيناي متورمتان والخرابيش لا تزال على وجهي وعُنُقي. كانت أصواتهم تعلو أحيانًا وأسمع جدِّي يحذر جدَّتي بصوتٍ قاطعٍ من مَغبَّة ما فعلتْ، وأن ذلك سوف يُفسد كل شيء عندما أذهب مع أمي لرؤية أهل أبي.

خرج جدِّي بعدها وهما وراءه، قال بوجهٍ جادّ:

- يا جلال يا بْنِي إنت مسلم، شهادة الميلاد بتاعتك مكتوب فيها كده، الشهادة عندي يا بْنِي على سبيل الأمانة ولما تكبر هسلِّمهالك.

ثم ابتلعَ ريقَهُ وأردف:

- يا بْنِي موسى ومحمد إخوة، واحنا هنربِّيك ونعلِّمك ونكبَّرك وإنت حر بعدها، عايز تدخل في ديِّنا أهلًا وسهلًا وألف مرحب بيك، عايز تفضل مسلم إنت حر وإحنا برضه أهلك.

وطلب مني أن أنهض وأُقبِّل يد جدَّتي، ففعلت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

خرجنا أنا وجَدِّي ذات مساء للعزاء..

رأيته جالسًا على الكنبة بملابس الخروج، وبيده فرشاةٌ ينظفُ بها حوافَّ الطربوش.

سألته أن أذهبَ معه، فقال إنه ذاهبٌ للعزاء واقترح عليَّ اللعب مع الأولاد على بَسْطَة السُّلَّم.

أعدتُ الطلب فصمَّم على الرفض، ولما ازداد إلحاحي قال بصوتٍ مرتفع:

- وبعدين يا جلال قلت لك لأه يعني لأه، المطرح ده يا بْنِي مش للصغار، استنَّى هنا مع الماما وللا روح العب مع العيال.

بدأت في استخدام أول أسلحتي، أشحتُ بيدي في الهواء غاضبًا، وأسرعتُ إلى الغرفة وأنا أصيح بصوتٍ تسري فيه رعشة الانفعال:

- أنا مَبحبِّكش يا وِحِش، خلاص خلاص ومن أول دلوقت مش هتكلم معاك تاني.

وأغلقتُ الباب بشدةٍ وتمددتُ على السرير وشددتُ الكوڤرتة حتى رأسي، ولم أغفل بالطبع عن تدبير ممر صغير بين ثناياها لمتابعة ما يجري حولي.

هما دقيقتان فقط وسمعت صرير الباب، وجدِّي يطلُّ منه:

- هو الأستاذ جلجل زعلان ليه؟ وهو جده يقدر يخرج من غيره.

فادَّعيتُ النوم..

وكأني لا أسمع فتبسم جدِّي، أغاظني تبسُّمه، أحببتُ أن أؤكِّد له أن الأمر ليس كما يظن وأنا نائم بالفعل، فبدأتُ في الشخير بصوتٍ عالٍ. أصبحت ابتسامة جدِّي ضحكة، وجلس على حافَّة السرير، أدخل يده من أسفل الكوڤرتة يُدغدغُني في باطن قدمي وأنا أتملَّص منه، فينتقل إلى بطني ثم تحت إبطي إلى أن هببتُ ضاحكًا ووجهُه يتأمَّلني، وأسرعتُ كالبرق إلى الشمَّاعة خاطفًا قميصي المتدلي عليها فألبسني إيَّاه، وانثنى هو على رُكبتيه ووضعه في الشورت وشد الحمَّالات عليه. ولـم يسلَم الأمر من قرصة في جنبي على سبيل المداعبة أو شَدَّة سريعة لحَلَمَة أُذُنِي، وأنا أتلوَّى وأبادله اللعب بقبضاتٍ في بطنه وصدره وعضَّة خفيفة في كتفه إن تمكنت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجنا وراء بعضنا البعض وأمي توصيني ألَّا أترك يد جدِّي أبدًا فالدنيا ليل، أما جدَّتي فكانت تلاحقُنا بنظراتها متأفِّفةً من هذا الدَّلَع الماسخ.

عبرنا شارع الخليج المصري، ومن شارعٍ إلى آخر حتى وصلنا إلى سُرادقٍ مَهيبٍ في أول شارع النزهة من ناحية ميدان الجيش. كان سرادقًا للعزاء في والِدةِ تاجرٍ كبيرٍ من تجار المانيفاتورة بشارع الأزهر، يضع جدِّي قاترينته أمام محله.

كان الرجل على الباب يتلقَّى الناس، شَدَّ على يد جدِّي بمحبَّة والتفت إليَّ مستغربًا، فعلَتْ صُفرةٌ خفيفةٌ على وجه جدِّي، وطأطأ رأسه بأسفٍ وهو يقول بصوتٍ خفيض:

- متاَخذنيش يا سي الحاج، أنا عارف إنه عَزَا ومفيش مَطْرَح للصغار، لكن أعمل إيه الواد شَبَط فيَّه، أنا محقوق لك يا سي الحاج.

ونظر إليَّ لائمًا:

- يعني كان لازم تشبَط فيَّه يا جلال وتوقَّعني في حرج مع عمك الحاج!

لم تبدُ على الرجل أيَّة رِدَّة فعل لكلام الجد، انشغل بي، رَبَّت على كتفي ومال برأسه يسألني عن اسمي، فأجاب جدِّي بدلًا عني:

- آهو هو دا جلال ابن بنتي اللي حكيت لحضرتك عنه.

تأمَّلني لحظةً ثم أدخلَ يده في عِبِّه فتدلى كُمُّ الجلباب الواسع إلى مرفقه، وبان ذراعه بصَّا ممتلئًا يكسوه شعرٌ مائلٌ إلى الصُّفْرة وبإصبعه خاتمٌ كبيرٌ بفَصٍّ أزرق. أخرج ورقةً بخمسين قرشًا ومدَّ يده بها إليَّ، رجعت خطوةً للوراء من الخجل وأنا أنظرُ لجدِّي الذي بدا عليه الرضا والجِدّ في آن، وقال لي بصوتٍ آمرٍ وهو يهزُّ رأسه وكفَّ يده:

- خدها يا جلال وبوس إيد عمَّك الحاج، دا احنا عايشين في حِمَاه.

أشار الرجلُ إلى مقعدين بعيدًا عن الأرائك الموضوعة في صدارة السُّرادِق فجلسنا عليهما، وهمس جدِّي في أُذُنِي مكررًا ما قاله في الطريق عشرات المرات، بأن أظل ساكتًا ولا أفتح فمي بكلمةٍ واحدة. وكنت أتابعه وهو ينتفضُ من فوق مقعده، كلما مرَّ أمامنا تاجرٌ من تجار الأزهر الذين يعرفهم. كان ينحني له برأسه قليلًا ويظل يعلو ويهبط بيديه من أعلى جبهته حتى صدره إلى أن يمضي من أمامه، كانوا هم الآخرون يردُّون عليه بمودَّة، ومنهم من كان يُربِّتُ على كتفه أو ينتبه إلى وجودي معه فيرمقني بنظرةٍ وَدُودَة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيخ عبدالباسط عبدالصمد هو المقرئ..

وأول ما تنحنح وقال: أعوذُ باللهِ منَ الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، تأهب الناس للسماع وكان بعضهم يشير للآخرين وللخدم حاملي صواني القهوة والماء البارد بأن يلتزموا الصمت، وأمسك جدِّي بمرفقي بشدةٍ مُحذِّرًا أن يصدُر عني أي نَفسَ، حتى الداخلون من باب السرادق كانوا يسرعون للجلوس على أقرب مقعد.

آية.. فالثانية.. وحل سكوتٌ عميق، ليس في السرادق وحده بل وخفتت أيضًا الأصوات الآتية من الدكاكين والمقاهي والبيوت التي في أول الشارع وفي الميدان. وكان بالقرب منَّا رجلٌ يهبُّ واقفًا مرة واحدة عند كل قَفْلةٍ من القفلات المتقنة التي يُجيدها الشيخ، ويدعو له بصوتٍ مسموعٍ أن يطيلَ اللهُ في عمره، والناس الذين حولنا يؤَمِّنون على ما يقول. جدِّي نفسه كان متأثرًا بالقراءة ويهُزُّ رأسه مستمتعًا، وإذا التقت أعيننا كان يحتويني بنظراته وعلى وجهه مِسْحةُ حُنُوٍّ حزينة.

أخذَنا كلَّنا الانفعالُ ونشوةٌ كأنها السحر، ووجدت نفسي أنسلُّ شيئًا فشيئًا عمَّن حولي وقلبي يحتشدُ برهبةٍ لم أعرفها من قبل، وكأنَّ شيئًا لا يُرَى يأخذني معه إلى عالمٍ آخر غير العالم الذي أنا فيه. شيءٌ ينسال في شراييني، يغمرني من أوَّلي لآخري، من يميني ويساري.. يُرخيني.. يُهدْهِدُني.. يُخدِّرني.. يُذيبني.. يخفف من جسدي.. يُضعفني ويقوِّيني.. يُسعدني ويُشقيني.. وكأن دمعةً تتكونُ عند حافَّةِ جفني وحرارةً تجتاحُ مقلتي، وانطلقتُ في بكاءٍ عميق، بكاءٍ له ترجيعٌ وشهقات، وبصوتٍ عالٍ أثار انتباه المُعزِّين.

قام جدِّي مفزوعًا وهو يتلفَّت حوله، كان خائفًا من أن يكون صاحبُ العزاء قد رآنا، ولما اطمأنَّ إلى انشغاله مع وفدٍ من المُعزِّين الكبار، خطفني من فوق المقعد وحملني مهرولًا إلى الخارج.

كان بالميدان محلٌّ لعصير القصب..

أخذني إليه وطسَّ وجهي بكوب ماء وطلب لي شوب عصير، فاكتفيتُ منه برشفةٍ واحدة. لم يشأ جدِّي إرجاع الشوب بكل العصير الذي فيه، أكمل هو الباقي وحملني على صدره عائدًا إلى البيت.

كنتُ أسمعُ دقات قلبه.. كانت عاليةً وأسرع من المعتاد.. انشغلتُ بها عمَّا ألمَّ بي حتى إنِّي كنت أعدُّها على أصابع يدي كما كانت تعلمني أمي، ولم يكفَّ هو عن الطبطبة على ظهري، غير أن نوبةَ البكاء عاودتني من جديد ونحن بالقرب من المذبح الإنجليزي، ولكن بنهنهة هذه المرة مع شَرْقةٍ في الزُّور، فارتكن

جدِّي بظهره إلى السور وأخذ يقرأ على رأسي من الكتاب المُقدَّس وتعاويذ كثيرة كان يحفظها، وعندما هدأتُ قلت له بصوتٍ مبحوح:

- أنا بحبَّك قوي يا جدِّي، عايزك تبقى مسلم علشان متدخلش النار.

بالفطرة أحسستُ أن هذا الطلب الذي أطلبه ليس على هواه، وقبَّلني هو في وجنتي وسكَتْ، فقلتُ:

- خلاص خلاص أنا هبقى يهودي زيِّي زيَّك.

أحسست بخدِّه يلامسُ خدِّي ويداهُ تطوِّقانني بضغطةٍ خفيفة، ويبدو أنِّي نمتُ فلم أشعر به وهو يصعد بي السُّلَّم ويدخل إلى الشقة.

رأيت ليلتها حُلمًا مرعبًا..

كأن أمي تسير بقميص نومٍ شفافٍ وقصير في شارعٍ خالٍ من الجانبين، والدنيا كلها هُسّ هس.. لا نَفسَ أو شيء يهمس أو يتحرك على طول البصر، لا سيارة ولا بشر أو حتى شيء فيه الروح..

الناس كانوا هناك.. في أعلى.. صامتين ويحدقون من فتحات الشبابيك في جسدها الذي بدا أكثره عاريًا، وأنا أعدو خلفها بكل عزمي، ورغم أني كنت أنهج وأزيد من عَدْوِي فإنَّ المسافة التي بيننا كانت تزيد ولا تنقص..

هدَّني التعب وكأني أهوي على الأرض، وهي تكاد تغيب عن عينيَّ، وفجأةً سمعت صلصلةً عاليةً ومتواصلةً آتية من مكانٍ قريب، قبل أن أتبين مصدر الصوت، كان ترامًا من عربة واحدة قد خرج عليها من شارع جانبي، دهسها وولَّى بعيدًا، فانخلع قلبي حتى إني كنتُ أسمعُ دقَّاتِه وأنا نائم، وأحسستُ أن العجلات الحديديَّة للترام تطأ عظامي أنا وليس عظامها، وقمتُ من النوم مفزوعًا والصلصلة

لا تـزال تـرنُّ في أُذُنِي.

كانت ترقد إلى جانبي..

لمستها بأصابعي وقلبي ما زال يدق..

الذراع، الكتف، العنق والوجه، وشيئًا فشيئًا أدركت أنه مجرد حُلْم وأمي لم يأكلها التِّرام..

وقمتُ إلى مفتاح الكهرباء وأضأتُ الغرفة، لم تنتبه إلى حركتي واستمرت على سُباتها، وجهُها ساكنٌ وشَعرُها الطويلُ ينسدلُ على الوسادة، وبدت

رموشُها أكثر طولًا وهي مغمضة العينين، ولفت نظري أن قميص النوم الذي ترتديه هو نفسه الذي رأيته في الحُلْم.

عدتُ إلى الفراش والتصقتُ بها مستمتعًا بالدفء الذي يشعُّ من أكتافها العارية، فاستدارت إليَّ واحتوتني بذراعيها وعيناها لا تزالان مُغمَضتيْن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

واستمرت جدَّتي في شرب النبيذ..

فرغم غضب جدِّي من هذه المسألة، ورغم الوعود التي قطعتها له مرارًا بالإقلاع عنها، فإنَّها استمرت.

تقول لها أمي بعتابٍ غاضب: كفَى فضائح فنسوةُ العمارة يتشمَّمن رائحة فمك ويتغامزن عليكِ.

تمتعضُ جدَّتي وتسُبُّهن بأمهاتهن وتقول: إنهنَّ لسن أحسن حالًا منها فأزواجهُنَّ يُحشِّشُون طوال الليل على المقاهي، وهُنَّ أنفسهن لا يتورَّعن عن أكل الأفيون لو واتتهن الفرصة.

- طب حتى داري القزازة من وِشّ الستات لما ييجوا!

- إنتي قصدك لما دخلت علينا اسمها إيه دي على سهوة؟

وهرشت مقدمة رأسها مردفةً:

- أيوه أيوه افتكرت، قصدك على السُّخامة مرات الباشكاتب جاها ضربة في صرصور ودنها.

- أيوه يا ست ماما هو دا اللي أنا قصدي عليه.

تضيف أمي وحاجباها يرتفعان قليلًا:

- وكمان اللَّطْشَة وثُقْل اللسان لما كانت أُمُّ حسن عندنا من يومين،

وللا ساعة لما جُمْ يسألوا عن صحة البابا.

- لطشة مين يا قليلة الأدب، لطشه لما تلطش نافوخك إنتي وابنك في ساعة واحدة.

ولولا أن أمي عرفت حدودها وأسرعت إلى غرفتها، لكانت جدَّتي قذفتها بمقص الخياطة الراقد في حِجْرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جدِّي هو الذي حسم الأمر..

*كان راجعًا من الشغل في يوم من أيام صيف بشنس، الحرارة والزَّمْتَة تفريان بدنه، وبوادر الأنفلونزا على وجهه ومهدود من المناهدة مع الزبائن طول

النهار. أسرعتُ أنا وأخذت منه الحقيبة الجلديَّة والطربوش، ودخل هو إلى غرفته، أما نحن فمكثنا في انتظاره والعشاء أمامنا. صياحُه هو الذي جاءنا، وعرفنا فيما بعد أنه وجد نبيذًا مسكوبًا على الفراش، فيبدو أن جدَّتي تسلطنت وهي جالسة في غرفتها بعد الغداء وأخذت تتبادل الأنخاب مع نفسها، تعبُّ كأسًا في جوفها وتلقي بالآخر على ملاءَة السرير.

خرج جدِّي يومها علينا بالفانلَّة أم حمَّالات على بنطلون البيچامة وكيس المُخدَّة في يده، ألقاه في وجه جدَّتي وهو يصرخ فيها:

- حتى دا كمان غرقان زفت!

ولم تسكت جدَّتي..

كانت ترد عليه الكلمة بواحدة مثلها وأحيانًا بثلاثة فازداد هياجُه، وكمشتُ أنا متوتِّرًا خائفًا أتابعه وهو يلفُّ في الشقة باحثًا عن زجاجات النبيذ. جسدُه نحيلٌ ليس فيه همسة دُهْن أو حتى فتفوتة عضل، عروق في عروق ووجهه من الحنق أصفر كحَبَّة الليمون، أما صوتُه فكان أكثر الأشياء غرابةً في الموضوع، لم أتخيَّل أبدًا أن عروق رقبته قادرة على الانتفاخ إلى هذا الحد وحنجرته تستطيع إخراج كل هذا الصوت العالي.

كان يجثو على ركبتيه أمام الكنبة ويدخل بجسده كله أسفل سرير جدَّتي، وفتَّش غرفتنا ودولاب المطبخ والسَّندَرة وباقي مخابئ جدَّتي. أتى بعشر زجاجات كانت مُخزَّنة في كرتونة انتظارًا لمرور عم يونس بائع الروبابيكيا، وعثر في سَبَت الغسيل على زجاجةٍ ملفوفةٍ في بنطاله لا يزال بها رشفتين أو ثلاثة.

أكيد هذه الملعونة هي سبب المشكلة، دشَّها بضربةٍ واحدةٍ على بلاط الحمَّام، وفتح الباب مناديًا عم إدريس كي يتصرف في كرتونة الفوارغ، أما جدَّتي فانزوتْ في طرف الكنبة، وأخرجتْ منديلًا من عِبِّها تمسح به دموعها.

لم أرَ جدِّي غاضبًا على هذا النحو، لا قبل هذه المرة ولا بعدها، لكن والحمد لله تابت جدَّتي من يومها عن شرب النبيذ. وانتابني أنا إحساسٌ غريب فرغم ما بيني وبين جدَّتي من حبٍّ ضائعٍ وتوتراتٍ كالتوترات التي تحدث بين الدول المتخاصمة، فإنِّي أشفقتُ عليها هذا اليوم خاصةً بعد أن أخرجت منديلها تمسح به الدمع الذي جرى على خَدَّيْها، اقتربت منها مُربِّتًا على كتفها فتلقَّت مني هذا الفعل بمودَّة وأجلستني في حِجْرها، لا أظن أننا تعاطفنا مع بعضنا البعض بعد ذلك سوى مراتٍ قليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقى جدِّي وجدَّتي متخاصمين شهرًا كاملًا، لم يتصالحا إلا بعدها بأشهر حيث كُنَّا جالسين في الشرفة وأمامنا اللُّبُّ والترمس والفول السوداني.

لا زلت أذكر البيجامة الرمادي ذات الخطوط دَكْناء الزُّرْقة التي كنتُ أرتديها في هذه الليلة، وجدِّي يدخل علينا ويداه تخفيان لفافتيْن وراء ظهره.

أسرعتُ إليه فقال: هذه اللفَّة لا تخصُّك، ووضعها أمام جدَّتي، فتحتها وأخرجت منها زجاجة بيرة وشوبَّيْن طويليْن ماركة (زوتوس)، تبسَّمت له ومن يومها عادت ثانيةً إلى شرب البيرة.

حوت اللفَّةُ الثانيةُ حصانًا عليه فارسٌ يُشهر سيفَه عاليًا، كانت الأيام وقتها أيام مولد ويبدو أن جدِّي أحس بي وأنا أتطلَّع إلى الأولاد والبنات، وهم يسيرون بصحبة آبائهم حاملين العرائس والأحصنة الحلاوة.

ظللتُ برهةً أصيحَ وأقفزُ على بلاط الشرفة وأمي تتابعني بفرحة، ولم تجد جدَّتي بأسًا في ذلك إلَّا أنَّها طلبت من أمي أن أسرعَ بأكل الحصان حتى لا يأتي بالنمل إلى الشقة.

لم تقف مفاجآتُ جدِّي عند هذا الحد، سأل أمي إن كانت أخبرتني عن سفرنا باكر.

تطلَّعتُ إليها مشدوهًا، فقالت: إننا سوف نذهب معًا لرؤية أهل أبيك.

قلت لها: كلنا كلنا؟

قالت: لا، أنا وأنت فقط.

كان وجهُها غريبًا وهي تكلمني، ورغوةٌ رقيقةٌ تخيِّم على بياض عينيها. حانت في بالي لحظتَها كل الصورُ التي صنعتُها في خيالي لأبي، وتاهت أمي هي الأخرى بنظراتها حتى إنَّها لم تنتبه إلى جدَّتي وهي تقول لها:

- إوعي ترجعي وإيدك فاضية، الولد مصاريفه كتيرة.

ولا لجدِّي الذي طلب من جدَّتي ألَّا تُثقلَ عليها، فهي الأدرَى بمصلحة ابنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

وصلنا بشِقِّ الأنفُس إلى ميدان الكيت كات..

لم تشأ أمي ركوب سيارات الأجرة التي ينادون عليها بالنَّفَر، قالت: باصات الحكومة أرخص وأأمن.

أشار عليها أولاد الحلال بباص عجوز يتصدَّر موقف الأرياف، أفهموها أنه السريع والمباشر من بين الباصات المتوجهة إلى (المنصوريَّة)، وعادةً ما يقطعُ المسافةَ في نصف ساعة.

كانت سلالم هذا الباص وعلى ما أتذكَّر عاليةً متآكلة، ولولا أن أمي كانت تقبض على يدي بشدة لانزلقتُ من فوقها، الحمد لله، صعدنا، وأول من شاهدناه هو السائق.

كان جالسًا على مقعده ورأسه مُدلًّى على عجلة القيادة ويحيطها بذراعيه، لم تكن المسألة مجرد نوم من النوم العادي البسيط كالذي ينتابُ عم إدريس بوَّاب عمارتنا أحيانًا وهو جالس على دِكَّته، وإنما نوم محترم، ثقيل وبشخير، بل وفوق ذلك كان المسكين يهمهم بصوتٍ مكتومٍ بين دوراتِ الشَّخِير ومِرْفقاه يرتجفان بحركة تَشنُّجيَّة، لا شكَّ في أنه كانَ يعاني من كابوس أو يتشاجر مع أحدٍ في الحُلْم.

وقفتُ أحدق فيه فشدَّتني أمي من ذراعي، وأجلستني إلى جوراها على الأريكة التي خلفه.

أمي كانت مشدودة وكأنها خائفةٌ وتعملُ ألف حساب لهذا المشوار، أما أنا ففي وادٍ آخر. مشغول بالسائق وبالناس ذوي الجلابيب والطواقي الذين يصعدون تباعًا إلى الباص، والمشنَّات والقُفَف والسِّلال التي فضَّل أصحابُها إدخالها من النوافذ وليس من الباب، وبكل جديد أراه. ولما بدأتُ في طرح الأسئلة عليها، مالت نحوي واستحلفتني بالله أن أرحمها وأغلق فمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصعد المُحصِّل..

ألقى نظرةً عابرةً على الركاب، ثم نزع المنديل الذي يحيط بياقة سُتْرته الميري منفضًا إيَّاه في وجوهنا، والتفت إلى السائق، زغده زُغْدَيْن في كتفه فاستيقظَ واستدارَ نحونا. كانت جبهتُه حمراء قليلًا، والخطوط التي على المِقْوَد منطبعة عليها. تثاءب عدة مراتٍ وانحنى على قُلَّة بجواره، طسَّ وجهه

بحفنة ماء منها، وأخذ يدندن بأغنية شعبية (لشكوكو) كانت منتشرةً في ذلك الوقت. كنت أتابعه فلاحظ ذلك، تبسَّم لي وأدار محرك السيارة.

الحق أنه كان سائقًا رائق البال، ومتمعنًا في أصول السياقة بطرق الأرياف.

أمسك بالمقود منطلقًا بسرعة تزيد - بهمسة - عن سرعة الدرَّاجة الهوائية، وكان يقف لكل من يشير له والوقفة بعشر دقائق، بل كان يقف أحيانًا من تلقاء نفسه، مرةً أمام نَصْبَة شاي فأتى له صاحبها بكوب ساخن وأخذ الفارغ، ومرةً بلا سبب. وبعد أن عبر المزلقان ركن بنا أمام عُشَّةٍ بجوار مطار إمبابة ونادى بأعلى صوته، فخرج إليه رجلٌ له هيئةُ المجرمين، بنطالُه مشمورٌ وفي الأعلى فانلَّةٌ داخليَّةٌ بحمَّالات وشعر يده كثيفٌ كما القرود. هبط إليه السائق وعاتبه على الدجاجتين اللتين اشتراهما منه بالأمس ونفقتا قبل أن يطلع النهار، وكلمة في كلمة بدأت المشاحنة، وكاد أن ينشب بينهما عراكٌ وتماسكٌ بالأيدي لولا أن السائق عاد إلى مقعده وبحركةٍ فجائيَّةٍ تمخَّط وألقى ببصقةٍ على الرجل من النافذة، وانطلق بنا كالريح والآخر يعدو خلف الباص ملاحقًا السائق بالشتائم وسِباب الدين.

كُنَّا بفعل السرعة المباغتة نترجرج في الباص ونصطدم بالمقاعد أو ببعضنا البعض، أخذتني أمي على حِجْرها وصرخت في السائق مرارًا أن يتمهَّل. لم يُعِرْها أيَّ اهتمام؛ لكنه بعد أن قطع شوطًا طويلًا وأدرك أنه في الأمان عاد إلى سرعته العادية.

الغريب أن أحدًا من الركاب لم يكن منزعجًا أو حتى قلقًا، والأمور بالنسبة إليهم تمضي في سيرها الطبيعي، ولم نَرَ أي نشاط للمُحصِّل إلا بعد أن تحركُنَّا بزمن، أخذ تعسيلةً بجوار شباك مفتوح لم ينتبه فيها إلى ما جرى مع السائق، ولم يقُمْ منها إلا بعد أن غادرنا الكيت كات والعمران المحيط به ودخلنا في طريقٍ غير مُمهَّد تحوطه الزراعة من الجانبين. سحب قلمَ كوبيا صغيرًا من خلف أُذُنه ودق بمُؤخَّرته مرتين على لوح التذاكر الذي بيده، لتبدأ المناكفاتُ مع ثلاثةٍ من الركاب أنفقوا كل فلوسهم في البندر وليس في جيوبهم ولا حتى "القرشين صاغ" ثمن التذكرة.

وبعد مدة - ساعة ونصف الساعة تقريبًا - بدت في الأفق ترعةٌ كبيرةٌ تحيط بها أشجارُ كافورٍ عالية، وتلوح من ورائها عُششٌ صغيرةٌ مُقامةٌ على أطراف الحقول. تثاءب المحصلُ وضرب على صدره مُخرجًا صوتًا كالتأوّه والزفير العميق، ثم نقر على اللوح الزجاجي الذي يفصل السائق عن الركاب، وصاح بصوتٍ عالٍ:

- المنصوريَّة المنصوريَّة، خلاص خلاص احنا دخلين عليها، يللا يا حاج يللا يا ست وأنت ياللي نايم هناك!

ولما لم يجد ردَّة الفعل التي توقَّعها أو بادرةً تفيد بأن واحدًا من الركاب يتجهز للنزول، بَانَ الضيقُ على وجهه وأعاد التنبيه - هذه المرة - بخبطاتٍ قويَّةٍ من كفِّ يده على الزجاج، ثم سار في ممر السيارة يتلفَّت يمينًا وشمالًا. نظر بحنق نحو رجلين كانا في وضعٍ فريد، رأس الأول مرتخٍ تمامًا على كتف جاره، وفي المقابل وضع الجار رأسه على الرأس الذي يتوسَّد كتفه، والاثنان في نومٍ عميق، وربما يحلُمان. ضرب المحصل واحدًا منهما بلوح التذاكر على رأسه، فلم تطرف عيناه. انتبه الرجل بعد عدة ضرباتٍ مماثلةٍ واستدار مُحتَّجًا، فأشار له المحصل على النافذة والبيوت التي اقتربت؛ ففهم وأيقظ جاره ومكثا يتلفتان على حاجياتهما أسفل المقاعد، وأحدهما يمسح الريالة التي تدلَّت من فمه وهو نائم وطالت قَبَّة الجلباب.

وأكمل المحصل جولته.

لقي امرأتين تميلان برأسهما إلى الأمام، إحداهما تحسب شيئًا على أصابع يدها، والأخرى تترقب النتيجة بشغف.

قال لهما بصوتٍ آمر:

- يللا يا زكية، يللا يللا خلصينا، هو إنتي هتطلَّعي عيني كل مرة!

تبسمتا وقالتا له في صوتٍ واحد:

- ربنا يسترك يا خويا.

وانحنيتا معًا تحملان قفصًا من الجريد له طابقان، الطابق الأول فارغ وبابه موصد بإصبع من الجريد، والثاني به حمامتان التصقتا ببعضهما وسكنتا على كومة صغيرة من القش، واضح أنهما لم تتمكّنا من بيع الحمامتين في سوق الكيت كات مع أخواتهما.

وعلى المقعد الموازي لنا كانت تقبعُ امرأةٌ وسط هوجة من العيال، الصغير فيهم كان مصممًا على وضع إصبعه في عينها، والآخر كان جالسًا أسفل المقعد يشدُّها من ساقها وهي تركله في بطنه كي يسكت، وثلاثة أو ربما أربعة على المقعد المجاور لها دخلوا مع بعضهم في مشاجرة.

لم يُعِرْهُم المحصل بالًا والتفت نحونا بنظرةٍ ذات مغزًى، فهزت أمي رأسها وقامت على الفور وأنا في يدها. لا جدال في أنه جدير بالوظيفة التي يشغلها، يعرف وجهة كل زبون من زبائنه واللحظة الملائمة لحَثِّه على النزول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرًا وصلنا..

وقف بنا الباص في أرض فضاء، متاخمة لوابور طحين جدرانُه مدهونة بطلاء أبيض فَقَد نضارته بفعل الزمن، وبالرغم من ذلك بدا مَهيبًا بمدخنته التي يتصاعد منها الدخان، وهيكله الكبير قياسًا على بيوت الفلاحين، وأمامه ساحةٌ تمتلئ بالحمير ما بين الذي أفرغ حمولته فقيَّده صاحبُه من إحدى قدميه في جذع شجرة، والذي أفلت من قيده وصاحبه يجري خلفه، والذي قوَّس ظهره قليلًا وباعَد ما بين رجليه الخلفيتين استعدادًا للتبوُّل والناس تبتعد عنه اتقاءً للرذاذ.

وكانت النسوة تمضي أمامنا بتثاقُل حاملاتٍ قُففًا مملوءةً إلى حافتها بالقمح أو الذُّرة، وعلى يمين البَوَّابة الحديدية للوابور يجلس رجل بنظارة وسروال طويل أمام ميزان قَبَّاني متوسط الحجم، ويحرك الرمانة الحديد ليضعها على المؤشر كلما وضعت امرأة قُفَّتها في حجر الميزان أو أنزل رجل جُوالَ الحَبِّ من فوق دابته. وإلى جواره رجلٌ آخر طاعنٌ في السن، أمامه طاولةٌ صغيرةٌ بأرجلٍ خشبيَّةٍ رفيعةٍ على سطحها مَحْبرةٌ من الزجاج كالحةُ المنظر، وبيده ريشةٌ من الخشب مفلطحةٌ يغمسُها في المحبرة، ويسجل بها الرقم الذي يقوله الرجل القاعد على الميزان على قُصاصة يستخرجها من رُزْمَةِ ورقٍ أمامه، ويسلمها بلا اكتراثٍ وبعينٍ نصف نائمةٍ لمن عليه الدور. وعلى مقربةٍ نفرٌ من الحمَّالين يرتدون جوالاتٍ فارغةٌ من الخيش القديم مفتوحة من عند الكتفين، وأذرعهم وسيقانهم كلها عارية، وعلى رءُوسهم أغطيةٌ كالبرانيس مصنوعةٌ من قماش سميك. كانوا يتناوبون حملَ جوالاتٍ مكتنزة بالدقيق مرصوصٌ بعضُها فوق بعض بجوار حائط الوابور، ويتجهون بها صوب عربة كارُّو تقف على جانب الطريق.

لم تَطُلْ وقفتنا..

أقبل علينا رجلٌ عجوزٌ يطوِّق عنقه بمسبحةٍ ذات حبَّاتٍ كبيرةٍ تتدلَّى حتى أول بطنه، وعلى رأسه شالٌ متربٌ والجلبابُ يتجاوز ركبتيه ببوصاتٍ قليلة. أشاح بعصًا من الجريد نحو أمي، فرجعت خطوتين إلى الوراء وتشبَّثتُ أنا بثيابها، وعندما تكلم تهدَّل فمُه وبدا خاليًا من الأسنان فازددتُ خوفًا منه.

سألنا عن وجهتنا..

فقالت له أمي: إننا نقصد بيت الحاج عبدالحميد المنشاوي.

هرش رأسه وهو يهمهم بكلماتٍ غير مفهومة وأعاد السؤال ثانيةً وهو يرمش بعينيه، وكان قد تجمَّع حولنا بعض الصبية يهللون ويصيحون في وجهه، منهم

من كان ينغزُه في بطنه أو يشدَّه من الحزام الذي يلفَّ به خَصْره، وبدأ في مبادلتهم الصياح هو الآخر والدفاع عن نفسه بعصاه.

لم تسلَم أمي من الأذى، نالت عصًا على منكبيها وزغدين في جنبها، فأخذت تسبُّ أبي والدنيا واليوم الذي أتينا فيه إلى هُنا وشدَّدتْ قبضتها على يدي، وهي تشرئِبُّ بعنقها باحثةً عن أحد يسعفُنا ويدلُّنا على الطريق.

يبدو أن اللمَّة والصياح حول هذا الدرويش كانت أمرًا مألوفًا فلم ينتبه إلينا أحد، واضطررنا إلى الإذعان له بعد أن حقق نصرًا سريعًا على الأولاد والتفت إلينا. كررنا عليه اسم جدِّي ثانيةً وسرنا معه في رهطٍ صغير، هو في المقدمة وأنا وأمي وراءه ومعنا مَنْ تبقَّى من الأولاد. وبطبيعة الحال كان الدرويش مصدرَ جذبٍ للصغار، فمع كل خطوة كُنَّا نزداد بانضمام أولادٍ جُدُد، وتبعتنا معزة لا أعرف من أين أتت! ولحق بنا صبيٌّ يمتطي جحشًا صغيرًا، يبدو أنه كان في طريقه إلى الغيط ولما رآنا آثر الدخول في زُمْرتنا.

وصلنا أخيرًا إلى بيتٍ من طابقٍ واحد، ورغم ذلك كان يبدو كبيرًا وسقفه عاليًا، والبَوَّابة عريضة ولها ضلفتان خشبيتان مُوارَبتان قليلًا، وأعلى كل واحدة منهما فتحة بيضويَّة مليئة بالقضبان الحديديَّة التي أكل الصدأ أطرافها. كان واضحًا أن البيت لم تَمسَّه يد الإصلاح من وقتٍ طويل، فآثار الأمطار وفعل الزمن كان باديًا على واجهته، وأحجاره البيضاء الكبيرة بَانَ بعضُها بعد أن زال من فوقها الطلاء، وعلى جانبيه شجرتا توتٍ ما زالتا في طور النمو، بجوار إحداهما (طلمبة) أمامها حوضٌ أسمنتيٌّ تتسرب المياهُ من أحد جوانبه في مساراتٍ رفيعة.

وقفنا أمام البيت في زفَّةٍ تزيد على أربعين نفسًا فضلًا عن الدابتين، وأخذ الدرويش في النداء على جدِّي بصوتٍ عالٍ والأولاد يهللون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

ما إن لاح جدِّي على عتبة الباب حتى تفركشت الزفَّة..

طار الأولاد كلهم ومعهم الدرويش، أما أنا فأصابتني رِعْشةٌ كرعشة الكهرباء، وأظن أن أمي حدث لها نفس الشيء.

كان هذا الجدُّ طويلًا عريضًا، حجمه أكبر من حجم جدِّي زكي بمرة ونصف، ويلتفُّ بعباءة من الصوف الخفيف لها كُمَّان واسعان، أما رأسه فعليه عمامةٌ لها شراشيب تتدلى وراء أذنه.

وقف على مسافة منَّا مستندًا براحة يده اليمنى على عصًا سوداء ذات عقفة، وإلى جواره خادمُه (إمام) بقميصٍ على اللحم وقدماه حافيتان، والاثنان يرمقاننا بنظراتٍ تحملُ ألف معنى.

سألنَا مَنْ نكونُ؟

وانحنى قليلًا برأسه، متشاغلًا بفركِ نُتْفةٍ من الطين الجاف علقت بصدر العباءة.

استرعى نظري ظهر كَفِّه المسترخية على مقبض العصا، كانت مكتنزةً ومليئةً بالنَّمَش وترتعش بذبذبةٍ ثابتةٍ على المقبض فتهتز العصا هي الأخرى معه، وتثور ذرَّاتُ غبارٍ خفيفةٌ حول قاعدتها. ولمحت عيناه وهي تتسلل إلينا؛ خاصةً أنا، ورغم أن التجاعيد قد كستهما تمامًا وبدت الحدقتان ضيقتيْن وبياضهما تشوبه صُفْرة، إلا أنهما كانتا متوهجتين والشعاع الآتي منهما نفاذًا ويقول إنه يعرفنا.

لم ينتظر منا إجابة..

استدار ومشى بتثاقُلٍ نحو جوف البيت، ووقفنا أنا وأمي حائريْن في الذي نفعله. لا أنسى هذه اللحظة أبدًا، ولا خادمه إمام الذي انحنى وقبَّلني على رأسي ودفعني برفقٍ كي أمضيَ في أثر جدِّي.

اجتزنا البَوَّابة، وسرنا في دهليزٍ عريضٍ به دكك خشبية متقابلة. كلها بنفس المقاس تقريبًا، ما عدا التي في أقصى اليسار فهي الوحيدة الأكبر حجمًا، والتي عليها فَرْوتَا غنمٍ سوداوان تفصل بينهما وسادتان من القطن تعلوان بعضهما.

وفي آخر الدهليز حجراتٌ إلى اليمين وإلى اليسار أبوابها ونوافذها مغلقة، ووراءها حوش غير مسقوف في زاويته ثلاثة كوانين، اثنان منهما حلوقهما فارغة والثالث عليه قِدْرٌ كبيرةٌ من النُّحاس ليس بأسفلها نار. وفي الزاوية الأخرى فرنٌ يتصاعد من فُوَّهته دخانٌ خفيف، وعلى قَبَّته طاجنٌ كبيرٌ من الفخَّار وطستٌ قديمٌ حوافُّه متآكلةٌ وتبرزُ منه بعض الفوارغ والكراكيب. وأمام الفرن كومةٌ من كيزان الذُّرَة الخضراء، يبدو أنها كانت في طريقها للشَّيّ لولا قدومنا. وعلى مسافةٍ من أدوات الطهي هذه توجد شونةٌ طويلةٌ لها بابٌ يُفتح على شارع خلفي، وبابٌ آخر يُفتح على البيت من الداخل يجلس على عتبته رجلٌ عجوزٌ كُمَّاه مشموران ورأسه مُدلًّى على صدره. كان في غفوةٍ وغير منتبهٍ إلى أي شيء حوله، وبالشونة جاموسةٌ باركةٌ على الأرض تلوك شيئًا بفمها، وعلى مقربةٍ منها عِجْلًا صغيرًا انجذبت إليه.

أجلسنا إمام على الدكة المقابلة للدكة الكبيرة والتي بات واضحًا أنها مخصصة لجدِّي، جاءت جلستي في زاويةٍ أتابعُ منها ما يحدث في الشونة، ومضت برهةٌ طويلةٌ بلا كلامٍ تحسَّس جدِّي في أعقابها أطراف لِحْيتهِ الكَثَّةِ وعاود النظر إليَّ:

- خير؟

قالها لأمي بصوت مضغوم، وتلاها بسعلةٍ عاليةٍ أثارت رعبي.

لم تنطق أمي بكلمة..

مدَّت يدها بحركةٍ لا واعيةٍ إلى الحقيبة الموضوعة في حجرها، وهي تضغطُ على معصمي باليد الأخرى وعيناها قلقتان وتتحاشيان أي شيء يلوح في مدارها. ظلت برهةً ليست بالقصيرة تعبث في الحقيبة، إلى أن أخرجت لفَّةَ ورقٍ معقودةً بأستك شراب قديم لجدِّي زكي. لفة تحوي شهادة ميلادي ووثيقة زواجها بأبي، وصور لهما معًا، وكمبيالة كان قد وقَّعها على نفسه لجدِّي، وعقد إيجار الغرفة التي كانا يسكنانها معًا. ومن نصاحة جدِّي زكي أنه أقنع صاحب العمارة بأن يذكر اسم أمي وأبي معًا في خانة المستأجر، وأن يسجل ملحوظةً مكتوب فيها بين قوسين "المتزوجان على سُنَّة الله ورسوله على يد مأذون ناحية... التابعة لمحكمة...".

سلمته اللفَّة وانشغلتُ أنا بما يدور في الشونة..

يبدو أن العِجْلَ الراقد بجوار أمه كان مولودًا لتَوِّه، تابعتُه وهو يرفع رأسه متشممًا ريحها، ثم وهو يحاول الوقوف مراتٍ كثيرة للوصول إلى ضرعها. في كل مرة كان يسقط على قوائمه النحيلة ويبذل جهدًا في تخليصها من بعضها البعض عندما تتشابك، ولما تعب توقف عن الحركة وأغمض عينيه لينام.

***

وضع جدِّي الأوراق في حِجره، وأخرج نظَّارةً طبيَّةً من جيب الصديري ووضعها على عينيه فبدا أكثر مهابةً. مكث يدقق النظر في كل ورقة ويقرأ محتواها أحيانًا بصوت مسموع، غير أنه لم يقدر على كبح جماح عينيه. كانتا تفلتان منه مختلسةً النظر إليَّ، وعندما تلتقي نظراتنا كان يتنحنح ويشيح بوجهه إلى أعلى، ويبدو وكأنه يفكر في أمرٍ آخر ولا يقصد ما توَّهمته، أما أمي فكان وجهها ممتقعًا والفأر الممسوك من ذيله أفضل منها حالًا.

مضت برهةٌ نظر جدِّي بعدها إلى أمي متوقعًا مزيدًا من التفسير، وانفرج أحد الأبواب المغلقة، خرجت منه امرأةٌ نحيلةٌ تلفُّ رأسها بطرحةٍ سوداء وعيناها حزينتان.. جدَّتي.. أشار لها جدِّي بأن تجلس، فهبت أمي واقفة لها إلَّا أنَّها لم تعبأ وجلست إلى جواري.

حكت أمي حكايتها مع أبي منذ أن جاء يشتري قطعة الصوف من بنك صيدناوي، حتى آخر يوم شاهدته فيه وكانت حاملًا فيَّ. قال لها يومها، إنه ذاهب إلى البلدة وفي المرة القادمة سوف يأخذها معه، غير أنه لم يعُدْ، وجدِّي يتابع أمي وعيناه لا تحيدان عن وجهها، أما جدَّتي فكانت أذناها مع أمي وعيناها عليَّ.

وانتبهت لتَكَّةِ مصراع أحد الشبابيك والضلفتان تنفرجان عدة بوصات، ويلوح من خلفهما وجهُ امرأةٍ تمعنُ النظر فينا. عرفها جدِّي رغم أن الشباك لم يكن في امتداد بصره، ونادى عليها بصوته الجَهوريّ فأتت متشحةً بالسواد وتمسك بيدها بنتًا صغيرة تُطأطئ رأسها من الخجل. أشار لها جدِّي بأن تجلس إلى جانبه، فجلست هي والبنت بالطرف الآخر من الدَّكَّة، وقال هو لأمي: إنها الزوجة الأخرى لأبى وبنتها.

لم تكن أمي تعلم أن أبي متزوج من إمرأة ثانية غير أنها كتمت انفعالاتها، وساد صمتٌ ثقيلٌ لم يقطعه إلا طفلان صغيران تسللا من فتحة باب مُوارَب، وأخذا يحبوان أمامنا جيئةً وذَهابًا بطول الدهليز وهما لا يكُفَّان عن الضحك.

وبعد برهة بدأنا نشعر بلغطٍ وهمهمةٍ وحركاتٍ خفيفةٍ خلف الشبابيك الأخرى، وعندما صفق جدِّي بيديه همدت الحركة تمامًا، لكن ما لبثت أن عادت الهمهمة ثانيةً ولم يفلح جدِّي في إسكاتها، فأشار إلى جدَّتي أن تدعو الباقين للحضور.

أتت زوجة عمي إبراهيم ومعها جمعٌ من الأولاد، وأختان لأبي من حجرةٍ ثانية، وأختٌ ثالثةٌ تقيم هي وأولادُها في البيت لحين عودة زوجها التاجر من سفره بالصعيد.

ووقفت خادمةٌ عجوزٌ اسمها (أم الكوز) في آخر الدهليز، أشار لها جدِّي بيده كي تذهب بعيدًا، رجعت خطوتين وتمهَّلت دقيقةً ثم تقدمت خطوةً وبعد دقيقةٍ ثانيةٍ رجعت إلى مكانها الأول. اغتاظ منها جدِّي ونهرها غير أنها لم تتزحزح، لم تختفِ من أمامه إلا لما انحنى باحثًا عن شيء يقذفها به، ومع ذلك لمحتُها تعود متسللةً وتُقعِي بحذاء باب يداريها عن جدِّي، وترمقنا من فتحته المُوارَبة.

أشار جدِّي إلى أمي، وقال للجمع الذي ملأ الدِّكّك:

- آهي هيَّه دي الست اللي المرحوم كان متجوِّزها في مصر.

ونظر نحوي:

- ودا ابنه.

وحدق في وجه أمي مستفسرًا عن اسمي، فقالت:

- جلال..

وصمت الجميع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

قضينا ثلاثةَ أيامٍ في بيت جدِّي وكأننا في منفى..

أفردوا لنا مندرةً كانت مخصصةً من قبل للخزين وحفظ الكراكيب، أعادوا سد الفتحات التي تتسلل منها الفئران وكنسوها ونظفوها وفرشوها، وإن كان كل هذا لم يُجْدِ نفعًا مع الروائح التي تملؤها خاصةً رائحة المش واللبن الرائب. وقالوا لنا قبل أن يغلقوا علينا الباب: عندكم شباكين الأول على الشارع افتحوه ولكن موارِبًا، أما الذي يطل على البيت من الداخل فاتركوه مغلقًا.

يدخل علينا الطعام في ميعادٍ كُلّ وجبةٍ على صينيَّةٍ تحملها أم الكوز التي خصصوها لطلباتنا، في أوَّلِ الأمرِ كانت تنظرُ إلينا بغضبٍ وكأن مشكلتنا معها هي، وإذا سألناها عن شيء لا ترد، تضع الصينيةَ من سُكاتٍ وتعود لتأخذها من سُكاتٍ أيضًا.

أخذت تتلكَّأ بعدها..

تجلس على السرير بلا استئذانٍ ثم ترفع قدميها وتتربَّع عليه معنا، تهبط قليلًا برأسها وتُخرج خرقة من عِبِّها، وتظل تتمخَّط وتعطس والرذاذ لا يرحمنا، وأمي متأففة منها لكنها لا تستطيع الكلام. وعندما تفرغ تسألنا: إن كان الطعام يكفينا أو نريد غسل ملابسنا، وتُربِّت على كتفي، وتقول: إن وجهي هو الخالق الناطق وجه أبي فتتبسم أمي. وعندها تبدأ المرأةُ في الكلام، تأخذ وتعطي مع أمي، كلمة من الشرق وكلمة من الغرب، تظنُّ أنها سوف تسحبُها في الكلام لتعرف سبب زيارتنا وما يجهلُه أصحابُ البيتِ عنها وعن أهلها، وأمي بالطبع لا تشفي لها غليلًا وتأخذها في حكاياتٍ بعيدةٍ عمَّا تريده. وتجيء سيرة جدِّي فتسألُها أمي عن طباعه وما يقولُه هو وجدَّتي عنها وعن ولدها، والمرأةُ تنظر إليها وإذا فتحت فمها فالكلامُ بالحساب. كان الأمرُ أشبهَ بمباراةٍ بينهما، فالاثنتان مُحنَّكتان في اللفِّ والدوران ولا تستطيع إحداهن أن تسحب من الأخرى كلمة إلا بصعوبة، وأنا جالسٌ يدي على خدي والملَلُ ينحرُ قلبي.

تعلقتُ مرةً بجلبابها، وطلبتُ منها وهي خارجةٌ أن تأخذني معها لألعب مع الأولاد.

ترددت وقالت: سوف أسألُ جدَّتَك أولًا، زجرتني أمي على ذلك وشدتني من كُمِّ البيجامة حتى كاد أن يخرج في يدها.

لم يَقُلْ لنا أحدٌ لا تخرجا، أمي فهمت ذلك من نفسها، وبقينا يومين لا نخرج إلا للأمور التي ليس لها حلٌّ كالذَّهاب إلى الحمَّام.

الحمَّام.. الحمَّام..

لم أعرف قدر وقيمة الحمَّام إلا وأنا في البلدة، فهو بالفعل بيتٌ للراحة وطوقُ نجاةٍ لمن كان في ورطةٍ مثل ورطتنا، فقد تعدَّل نظامُنا في الأكل عمَّا تعوَّدنا عليه في مصر. وجبتا الإفطار والغداء أصبحتا خفيفتيْن، ولا تستوجبان التردد عليه كثيرًا. الوجبة الرئيسة هي وجبة العشاء حيث تدخل علينا صينيَّةٌ نحاسيَّةٌ عليها (أُنْجَر) ثريد يكفي عشرة، تتربَّع عليه إوَزَّةٌ بأكملها أو قطعُ لحمٍ كبيرةٌ يفحُّ منها البخار ونصف بِطّيخَة مرشوق في قلبها سكين، غير أطباقٍ الخضار والسَّلاطَة وصينية صغيرة عليها طاجن أرز مُعمَّر خرج من الفرن لتَوِّه، أو شيء كالعجين مَطْهوّ باللبن والزَّبيب.

لم نألف هذا الطعام الممتع من قبل، وكانت أمي تعرف أنه ثقيل على المعدة، ومع ذلك كُنَّا ننزل عليه بالملاعق أنا وهي كأنه آخرُ زادٍ لنا في الحياة الدنيا، افترينا والله على أنفسنا، ولم نكن نكتفي بعد ذلك بشرب قُلَّة ماء وإنما قلتين. ساعتين بعدها ونبدأ في الدخول للحمَّام، ليس مرةً أو مرتين أو حتى ثلاثة بل أكثر، وعندما يطفئون الكلوب الذي في الخارج وتخف الحركة، نتمدَّد على السرير ليس للنوم وإنما من النار التي في بطوننا، فكلانا؛ خاصةً أنا، كُنَّا نشعر بعدم الراحة وأن لدينا الكثير الذي يجب إخراجه، قد تخرج أمي مرةً أو مرتين في جوف الليل وتستحي بعدها، أما أنا فذَهابٌ وإيابٌ بلا توقف.

وعندما تملُّ مني، كانت تقول بلهجةٍ تهديديَّة:

- خلاص خلاص.. دي آخر مرة تخرج فيها يا قليل الأدب! الدنيا بَرَّه كُحْل وأم رِجْل مسلوخة هي كمان عندها إسهال زيَّك وأنا شايفاها وهيَّه بتدخل الحمام، تحب تدخل معاها؟ تحب!

كنت أموت في جلدي ساعتها، وتبدأ هي في اتخاذ احتياطات الأمن، هذه الاحتياطات كانت أمرًا لا تساهُل فيه بالنسبة إلى أمي، وكأننا في ميدان معركة ونتعرض لهجوم؛ إذ كانت تتأكد من أن النافذتين مغلقتان "شيش وزجاج" وقادرتان على صد أي تسلُّل، وتشد ترباس الباب الداخلي حتى آخره، وتأتي بالمقاعد وبكل المنقولات الموجودة بالغرفة وتضعها خلفه، ثم تقف برهةً تهزُّ رأسها وتقرأ سرًّا من الكتاب المُقدَّس وأنا أتابعها وأحيانًا أقدم لها المساعدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأت جدَّتي في الدخول علينا.

تسأل أمي من خارج الباب إن كانت مرتاحة.

تومئ بالإيجاب فترنو بعينيها نحوي ثم تتركنا، أطلّت علينا مرةً فأسرعتُ إليها ولثمتُ يدَها بإيعازٍ مُسبَّق من أمي، فدخلَتْ وجلسَتْ على حافة السرير بجوارنا أنا وأمي ووضعت يدها على كتفي. مسَّت طرحتُها الحرير وجهي، كانت ملساء ولها وقعٌ كالدغدغة فأخذت أعبث بأطرافها وأمرِّرُ كفي عليها، وهي ترمقني وشيءٌ يلوح على شفتيها، كأنه ابتسامة، وجاء ذِكر أبي على لسانها هي وأمي فانهمر دمعُهما معًا.

في اليوم الثالث أمضَّني الانتظار، فحاولتُ بمبادرةٍ ذاتيَّةٍ مني أن أخترق هذا الحصار وأخرج. وارَبْتُ الباب متسللًا منه بحذر، خطوتُ خطوتين وبصري معلق ببحراية الشونة التي كستها الشمس. كان العِجْلُ مُمدًّا فيها، وعيناه تنظران بدهشةٍ إلى هذه الدنيا التي أتى إليها، وهي خطوة ثالثة التي خطوتُها بعد ذلك وما أشعر إلَّا بمقشَّةِ ليفٍ تنزل على رأسي وولدان أكبر مني بقليل يجثمان عليَّ من الجانب الآخر ويُكوِّماننني أرضًا، وولد ثالث! لا. لا.. كانت بنتًا قصيرة الشَّعْر وترتدي بنطالَ بيجامةٍ فبدت كالولد، انشقَّت عنها الأرضُ وأخذت تدبدب بقدميها وتصوِّب بعصًا صغيرةٍ في يدها نحو رأسي، وتصيح بأعلى صوتها طالبةً مني رفع يدي إلى أعلى وأن أسلم نفسي.

أوقعوا بي الأبالسة، حتى الشَّشْمَة الوحيدة التي قلتها ردُّوا عليها بسبع شتمات، وجاء الكل على الجلبة. لم تفتح أمي فمها بكلمة، انتشلتني من بين أيديهم بسرعةٍ كما يرفعون الجرحى من أرض المعركة، وأغلقت الباب خوفًا من أن يتسللوا منه ويعاودوا الكرَّةَ مرةً أخرى. جدَّتي هي التي تكفَّلت بالدفاع عنَّا، أتت بعصًا ونزلت بها على ظهر الولد الكبير، وأدارت معركة مع أمهم – ابنتها -لمدة ساعة.

سمعناها تقول: إنني ابنُ ابنِها ولي في البيت مثلهم وأكثر، وأمي الفرحة تملأ وجهها فبتَهوُّري وخروجي دون إذنها وحدوث ما حدث، نطقت جدَّتي وأكَّدت للجميع من أنا وما هو وضعي في هذا البيت!

وفي المساء علم جدِّي بالخبر فأجبر عمتي على الدخول لأمي وتطييب خاطرها، وأتت تعليماته إلينا بأن نخرج ونتناول الطعام مع العائلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتى الصباح وخرجنا للإفطار..

كان جدِّي يجلس على دِكَّته وأمامَه صينيَّة، وعلى الأرض بطول الدهليز ثلاث صوانٍ. واحدة لجدَّتي ونحن معها، والثانية لزوجة عمي إبراهيم وأولادها، فقد كان عمي سهرانَ بالأمس في الغيط ولا يزال نائمًا في فرشته، وصينية لعمَّتَيَّ الاثنتين، ومعهما الثالثةُ وأولادُها الذين اعتدوا عليَّ.

وفي وجبة العشاء وبأوامر من جدِّي، انتقلتُ إلى جواره لآكل على صينيَّته، أكلتُ معه قطعة من المخاصي ومن ذيل العِجْل وهي أشياء مخصصة له ولا توضع إلا في طَبَقِه، أما اللحم المسلوق فللجميع. وأتى عمي إبراهيم عندما بدأنا في شرب الشاي، لم يكترث بوجودنا، أو أنا وأمي نظرنا ناحيته، ولما طلبتْ منه جدَّتي أن يسلِّمَ على أمي تظاهر بأنه لا يسمع وانهمك في الحديث مع جدِّي، ورغم هذا لم يكفَّ عن النظر إلينا من تحت لتحت.

لم أرَهُ كثيرًا بعدها..

فهو إما مشغول في الغيط، أو يتعارك مع زوجته. كانت أمي لا تحبُّه ولا تخرجُ من غرفتها إذا سمعت صوتَه، وفي المرات التي لقيته فيها كان كُلٌّ منَّا يتجاهلُ الآخر، يمرُّ من أمامي وكأنه لا يراني، وأنا أول ما ألمحُه أقفُ صامتًا حتى يمضي في سلام.

كُنَّا هكذا طوال الوقت، ومع ذلك كنت مشدودًا إليه وأظلُّ في كل مرةٍ أحدِّقُ في ظهره حتى يختفي عني، وأندهش من منكبيه العريضين وطوله الفارع، وأتمنى أن يكون لي هذا الهيكل عندما أكبر، فلم يكن أهل أمي طوالًا هكذا، حتى جدِّي زكي ذاته لم يكن بهذا الطول.

كان عمي طِلَّسْمًا أمام عيني، وإلى الآن لا أعرف إن كان يحبني أم يكرهني..

أذكر أنه رَبَّتَ على رأسي مرة، كنت جالسًا وقتها على عتبة البَوَّابة الخارجيَّة ألعب بمسبحة الجد، وأول ما رفعتُ رأسي له تركني ومضى. وأمس كان يوزع قروشًا على أولاده، نادى عليَّ ليعطيني واحدًا منها، مددتُ يدي إليه بحذرٍ ونظر إليَّ هو الآخر باستغراب، رفع حاجبيه وحدَّق فيَّ طويلًا وهو يعطيني القرش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

أول ما يفرغ جدِّي من صلاة العصر تبدأ طقوس جلسته المُفضَّلة..

يحمل إمام حصيرة ومسندين من القطن على كتفه، ويهرول أمامنا إلى الجدار الغربي للبيت، يكون الظلُّ ساعتها قد غطى أعواد الزرع التي في مواجهتنا وزحف إلى منتصف الجدار، وعن بُعْدٍ كانت أشجار الكافور تتكاثف حول التُّرعَة التي في مدخل البلدة، وغلالات الدخان الأسود المتصاعدة من وابور الطحين بدأت في الخفوت، والحمير الرابضة أمامها لا تزيد على أربعة أو خمسة على أكثر تقدير وتتأهَّب للعودة مُحمَّلةً بأجولة الدقيق.

يترك جدِّي جسده طيِّعًا في يد إمام، حيث يمسك به من كتفه ويهبط به خفيفًا خفيفًا حتى يُجلسه في منتصف الحصيرة واضعًا مسندًا خلف ظهره ومسندًا آخر ليَّكِئ عليه بمرفقه، ويبدأ هو برَشِّ الماء في الوسعاية التي تفصلنا عن أعواد الزرع.

يرمقني جدِّي لحظة، تُسعدني هذه الرمقة وما إن أشرع في مبادلته النظر أو التزحزح على الحصيرة والاقتراب منه حتى ينشغل عني بفرد ساقيه، ثم يُخرج المسبحة من سيَّالته ويخلع العمامة ويضعها إلى جانبه.

كنت في الأول أستغرب وجهه عندما أرى رأسه العاري حليقًا بالموسى وليس فيه شعرةٌ واحدة، ينتابني شعورٌ بأنه فقد شيئًا من وقاره، وأنظر برهبةٍ إلى هذه العمامة السحريَّة التي تقلب وجهه من حالٍ إلى حال، وكَمْ تمنيتُ أيامها أن أغافله وأضعُها على رأسي ولو لمرةٍ واحدة.

لا يطمئنُّ الجدُّ أبدًا ودلو الماء في يد إمام..

يظل يلاحقه بعينيه، وبحركةٍ لا واعية كان يتحسَّسُ العمامة كلما اقترب منه إمام جاذبًا إيَّاها نحوه، وإذا طالها الماء والذي غالبًا ما يكون مغموسًا بالطين، تنقلب سحنة جدِّي ويقذفه بأقرب شيء ليده، فردة مَدَاس، كوب فارغ، غطاء قُلَّة، أو بالقلة نفسها وهو يصيح بأعلى صوته:

- مش تفتَّح يا أعمى العين!

وساعات كان يجذب عصاه ويقوم ربع قومة، فيلقي إمام بدلو الماء ويطير من أمامه. كنت أخاف أنا الآخر وأمدُّ قدمي باحثًا عن الصندل، فيوقفني جدِّي بضغطةٍ خفيفةٍ من يده. وعلى مرمى حجرٍ منَّا كان يربضُ كلبٌ عجوزٌ مغمضَ العينين ونائمًا طول الوقت، يصحو على الجلبة متلفتًا حوله، وعندما يتبين

الأمر يهبَّ على ساقيه الأماميتين ويبدأ في النَّباح تجاه إمام مجاملةً لجدِّي، لا يسكت أبدًا إلا لما يشير له جدِّي بيده قائلًا بصوتٍ ناعمٍ وفيه شيءٌ من النغم:

- خلاص خلاص يا خرشوف.

كان هذا هو اسمه وتربَّى في كنف جدِّي ولا يسمع إلَّا كلامه، وبحكم العِشْرَة فهمَ كُلٌّ منهما طباع الآخر ونشأت بينهما لغةٌ أشبهُ بلغة الشَّفْرَة.

سَرْعانَ ما كانت تنفضُّ المشاجرة، ويعود إمام ثانيةً بخطواتٍ حذرةٍ وعيناه على عصا جدِّي. يُقعِي على طرف الحصيرة وأمامه صينية نحاسية بأكوابها وبرَّاد وبرطمان سكر وباكو شاي ماركة (الشيخ الشَّرِّيب)، ووابور ماركة (بريموس) لم أرَ له مثيلًا من قبل. يقولون إنه الشيء الباقي من جهاز جدَّتي، ولما اكتشف جدِّي وجوده بين الكراكيب التي في غرفة الخزين أصرَّ على إصلاحه واستبقاه لنفسه.

ينحني إمام على الوابور ويغلق محبس الغاز ثم يدفع كبَّاس الهواء - بسرعة وعدة مرات - إلى الداخل، حتى ينطلق سرسوب رفيع من الجاز من ثقب بالفُوَّهة، فيشعل هو عود الثقاب ويقربه منه وشيئًا فشيئًا تشتد النار.

لم تكن هذه المسألة تمضي بسهولة على إمام، فالمسكين كان عرقه يسيل ويجد مشقةً في إشعال هذا الوابور العجوز والذي كان يكبُر عمي إبراهيم في السن بأربع سنوات، غير أنه لم يكن يصرح بذلك خوفًا من العصا الممدودة على حجر جدِّي؛ خاصةً وأن الجد كان يتابعه ويتهمه دائمًا بأنه هو المخطئ وليس الوابور.

يلتقط إمام أنفاسه أخيرًا بعدما يطمئنُّ إلى أن الوابور يفحُّ فحيحًا قويًّا متواصلًا، والبخار يتسرب في أزيزٍ خافتٍ من فُوَّهَة برَّاد الشاي الذي يعلوه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن المكان الذي نجلس فيه في مسار الريح أو تأتيه نسمةُ هواء، وكان جدِّي من وقت لآخر يمدد ساقيه ويُخرج منديله يمسح به رأسه ويجفف حبَّات العرق التي تعلق بجفنيه أو تسيل خلف أذُنه. وعندما كان يميل فجأةً إلى الأمام ويمسك بإصبعيه قَبَّة الجلباب من الخلف ويظل يهزها ووجهه متأففٌ، أعرف أن قطرة عرق تتدحرج على ظهره. ومع هذا لم يغير جلسته، يقول: إنها بعيدة عن غبار الطريق وعتبة الباب حيث الداخل والخارج.

وكانت تهبُّ علينا فجأةً لفحةُ هواءٍ شديدة تهتز لها أوراق شجرة التوت التي بحذائنا هزَّاتٍ سريعة، وتصدُر عنها خشخشة خافتة. يفقد جدِّي ساعتها زمام السيطرة على جلبابه، يتطاير منه إلى أعلى، وكنت أراه عاريًا حتى أول

الفخذين وأندهش من رُكبته اليُمنى التي تبدو مُتورِّمة قليلًا قياسًا على الركبة اليُسرى. ويجتاحني لحظتها إحساسٌ بأنه طيب ويفرح - مثلي - إذا الهواء تدفق بين ثنايا ملابسه ونفخ جلبابه، وأظل أتابعه وهو مُرنَّخٍ برأسه إلى الوراء وظِلُّ ابتسامةٍ على وجهه، غير أنه أول ما يلحظ نظراتي يُقطِّب جبينه ويغطي ساقيه واضعًا ذيل الجلباب أسفل كعبيه.

في مرةٍ وبإيعازٍ من أمي، سألتُه زيارة قبر أبي.

هزَّ رأسه دون أن يلتفت إليَّ، ثم أسند ذقنه على راحة يده وشرد بعيدًا.

وأدركنا إمام قائلًا بصوتٍ خافت:

- وحِّد الله يابا الحاج.

وأنا أختلس النظر له متابعًا الرعشة الخفيفة التي حلَّت فجأةً على جفنه الأيسر، ولما استمر في إطراقه أصابني بعضُ الارتباك واحترتُ في الذي أفعله. وجدتُ نفسي أتزحزح بمُؤخَّرتي بضع بوصاتٍ بعيدًا عنه، مكثتُ أتأمل إوَزَّةً عرجاء تمضي بتثاقُلٍ أمامنا وجمع من إوز صغير لا يكسوه ريش يتعثر في خطواته للحاق بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تنفكَّ عقدةُ الجلسة، إلا لما تهلَّل وجه جدِّي لرجلين من أصحابه قَدِما علينا. كانا في مثل عمره، جلس أحدهما إلى جواري وتربَّع الآخر قُبَالَةَ جدِّي بعد أن طوى مداسه ووضعه أسفل منه.

الرجل الذي جلس إلى جانبي كان أسمر اللون وبلا أسنان تقريبًا، وأول ما توسَّد الأرض أخرج من سيَّالته حُقَّ دخانٍ ماركة (أبو غزالة) ودفترًا صغيرًا مليئًا بأوراق البَفْرة، سحب ورقة منها وشدَّبها بأسنانه، وبدأ في حشوها بالتبغ. والآخر كان سمينًا بدرجة ملفتة ووجهه مستديرًا كرغيف الخبز، ظل يحدق في صاحبه حتى فرغ من مَهمَّته، ثم أخرج علبة سجائر ماركة (هوليوود) وأشعل الاثنان سيجارتيهما معًا وجدِّي يبعد عنه وعني الدخان براحةِ يدهِ قدرَ ما يستطيع.

وبدأ الرجلان في الحديث؛ خاصةً الرجل الأسمر الذي بجواري. لم يكفَّ عن الكلام أو الإشارة بيده، ولم أسلَمْ بالطبع من مِرْفَقِه الذي إن لم يخبطني في رأسي فهو لا محالةَ يصطدم بكتفي.

كنت أتابعُ الحديث بشغفٍ ومستمتعًا باللهجة الريفيَّة التي كانا يتحدثان بها، إلَّا أنَّ الرجل الأسمر كان يقول أحيانًا كلامًا لا أفهمه ويُتبع ذلك بغمزةٍ من عينه اليسرى وهو يقول لجدِّي:

- فاكر يا عمِّنا لما... فاكر وللا أفكرك...

يُرخي جدِّي رأسه إلى الوراء، ويجيبه مُتبسِّمًا:

- إلا فاكر، فاكر وفاكر يا أبو رزق..

ويدخل الرجل السمين في الحديث:

- وللا ساعة...

فيقول جدِّي مستمتعًا:

- وهيه دي تتنسي..

وعندما استبدَّت النشوةُ بالرجل الأسمر، أخذ يَنْغُز جدِّي - مازحًا - في بطنه بخيزرانةٍ صغيرةٍ كانت في حِجْره، فتغيَّر وجهُ الجد وهمس له دون أن ينظر إليَّ:

- الولد!

وضغط بأسنانه على شفته السُّفلَى منبهًا أو ربما محذرًا، وعندها انتبه الرجل إلى وجودي، تحسَّس رأسي بيده وسألني:

- إنت ابن مين يا شاطر؟

ولما لم أُجِبْ، أردف:

- إنت ابن إبراهيم؟

والتفت إلى جدِّي ضاحكًا:

- وللا يكونش ابنك يا أبو محمود وأنا مَدْرَاش، قول الصراحة، قول قول..

لكزه الرجلُ الآخر في جنبه وأسرَّ في أذنه بكلمتين، تمتم على أثرهما:

- آه.. ابن الست اليهودية. يوه. يوه. يوه. هو ده ابن الولَّية إيَّاها؟

أخذتني رجفةٌ أو كأني نفرت منه ومما يقول وصمت الجميع، وعن قربٍ كنت أشعرُ بحركةٍ خفيفةٍ بين أحواض الزرع. ظللت أتابعُها، وكانت غبشة المغرب تلوحُ في الأفقِ وقرصُ الشمسِ على وشك المغيب.

أعطاني جدِّي قرشًا وطلب مني أن أذهب وألعب مع الأولاد، كانوا في الناحية الأخرى من البيت، كنت أسيرُ نحوهم ببطءٍ وأُذُنِي لا تزال معه هو وصاحبيه،

سمعته يوبِّخ هذا الرجل على قوله "ابن اليهودَّية"، وقال له بشيءٍ من الغضب:

- عيب كده يا أبو رزق! آديك كسفت الولد، وبعدين دا ابني وشايل إسمي.

وتوقف الأولاد عن اللعب متابعين قدومي بنظراتٍ لا تريح، فغيَّرتُ طريقي وانحرفتُ بعيدًا عنهم متجهًا إلى غرفتنا.

قلت لأمي عمَّا حدث من هذا الرجل، فقالت لي:

- دا رجل جاهل واليهودية ضُفْرها برقبته ورقبة اللي خلِّفوه!

وعن الأولاد الذين توقَّفُوا عن اللَّعِب ونظروا لي بازدراءٍ، قالت:

- دُول لا أهلك ولا أصحابك، أصحابك همَّا راشيل بنت خالتك وديڤيد ابن الأستاذ سمعان وماريكا وكوكي ولاد تانت حنَّة!

- وحسن؟!

- حسن! حسن مين؟

- حسن جارنا إنتي نسيتيه!

هزَّت رأسها قائلةً بصوت لا يكاد يُسمع:

- وحسن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

من طلعةِ الشمس وأنا وأمي على أُهْبَة الاستعداد..

أنا بالقميص والبنطال القصير والحذاء أبو إبزيم، وأمي تلتفُّ بشالٍ غامقٍ على الفستان وترتدي شرابًا وحذاءً أسودين.

كُنَّا جالسين على حرف السرير في انتظار أيَّةِ إشارةٍ تأتي من الدهليز، وأول ما سمعنا جدِّي يسعلُ بجوار شباكنا فهمنا أنه ينادي علينا.

خرجنا فوجدناه على عتبة البَوَّابة الخارجيَّة مرتكزًا على عصاه، ويتابعُ إمام وهو يضعُ البردعة القطيفة على ظهر البغلة المُخصَّصة لمشاويره الخاصة، وخرشوف يحوم حوله بنشاطٍ على غير عادته.

وسمعنا صريرًا خافتًا ينبعثُ من مقبضِ نافذةِ زوجةِ أبي، وإذا به ينفرج قليلًا وتطلُّ منه بثياب النوم. الشر كان باديًا على وجهها فتحاشت أمي النظر إليها، أخذت موقعًا بعيدًا عنها مستندةً بيدها على حلق أحد الأبواب وأمسكت بمعصمي باليد الأخرى. استدار جدِّي نحونا فأغلقت زوجةُ أبي ضلفة شُباكها المُوارَب في لمح البصر وتأهَّبنا أنا وأمي، فرمقنا بنظرةٍ خاطفةٍ دون أن يتكلم. وشددتُ أنا معصمي من قبضة أمي واقتربت منه، وهي تنهرني بصوتٍ مكتوم. لاحظَنا الجد ونظر إليَّ وابتسامةٌ خفيفةٌ تلوحُ على شفتيه، ولما دفعتني أمي تجاهه حملني إلى صدره وغمرت أنفاسه كل وجهي. كان حاجباه كثيفين والشَّعْرُ الأبيض فيهما يغلب على الأسود، وأطلتُ أنا النظر في النَّدْبة التي أسفل عنقه، وتبدو أكثر وضوحًا كلما انزلقت قَبَّة الجلباب إلى أسفل، تحسَّستُها بأصابعي وهو يتأملني بعينيه. كانت هذه هي المرة الأولى التي أقتربُ فيها منه على هذا النحو، وعندما أمسكتُ بزِرِّ عمامته لم يغضب. أمي هي التي ماتت في جلدها، عضت على شفتها السفلى محذرةً وأسرعت لتأخذني؛ لكنه أشاح لها بيده ضاحكًا وأناخ رأسه لي لأفعل به ما أشاء.

نظر بعدها صوبَ غرفةِ نومه وتنحنح مرتين، كان واضحًا أنها إشارة لجدَّتي؛ إذ سَرْعَان ما أتى صوتها من الداخل بأنها قادمةٌ على الفور.

قال لأمي:

- مش كنتي تلبسي حاجة فلَّاحي يا أم جلال؟

أحنت رأسها ولم تُجِبْ، وكانت جدَّتي قد أتت، أومأتْ له بأن يغضَّ الطرف عن هذا الأمر فسكت.

لمحت جدَّتي زوجةَ أبي وهي تطلّ علينا من فتحة بابها، فقالت لها بدهشة:

- إنتي لسَّه بجلَّابيَّة النوم يا بنتي؟!

فردت بصوتٍ متكاسل:

- معلش يا خالة أصل راسي وجعاني.

فبدا الغضب على وجه جدَّتي:

- يا بنتي دا إنتي من دقيقة واحدة كنتي كويسة، إيه يابِت كُهْن النسوان ده! يللا يللا البسي علشان تيجي معانا.

فخرجت علينا تقول بصوتٍ متوتر:

- آجي فين يا خالة! آجي فين! دا حتى الشرع بيحرَّم على الكَفَرة مِرْوَاح تُرَب المسلمين، وعايزاني آجي..

تدلَّت أمي برأسها نحو الأرض، وصاحت جدَّتي في زوجةِ أبي:

- جرى إيه يا وسخة، هو ده اللي اتفقنا عليه، طب امشي انجرِّي على مطرحك ولَّيه كلام معاكي بعدين يا بنت المرزوقي!

ولما تنحنح جدِّي بصوتٍ تحذيريٍّ سكت الجميع، واتجه هو إلى دابَّته.

لم يكن امتطاء جدِّي لظهر البغلة أمرًا سهلًا..

فشل إمام مرتين في إنجاز هذه المهمة، وجدِّي يلقي اللوم عليه لأنه لم يجهز نفرًا أو نفرين معه، وزاد خرشوف الجوَّ توترًا بنُباحه المتواصل، وأتت كلابٌ أخرى تنبح على نُباحه فزامَ في وجهها على اعتبار أنها مسألة داخليَّة تخصُّه هو ولا تخصهم. أنقذنا أحدُ المارَّة، أمسك جدِّي من أسفل ظهره وإمام من كتفه ودفعاه معًا، غير أن البغلة تحركت إلى الإمام ولولا سترُ اللهِ لسقط الجدُّ من فوقها. جرى إمام هنا وهناك وزعيق جدِّي من خلفه يترامى لمسافاتٍ بعيدة، وخرشوف - الذي فهم المشكلة - يعدو في أثره. أتيا أخيرًا برجلٍ كفحلِ الجاموس وصبيٍّ من حارة مجاورة، أمسك الصبيُّ بطوقٍ في رقبة البغلة والتفَّ الثلاثة حول جدِّي، وما هي إلا دفعة فأخرى حتى استوى في جلسته، ولما فرد الجد الشمسيَّة تحركت البغلةُ من تلقاء نفسها.

سرنا في رَهْطٍ صغير، جدِّي على بغلته وإمام يدُه على رقبتها، وأنا وأمي وجدَّتي على الأقدام وراءهما. وعندما لمح جدِّي خرشوف يسير بيننا أمره

بالعودة فلوى وجهه وزامَ بامتعاض، ثم رجع وتمدَّد أمام باب البيت وعيناهُ ترمقاننا إلى أن ابتعدنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقابر في الطرف الآخر من البلدة، ولم يكن من سبيلٍ أمامنا إلا المُضِيُّ في بعض الشوارع والحارات.

الجدُّ في المقدمة يلقي السلام بصوتٍ جَهوريّ، والرجال المُتحلِّقون بعتباتِ الجوامع وعلى النواصي وأمام الدكاكين يردون السلام ويُفسحون له الطريق، لكن بالهم لم يكن معه، كان مشغولًا بالقادمين خلفه، فعيونهم كانت تتلقانا عن بُعدٍ ويبدءُون في الوشوشة، وأول ما نمرُّ بمحاذاتهم يصمتون ثم يعودون إلى الكلام بعد أن نمضي. ومن خَصَاصِ وفُرَج الشبابيك كانت تلوح وتختفي وجوهٌ وخيالاتٌ لنسوةٍ وبناتٍ كبار، بعضهن كان يتلفَّت وراءه وينادي على أخريات كي يسرعن ويروننا، وتزدادُ الوجوه التي تطلُّ علينا وتعلو أصواتهن ثم تخمد مرة واحدة. العجائز هنِ اللائي كُنَّ يرمقننا في صمتٍ ودون أن تصدُر عنهنَّ أيَّة حركة، مُحنَّكات فعلًا في فنون الرَّصد وتَنسُّم الأخبار! وعندما نبَّهت أمي إلى صبيتين تشيران نحونا وهما جالستان فوق سطح أحد البيوت، لكزتني في بطني كي أسكت.

شاع خبر مسيرتنا في كل الأرجاء، ولم يَعُدْ هناك - لا كبير ولا صغير - إلا ويتابعنا، حتى الكلاب التي تستلقي في الطرقات كانت ترفع رءُوسها نحونا هي الأخرى، منها من كان يهبُّ على قوائمه الأماميَّة وينبحُ في وجوهنا إلى أن نبتعد عنه، ومنها من كان يكتفي بالنظر إلينا نظرةً عابرةً ويعود إلى غفوته.

والغريب أن جدِّي اختفى من أمامنا ولم نعد نراه، شغلني هذا الأمر وكنتُ بعد كُلِّ انحناءَةٍ لشارعٍ أو حارة أمدُّ بصري باحثًا عنه ولا فائدة، لم أجد حلًّا إلَّا أنَّ أقترح على أمي أنْ أُسرع أمامهما لأتقصَّى خبره، فلكمتني في ظهري قائلةً:

- آهو ده اللي ناقص!

وشدَّدتْ قبضتها على معصمي، وأنا أحاول الفِكَاك منها بلا جدوى.

تدخلت جدَّتي قائلة:

- بالراحة يا بنتي متخافيش عليه.

وأردفَتْ موجهةً الحديث إليَّ:

- أصل يا بْنِي جدك بيستحي يمشي مع الستَّات، سِلْو بلدنا كده.

غير أني لم أقتنع، وظللتُ أبحث عنه بعينيَّ لعلَي ألتقطه عن بُعد، ولا أعرف لماذا خطر على بالي لحظتها الكلامُ الذي قاله جدِّي لأمي عن نجيب الريحاني، وخفتُ أن يموت جدِّي لأبي فجأةً مثلما مات الريحاني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن سرنا في شارعين وأربع حارات لاحت لنا المقابرُ عن بُعد فاكتسانا كلنا الوجوم، وأنا بالذات دهمني شعورٌ غريبٌ لم آلفَهُ من قبل، وبدوتُ وكأني مَسوقٌ إلى دنيا غير الدنيا التي أحياها وأراها كل يوم. دنيا أخافها منذ كنت صغيرًا، وأعرف أن الأهل والأحبَّة إذا دخلوها لا يرجعون. وبدأت شواهدُ القبور تزداد وضوحًا وتكبر أمام عينيَّ كلما أمعنَّا في السير، وأنا أتطلَّعُ إليها بشغفٍ تشوبه الرهبة. وطفرت دمعةٌ من عين أمي، مسحتها بكفِّها وانحنت برأسها فبدا عنقها وكأنما ازداد نحولًا، وفترَتْ همَّة يديها فأصبحت تروحُ وتجيءُ على نحوٍ أبطأ، وجدَّتي وجهها ساكن والاثنتان لا تتكلمان..

كنت لا أزال صغيرًا ومزاجي سريع التبدُّل؛ فخرجتُ مما أنا فيه لما رأيت جمعًا من الأولاد في مثل سني يصطفُّون في طابورٍ على حافَّة الطريق، ثم بدءُوا في رفع جلابيبهم في وقتٍ واحد وأخذوا في التَبوُّل كأنهم داخلون في سباق. جذبني ما يفعلون وطلبت من أمي الانضمام إليهم فأخذتُ صفعةً على قفاي، وسألتها عن المعيز والخِرَاف والحَمِير وكل ما أصادفه في الطريق؛ خاصةً تلك المرأة التي كانت تسير بحذائنا وأول ما تجد أقراصَ الجِلَّةِ الطريَّة نفَّاذة الرائحة التي تتغوَّطُها الجواميس، تقوم بالتقاطها بفرحةٍ ووضعها في طِسْتٍ على رأسها. وأمي تلكُمُني وتشدُني من أُذُنِي، وجدَّتي تتابعنا في صمتٍ وقد بدا عليها الإعياءُ وأمي تُبطئ خطواتها مراعاةً لها، وعندما أشرفنا على قبر أبي وجدنا الجد جالسًا على مقعدٍ من الجريد.

كان مُطْرقًا ووجهُه يموج بحزنٍ عميق، حتى إنه لم يشعر بوصولنا، وإمام في يده عصًا ويقف بالمرصاد لأي كلبٍ أو قطةٍ تفكر في الاقتراب منه. وكان الذباب يملأ المكان.. ذباب غريب وحجمُه أكبرُ بكثيرٍ من الذباب الذي نراه في البيوت، لم يسلَم منه الجد، كان يحوم حول وجهه وهو يهشُّه بكفٍّ يده بطريقةٍ آليَّةٍ وعيناه شبه مغمضتين.

وعلى حرف الغيط المجاور كان حمارٌ يقضم الحشائش النابتة، ولما اقترب منه حمارٌ آخر وفي عينيه نظرات تَحدٍّ، زفر الأول من خيشومه ونقر نقرتين بساقه في الأرض مُتأهِّبًا للعراك، وما هي إلا لحظاتٌ حتى أخذا يتبادلان الركلات. تأفَّف الجد منهما فمال على حجرٍ وقذفهما به، وأسرع إمام نحوهما بعصًا فجريا وراء بعضهما يدهسان أحواض الزرع.

وتربَّعت أمي وجدَّتي قُبالةَ المقبرة، كما فوجئنا بقدوم أحد المُقرئين رغم أن اليوم ليس يومَ زيارةٍ كما قالوا. أشار له جدِّي فجلس على مسافةٍ منه يتلو القرآن مُبدِّدًا السكون الذي حولنا.. كان وَقْعُ الكلماتِ طريًّا على قلبي وانساب في نفسي مع الإيقاع الذي كنتُ أسمعُه من الشيخ الدمنهوري، وأنا ذاهبٌ لشراء الفول كل صباح، ووجدتُ نفسي شاردًا وأقبضُ على حفنةٍ من الرمل المفروش أمام المقبرة ثم أتركه ينسابُ من بين أصابعي.

أعيدُ الأمرَ مرةً بعد مرة وشيءٌ يجثو على قلبي، وكأن الدنيا ليس فيها نسمةُ هواءٍ واحدة. وانتبه الجدُّ لصوت المقرئ، سند ذقنه على عصاه وترك عيناه تجوسان في القبور الممتدة أمامه، وعلى بُعد خطواتٍ منه كانت البغلةُ مُمدَّدةً على جنبها بلا حراك وعيناها مفتوحتان. وكانت أمي تتلو أدعيةً بصوتٍ خفيض، لم تتوقف إلا لما همست لها جدَّتي بأنه لا كلام أثناء قراءة القرآن.

كان في أعلى المقبرة لوحةٌ رخاميَّةٌ مكتوبٌ عليها "إِنَّ الْـمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ.. صدق الله العظيم"، وأسفل منها عبارة تقول: "هذا قبر محمود عبدالحميد المنشاوي.. استُشهد أثناء العدوان الثلاثي يوم 3 نوفمبر سنة 1956..". تأملتها أمي ووجهُها يكسوه تعبيرٌ حزينٌ وأزالت بطرف شالها الغبار الذي يغطيها، وجرفت جدَّتي بيدها طابورًا من الهَوامِ كان متجهًا صوبَ فُوَّهَة المقبرة.

ولما انتصب الجدُّ واقفًا، كان هذا أمرًا بالعودة..

سألتَهُ جدَّتي البقاءَ قليلًا فلم يذعن لها واتجه صوبَ البغلة، وإمام يهرول أمامه متلفِّتًا حوله عمَّن يغيثه ويساعده في الصعود بجدِّي على ظهرها. ولحظتها بدا وجه جدَّتي مُصفَّرًا وعلى جبهتها عرقٌ خفيف، وكأنما شاخت عمَّا رأيتها في الطريق. وأخذت تُنَهنِه بصوتٍ مكتومٍ وتواري وجهها في طرحتها السوداء، وأمي تمسك بذراعها وعيناها هي الأخرى تطفران بالدموع.

وفي طريق العودة آثرتُ الانفصالَ عن أمي وجدَّتي واللحاق بمقدمة الرَّكْب، فلم يمانع جدِّي وأمر بوضعي خلفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن ننام قالت لي أمي: إننا سوف نسافر في الصباح.

طلبت منها أن نبقى فاندهشَتْ، وقالت: ما عادت بنا حاجةٌ للبقاء، قبرُ أبيك وزرناه، جدَّك ورأيناه، والمصاريف وعدتنا بها الحاجَّة أم محمود، فلماذا البقاء؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

15

وحانت لحظة السفر..

كان الجدُّ حاسرَ الرأسِ ومسترخيًا على الدِّكَّة، وعمي إبراهيم يرتدي فانلةً داخليَّةٍ بأكمامٍ طويلة وسروالًا من القطن يلتصق باللحم، وهو الآخر شبه مُسْترخٍ على الدكة المقابلة يحتسي الشاي مع جدِّي، ويتكلمان عن الأنفار والبطيخ والشمَّام والكوسة التي لم يأتِ من ورائها أبيض ولا أسود هذا العام.

هشَّ جدِّي في وجهي عندما رآني قادمًا نحوه، حملني وأجلسني إلى جواره وانهمك في ضبط ملابسي، وأحكم ربط إبزيم الحذاء، ثم قال وهو يُربِّتُ على شعري:

- خلاص يا جلال، نويت على السفر؟

وأخرج قطعةَ حلوى من سيَّالته، وضعها في كفِّي وأخذ يجري بأنامله على عنقي مرةً ببطءٍ ومرةً أخرى بسرعة، وأنا أميلُ وأتلوَّى بجسدي من نشوة الدغدغة، ولما سألته الكفَّ عن ذلك قال ضاحكًا:

- خلاص هسكُت بس على شرط إنك تقعد معايا، تقعد معايا هنا على طُول، تسيب أمك تمشي لوحدها وأنا أفصِّلك جلابيَّة بلدي وأخدك الغيط معايا.

رغم صِغَر سِنِّي فهمتُ أنه يمزح، فعدتُ برأسي إلى الوراء وهززتُه رافضًا، وهو يضيف بنغمةٍ مُغْوِيَة:

- دا أنا هركِّبك البغلة كل يوم.

أعاود هز رأسي.

- وأخليك تلعب مع خرشوف.

وانطلق عمي:

- أي والله صحيح يابا، مَتخلِّيه يقعد معانا.

لم تكن سحنةُ العَمِّ تشي بأنه يمزح مثل جدِّي، فأخذتني رجفةٌ مما يقول والتفَتُّ نحو الجد. فضغط براحته على صدري مُطمئِنًا، ثم رفع عينيه نحو عمِّي كي يصمت أو يقول كلامًا يدخل العقل.

ويبدو أن العمَّ لم يفهم، اعتدل مستكملًا حديثه وسحنتُه الجادَّة على حالها:

- آه يتربَّى مع العيال، معلوم يتربى مع العيال.

نظر الجد إليه ثانيةً، بدا وكأنه يريد منه الكفَّ عن إخافتي إلا أنه عاد وأطرق، العم هو الذي استمر:

- كده برضه أحسن، مش بيقولوا إبننا يبقى يتربَّى معانا، آه يتربى معانا.. ولَّا انت هتسيبه يابا يرجع مع الولَّيَّة العِكْرَة دي اللي احنا لا عارفين لها أصل ولا فصل؟

تغيَّر وجه جدِّي وزفر بصوتٍ مسموع، وكانت أمي قد أتت وفي يدها حقيبةُ السفر وخلفها جدَّتي.

وخيَّم السكون..

سكنت الحياةُ في الغرفِ الداخليَّةِ تمامًا، اعتصمت كُلُّ جماعةٍ بشباكها تتابعنا من ورائه، ولم يكن بمقدوري أنا أو أي واحد من الجالسين رؤية شعرة واحدة أو سماع ولو همسةٍ تُنبئ عنهن، فهُنَّ خطيراتٌ في هذه المسائل ولا يغلبهن أحد.

أشار جدِّي لأمي كي تجلس قُبَالَتهُ، وتحلَّقت كل الأبصار به.

أمسك بلفافة يضعها إلى جانبه وأعطاها لأمي، طلب منها أن تفتحها وتحصي ما فيها، وعندما توانت أعاد عليها القول بنبرة آمرة.

أوراقٌ من فئة الجنيهِ والخمسين قرشًا وأرباع الجنيه والعشرة قروش وورقتان من فئة الخمس جنيهات، عدَّتها مرتين ونظرت إلى جدِّي فأشار لها كي تعيدَ العَدَّ مرة ثالثة ففعلت وأحاطت النقود بأستك رفيع أخرجته من حقيبة يدها وقالت لجدِّي:

- دُول ميت جنيه يا عمِّي.

اندهش العم إبراهيم من قولها كلمة (عمي)..

التفتَ إليها باستغرابٍ ثم نحو جدِّي، دار بعدها نصفَ دورةٍ ناحية جدَّتي مُقلِّبًا كفيه، فتقلص وجه الجدة ولمحتُها ترفعُ إصبعَ السبَّابةِ إلى شفتها كي تُسكته.

قال جدِّي مخاطبًا أمي:

- يكفُّوكم كام شهر؟

أجابت وحُمرةٌ تكتسي وجهها:

- كتَّر خيرك يا عمي، مستورة الحمد لله، والبابا مش مقصر معايا.

- دا فرض عليَّه، والولد ده - وهو يُربِّتُ على كتفي- مسئول مني، يعني أنا اللي أصرف عليه مش حد تاني.

وأخذ أنفاسه:

- وإنتي كمان طول ما بتربِّيه وشايفه أموره بما يُرضي الله، أكلك وشربك وكسوتك عليَّه، كل اللي يلزمك.

ومال على المنشَّة هشَّ بها ذبابةً تحوم حول وجهي، ثم هرش رأسه وقال بصوتٍ خافتٍ أشبه بالهمس:

- هو انتي يا بنتي لسَّه؟

- قصدك يا عمي لسه على ديني، أيوه لسه، أنا ناويه خلاص بس لسه ما جاش النصيب، وكنت اتفقت...

وواتتها نوبةُ سُعال طويلة، أسرعت جدَّتي إليها بقُلَّة ماءٍ وأشار لها جدِّي بأن ترتاح ولا تتكلم، إلَّا أنَّها استمرت في الكلام وبدا صوتُها وكأنَّه متحشرجٌ:

- متخافش على جلال يا عمي، جلال مسلم وليَّه جارة اسمها أُمّ حسن جوزها فِقِي وبيصلِّي بالناس في الجامع، بتاخده عندها وبيفضل الفقي ده يعلمه الصَّلا والصوم ويحفَّضه القرآن.

وأردفت بحماس:

- دا حافض سور كتير.

والتفتت نحوي قائلةً:

- مش كده يا جلال؟

كنت أعرف أن أمي تكذب، غير أني جاريتها وقلت بصوت خافت:

- كده..

وأطرق جدِّي طويلا ثم قال:

- يا بنتي إنتي حرة في نفسك، أنا همي كله على جلال، لكن مش وقته الكلام ده، لو في العمر بقية حيبقى فيه كلام تاني، خلينا في دلوقتي تكفيكم الفلوس دي كام شهر؟

- يكفوا خمس تشهر ويمكن أكتر كمان.

- أنا بقول كده برضه..

ويبدو أن العمَّ لم يستوعب الأمر إلى الآن؛ إذ انفلت لسانُه فجأةً قاطعًا مسار الحديث:

- إسمعي يا أم جلال، أنا بقول بالسلامة إنتي والواد يقعد معانا يعيش ويتربَّى، دا أنا لسه بآخد وأدِّي في الكلام ده مع أبويا.

صمتت أمي وعيناها تستغيثان بالجد، الذي تنحنح وقال بصوتٍ رزين:

- مينفعش دلوقتي يا بْنِي، جلال لسه صغير ومتعلق بأمه، الأيام جايَّة ويجي الفرج ساعتها من عند ربنا.

ولحقت به أمي:

- وكمان هو هيدخل المدرسة السنة دي، خاله شمعون خلاص قدِّم له الورق.

دار عمي بكل جسده ناحيةَ أمي وقال بدهشةٍ:

- شمعون! شمعون مين؟!

استغربت أمي لدهشته:

- شمعون! شمعون أخويا الكبير!

فردَّ بصوتٍ عالٍ:

- إيه الأسامي دي يا ست إنتي؟ وشمعون ده بني آدم زيِّنا؟!

انكمشت أمي في فستانها، تقوَّس ظهرُها وتشابكت أصابعُ يدها بحركةٍ أعرفها عندما تكون مرتبكةً وبلا حيلة، ونَفِدَ صبرُ الجد فصاح في عمي:

- إيه الكلام ده يا إبراهيم، يا تقول حاجه عِدْلَة يا تسكت، إنت مالك إن كان اسمه شمعون ولَّا ميمون ولا حتى زرزور!

- أصل يابا.. أصل.. وبعدين هنسيب الواد في إيد الناس دول، دا حتى الشرع...

قاطعه جدِّي بصوتٍ عالٍ:

- لا أصل ولا فصل، وبعدين إنت قاعد كده ليه؟! إمشي البس جلابيَّة تسترك، منتش شايف مرات أخوك قاعدة معانا، مَتخلِّي عندك نظر وانت زَيّ الشحط كده!

بدا عمي مرتبكًا، ولما حاول الكلام صاح جدِّي بصوتٍ أعلى وأعلى:

- أيوه قوم قوم واتحشَّم كده.

فقام عمي يبرطم، والجد ما زال يصيحُ في ظهره:

- وقبل يا خويا ما تفتي في الشرع يبقى استفهم، روح الأول لسيدنا في الكُتَّاب واسأله، خلِّيه يقرِّيك القرآن من أول وجديد ويعرَّفك إن دُول من أهل الكتاب وليهم عندنا عهود.

لحقت جدَّتي بعمي ثم عادت ووجهها متعكر، ولا أدري إن كان ذلك بسبب غباوة العم إبراهيم أم لأن الجد أحرجه أمامنا؟

أظن أنه السبب الأول، لأنها أول ما جلست طبطبت على كتف أمي بما يشبهُ التَّرْضيَة والاعتذار، وفي اللحظة نفسها استطعت تمييز مواقع النسوة الرابضات خلف الشبابيك ويتلصَّصْنَ علينا، فاتَهُنَّ الحذَر – على ما يبدو – عندما شاهدن (الكَسْفَة) التي انكسفها العم إبراهيم ومن الغضب علت أصواتُهنَّ دون أن يقصِدن أو يشعُرن، فانكشفن لي ورأيتُ بعضَ وجوههن خطفًا من الممرات والفتحات التي بين ضلف الشبابيك، وسمعتهُنَّ يَلعَنَّنا أنا وأمي ويُؤكِّدن على أننا كفَرَة بالفعل، كفرة وليست لنا أية عهود مثلما يقول الجد، وأن العم إبراهيم لم يخطئ ومعه ألف حق!

وأحسبُ أن الجدَّ سمع هو الآخر غير أنه مرَّر الأمرَ ولم يعلق، ومعه حق.. لا يريد أن يقوم لهم بالعصا وتقع جناية في البيت أمامنا ثم نحكي نحن عنها في مصر عندما نعود، أكيد سوف يعاقب الجميع، لكن فيما بعد، بعد أن نسافر..

وخيَّم التوتُّر..

لبثنا خمس دقائق على الأقل في صمت، والجد والجدة يتفاديان النظر إلينا أنا وأمي، ونحن كذلك، إلى أن هدأ الجد قليلًا وقال لنا:

- تروحوا وترجعوا بالسلامة..

وهبَّ واقفًا وهو يقول لجدَّتي:

- آهو معاهم مصروف خمَس تُشْهُر، وكل هلَّة شهر بعد كده تفكَّريني أبعت لهم عشرين جنيه مع الواد إمام.

ثم هزَّ رأسه مُتمتِّمًا كلامه بصوتٍ مؤثر:

- تفكَّريني دا إيه! وهو أنا هنسى، ولما أموت...

قاطعتَهُ قائلةً:

- لك العمر الطويل يا أخويا.

وأخرجت من صدرها منديلًا في حجم الكف، تمسح به قطرةَ عرقٍ علقت برموشها.

وهو لا يزال مستمرًّا في الكلام:

- أمانه عليكي تبعتي المبلغ شهر بشهر بعد حياة عيني، وتوصّي بيه إبراهيم.

- حاضر حاضر يا أخويا، دا إبراهيم قلبه أبيض هو بس اللي حِمَقِي ومبيحسنش الكلام.

أجابها وعيناه شاردتان:

- عارف.. عارف..

وجاء إمام بسيارة الأجرة التي سوف تحملنا إلى مصر، صمَّم جدِّي على ألَّا تذهبَ امرأةٌ ابنه إلى موقفِ السياراتِ وتركب كما يركب الناس، وبدا إمام متأثرًا لسفرنا.

قال له الجَدُّ:

- لما يدخل الشتا تبقي تجيني أول كل شهر عربي وتاخد مني أمانة تروح تسلِّمها لأُمّ جلال في إيدها، عارف البيت؟

- أيوه عارفه..

- وعرفته ازاي يا بْنِ الرَّفَضي؟ هو أنت كده طول عمرك كدَّاب وغلباوي.

وكادت أن تنشبَ مشاجرةٌ من مشاجرات جدِّي مع إمام، لولا تدخُّل جدَّتي التي أشارت للجد منبهةً بأن الوقت ليس وقت مشاجرات، فرضخ وقال لإمام:

- تروح بالعربيَّة لحد باب البيت، تعرف اسم الشارع ونمرة البيت، وتكتبهم في ورقة تِسلِّمهالي أول ما ترجع.

- حاضر يابَا الحاج.

انحنت أمي على جدِّي تُقبِّل يده، ترددَ لحظةً ثم تركها لما تريد. وبعد أن رَبَّت على كتفها مدَّ يده لمصافحتها، كانت المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، فمنذ أن أتت لم تلمس يدُه يدَها وكلامُه معها كان من بعيدٍ لبعيد وبالحساب، ولو

كانت مكثتْ معه في البيت ولو لعدَّةِ أسابيع لكانا اقتربا من بعضهما البعض أكثر وأكثر..

ثم دفعتني أمي كي أقبِّلَ يدَ جدِّي..

لم أكتفِ بذلك، ارتميتُ عليه فحملني إلى أعلى، أحطتُ برقبته وهو يهتزُّ ضاحكًا ويُقبِّل كل موضعٍ في جسدي تصل إليه شفتاه، وفعلت الجدة ذلك وعيناها مغرورقتان بالدموع.

وأتى العم إبراهيم بجلبابِ مَكوِيٍّ وطاقيَّةٍ من الوَبَرِ مشدودةٍ كالسيف، سلَّم علينا بوجهٍ عابسٍ ثم حملني ووضعني في السيارة دون كلمة. ولما استوينا أنا وأمي على الأريكة الخلفيَّة، تحلَّقتْ نسوة البيت بعتبةِ الباب وحولهن الأولادُ والبنات، ظلوا يُحدِّقون فينا ولم نتبادل الكلام أو حتى أشار أحدٌ منَّا للآخر.

وانطلقت بنا السيَّارةُ وأنا أنظر إلى الدكاكين والعيال الذين يجرون بحذائنا، والإوَزّ والدَّجاج الذي يتسكَّع أمامنا غير عابئ بالسيارة ولا أبواقها.

وعندما عبرنا الجسر الذي يبدأ به طريق السفر، هِمْتُ بعينيَّ في الحقول التي تمتدُّ كثيفةً على الجانبين، والناس القادمين في مواجهتنا سيرًا على الأقدام أو يمتطون الحمير، وشيئًا فشيئًا زادت سرعة السيارة، فاسترخيتُ على المقعدِ أتطلَّعُ من النافذةِ لهاماتِ أشجارِ الكافورِ التي تَمرُقُ خطفًا إلى جوارنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

كان لجدِّي زكي موقفٌ من نقود جدِّي لأبي..

قرر ألَّا تساهم أمي منها بشيء في نفقاتِ البيت، قال: النقودُ التي أتت بها من عند أهل جلال تُحفظ له في دفتر التوفير فلا أحدَ يعلمُ ما تخبئه الأيام.

وعندما اقتربَ ميعادُ المدرسةِ ووفقًا للنظامِ الذي اتَّبعه جدِّي في مسألة كسوتي، اشترى لي قميصًا لو فردنا أكمامَه لتجاوزت أصابع يدي بقيراط أو قيراطين، وبنطالًا يدعو للكآبةِ وسَدَّة النِّفْس. المدرسة قالت: المقاسُ المضبوطُ هو الذي يتدلَّى إلى أسفلِ منتصفِ الفَخِذِ ببوصتين، وجدِّي رأى أن يكون بعد الرُّكْبةِ بثلاثِ بوصاتٍ حتى يُعمّر معي، ولا مانع من أن يكون متسعًا كبنطالِ البيچامة.

الحذاء هو الذي أفلت منه..

ففي المحلِّ أخذتُ أجرِّبُ المقاسات الكبيرة التي أشار بها، وما أشعر إلا بقدميَّ تتوهان في الحذاء وتفشلان في إحكام السيطرة عليه. وكنت من جانبي أزيدُ من عبثيَّة الموقف، بخطواتي المتأرجحة ويديَّ اللتيْن تستندان على كتف البائع وكأنما أنا طفلٌ صغيرٌ يتعلَّم المشي وعلى وشك السقوط بالفعل، وجدِّي يرمقني بنصف عين ويهزُّ رأسه.

مال على أُذُنِ أمي وأوعز لها بألَّا تبالي بالحركات التي أفعلها، فالحذاء الذي في قدمي -وكان يزيد على مقاسي بنمرتين- هو الأنسب، ولو أحسنتُ استخدامه سوف يعيش معي ثلاث سنوات، واقترح عليها حشرَ قطعةِ قماشٍ أو فردةِ (شراب) قديمة في مُقدَّمته حتى تثبت قدمي، إلَّا أنَّها لم تقتنع وبعد مناقشاتٍ وشدٍّ وجذبٍ بينهما أسْقط في يده وخرجت أنا بشيءٍ على مقاسي.

كانت أحذيتي مصدرَ صداعٍ دائم لجدِّي، فلأنها من النوع الرخيص كنت أعودُ إليه بعد شهرٍ وربما أسبوعين إماَّ بلا نعل أو مفتوحةً من البوز حتى المنتصف، ويدور هو على المحلات لإصلاحها. رجعتُ لهم مرةً بفردةٍ واحدةٍ بعد أن شُطتُ بالأخرى حجرًا في الشارع، فانخلعت رغمًا عني وسقطت في بالوعة المجاري. كادت أن تقتلني جدَّتي يومها؛ وضعَتْ قطعةَ نقودٍ معدنيَّةً في فتحةِ أُذُنِي وظلت تفرُكها وأنا أعوي بأعلى صوتي. وطلبت من أمي بغضب أن تذهب وتسحب ثمنَ حذاءٍ جديدٍ من دفتر التوفير الذي تضعُ به النقود التي أتينا بها من البلد، فجدِّي - وكما قالت - لن يشتري لي من حُرِّ ماله أيَّ شيء بعد ذلك، وأنا أعدو أمامها وأصيح:

- ملكيش دعوة إنتي، جدِّي حبيبي وهيشتري ليه كل حاجة يا بخيلة يا وحشة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومرَّتِ الأيامُ في المدرسة، وإن لم تَخْلُ من المُنغِّصات..

ففي يوم التفتيش الأسبوعي ونحن مُصْطفُّون في الطابور الصباحي، أول تلميذ تقع أعينهم عليه هو أنا. كنت ملفتًا للنظر بجسدي النحيل وهو يخبُّ في قميصٍ أشبه بقميص الأكتاف، وبنطالٍ يصلح لأحد المدرسين وليس لي، وجوربٍ رجاليٍّ تدلَّى من عند موضعِ الرُّكْبةِ وارتخى على مُقدِّمة الحذاء هو وحلقة الأستك البيضاء العريضة التي تحيط بفتحته.

يخرجونني بإشارةِ إصبعٍ مستفتحين بي طابور المذنبين، ثم يمرون بين الصفوف، عادةً ما يلحق بي الولد الذي يأتي بالكتب والكراسات في كيسٍ مُخدَّةٍ خاطتْهُ أُمُّه من الجانبين بخيطٍ أسود بارز، وولَّفت له يدين من الدوبارة، وجيبٍ خارجيٍّ من خرقة صوف قديمة ليضع فيها الأقلام والمسطرة وباقي أدوات المدرسة، حتى بدا الكيس في شكل حقيبة. ثم يُخرجون ما بين عشرة أو خمسة عشرة تلميذًا لأسباب متفرقة، مَزْق في البنطلون أو ياقة القميص، رائحة زفارة، الجورب فردة بلونٍ والثانية بلونٍ آخر، وإصابات الأحذية كان لها بالطبع النصيب الأكبر.

وكانت رائحةُ الفسيخ تشتد أحيانًا، حتى تزكُمَ أنف حضرة الناظر ويبدو عليه التأفُّف.

وتكون هذه إشارة لثلاثة مدرسين يقفون دائمًا إلى جانبه، ينطلقون وراء بعضهم مُشكِّلين فريقَ بحث. كان مصدر الرائحة مجهولًا في البداية حتى عنا نحن التلاميذ، والمدرسون يتشمَّمُوننا ويزغدوننا بأياديهم كي نعترف ويدورون بأعينهم في كل مكان، وكأنما هم في سباق مع بعضهم البعض للوصول إلى الجاني.

الأستاذ لهيطة مدرس الألعاب هو الأسرع..

يُطبِقُ بيديه على ابن عم جرجس الفسخاني الذي يقف على ناصية شارعنا، ليضبط معه فسيختين كل واحدة في نصف رغيف خبز بلدي، وبصلًا أخضر وثمرةَ طماطم حامضة في جيب المريلة الثاني. يرفعون يده عاليًا بوصفه "أوسخ تلميذ في المدرسة"، ويجرُّه مدرس الألعاب من أُذُنه ويُسلِّمه لحضرة الناظر.

لا يلمسه الناظر..

بتاتًا بتاتًا، يظل يدفعه بطرف عصاه حتى يقف في منتصف المربع الذي يتشكَّل منه الطابور كي نراه كلنا، وهنا يأتي دور عَمِّ طُلْبة الفراش، يُشمِّرُ كُمَّيْه الواسعين ويقتربُ بخطواتٍ متعجلةٍ ثم يحمله بيديه المدربتين، واضعًا المُؤخَّرة في وضعٍ مناسبٍ أمام حضرة الناظر، الذي ينفخ في راحةِ يدهِ ثم يعود خطوةً إلى الوراء ويهوي عليها بعصاه الخيزران عشر مرات، وقد يزيد إذا كان مزاجُه مُتعكِّرًا.

يلتفتون بعدها إلى الواقفين في طابور المذنبين، نمدُّ أيادينا بحكم العادة ونتلقَّى عدَّة ضرباتٍ بالعصا أو بمسطرة. لا تكون الضرباتُ موجعةً فبعد أن يفرغ الناظر تفترُ الحماسة دائمًا، حتى إنهم كانوا ينسوننا واقفين في بعض المرات ويستكملون الطابور ومراسم تحية العلَم، ونحن لا نصدق أننا نجونا.

كل هذا يهون، وعصا مدرس الحساب في الفصل تهون أيضًا..

المشكلة التي ليس لها حل، أن الأولاد في المدرسة عرفوا أن أمي يهوديَّة. كنت أنا وحسن وفهمي ابن الباشكاتب نَتكتَّمُ الأمرَ كأنه سِرٌّ حربيّ، لا يردُ على ألسنتنا أبدًا، لكن ما الذي أفعله لابن عم زكريا ترزي القمصان في العمارة المجاورة لنا، استشاط غضبًا عندما تدخلتُ مؤازرًا حسن في المشاجرة التي نشبت بينهما.

ركلني بقدمه وهو يقول بازدراء:

- إبعد إنت يا ْبنِ اليهودية!

شُلَّ تفكيري من المفاجأة وامتثلتُ على الفور دون أن أنطقَ بكلمة، وعندما انتشر الخبر في المدرسة أغلقت الدنيا كل أبوابها في وجهي. أنامُ مهمومًا وأستيقظُ مهمومًا، وأتلكَّأ منتحلًا كل يوم عذرًا حتى لا أذهبَ للمدرسة، وعندما تغضبُ مني أمي أحملُ حقيبتي وأجرُّ قدمي وأخرج.

تسألُني بعدها عن السبب فلا أجيب، ولما تملُّ من تكرار السؤال تتركني وتمضي وأظلُّ أحدِّق أنا فيها من الخلف.

وبدأت أتابعُها عندما تكون غافلةً عني..

أتأمَّلها وهي تغدو أمامي في البيت بعدما كنت لا أعرف هذا الشيء من قبل، وعندما تجلسُ في المساء على كنبة الصالة وتمسك بالكتاب المُقدَّس لا تغفلُ عنها عيناي، وكأني أترصَّدُها وهي تقترفُ شيئًا آثمًا.. وأرنو إليها وهي جالسةٌ أمام المرآة بغرفتنا.. لحركاتها.. ويديها وهي تُمشِّط شَعْرها.. أو إذا انثنت لتلتقط شيئًا سقط منها.. وأسحبُ بصري إذا التقى بعينيها على صفحة المرآة.. وعلى صِغَرِ سِنِّي بدأ قلبي يلوكُ في أشياء لا تُقال.. وتجتاحني كآبةٌ

يعقُبها إحساسٌ لا أدَري كُنْهَه، فأقوم وأحتضنُها بلا سبب، تتبسم لي ساعتها ابتسامةً عاتبةً ثم تأخذُني في أحضانها، وأنا جزءٌ مني يُضنيه الندم ويرتخي على أكتافها، وجزء لا يزال على حاله الأول.

وصرتُ أخافُ المدرسة..

فكأن ولدًا يتبعني خطوةً بخطوة، وعندما ألتفت ورائي لا أجده.. وأخشى أن يُغافلني أحدٌ ويشدّ بنطالي فيرى الأولاد عورتي، أو يُصوِّب لي أحدٌ منهم لَكْمةً وأنا غير منتبه، وبدأتُ أعملُ ألفَ حسابٍ للجالسين ورائي في الفصل، كنت أشعرُ بهم وأكادُ أجزمُ بأنه ولا واحد منهم كان مع المُدرِّس، كانوا معي أنا، يتهامسون وأنا لا حيلةَ لي..

ولم يسلَم الأمر أيضًا من مشاجرات، تُستخدم فيها الحقائب والمساطر والأشياء المُلقَاة بفناء المدرسة. كان حسن وفهمي دائمًا معي ويدافعان عني، لكن ماذا يفعلان أمام الكثرة.

عدتُ مرةً من المدرسة بعد عراكٍ وإهاناتٍ لم تتوقف إلَّا على أول الشارع، فوجدتُ إمام خادم جدي عندنا، كان قد غاب عنَّا أشهرًا طويلة، رأيته حزينًا على غير عادته.

قال: إن جدِّي مات، سقط كوبُ الشاي من يده وهو جالسٌ مع أصحابه، وأسلمَ الرُّوحَ في لحظتها.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أبكي فيها بحُرْقة، بكاءً موجعًا وكله نهنهات حتى إن إمام تأثر بهذا المشهد وذكَّرني به أكثر من مرةٍ بعد أن كبرت؛ لكن الغريب والذي لا أفهم له سببًا أني سألته أثناء بكائي ونهنهاتي عن خرشوف كلب الجد: هل مات هو الآخر؟!

فقال إنه لم يكمل ثلاثةَ أيامٍ بعد الجد، فقد وجدوه ميتًا بجوار الباب.

وطلبَ من أمي أن تذهبَ للعزاء إكرامًا لجدَّتي، عرض عليها أن يأخذَها بسيارةٍ ويعود بها في نفس اليوم، إلَّا أنَّها قالت: لا.

قالتها له بإصرار، وأنا أرمُقها بغضب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

17

جاءني جدِّي لأبي في المنام.

كأنِّي كنت ألعبُ أنا والعِجْل الصغير في الشونة التي في البلد، أكلمه فيردُّ عليَّ، أهمُّ بشدِّ ذيله فيسرعُ مختبئًا منِّي، ومن الخارج جاءني صوت جدِّي..

كان واهنًا، وجدِّي يلتقطُ أنفاسه بين كلِّ كلمةٍ وأختها، سمعتُه يسعلُ بعدها سعالًا مؤلمًا، وينادي على جدَّتي أن تسعفَه بشربةِ ماء، فخرجتُ مقتفيًا أثر صوته، حسبتُه في الغرفة التي كُنَّا ننام فيها أنا وأمي، اتجهتُ صوبَها ولسعةُ خوفٍ تسري في بدني، فالبيتُ كله لا حسّ ولا حركة وغبشةٌ خفيفةٌ تملأ الجو، غير أنِّي توقفت لما رأيت كلبين على مقربةٍ من باب الغرفة يزومان في وجه بعضهما البعض ويتأهبان للعراك؛ انحرفت مسرعًا نحو الدهليز.

الدِّكَك كلها مليئة بالناس، أناس ليسوا مثلنا، شعورُهم طويلة كشَعْرِ النساء وتتدلَّى على أكتافهم، ولهم شوارب كشوارب القطط، ولم يكن جدِّي بينهم.

سكتوا لما اقتربت، ووقفتُ أنا الآخَر على مسافةٍ منهم.

عيونهم تحدِّقُ فيَّ.

لم ألحظْ في السابق أنها الأخرى تلمعُ لمعةً تخُضّ! واحد منهم، أظنُّه كبيرهم، يدعوني أن أتقدم، وشيء يقول في أُذُنِي: ابتعد، انْجُ بنفسِك، أسرِعْ! أسرِعْ من هنا! وأنا لا أقدر على تحريك قدمي، ماتت مني، ماتت بالفعل، أمسكَتْ بها الأرضُ ولم يَعُدْ لي عليها أيُّ سلطان.

لم أتذكَّر الحُلْمَ إلَّا وأنا راجعٌ من المدرسة في اليوم التالي، جاء على بالي لما رأيت المعلم حبيب جالسًا بجلبابه وعمامته على مقعده المعتاد أمام محلِّ عصير القصب. أخذت درجات السُّلَّم ثلاثًا في ثلاث وارتميتُ على أمي أحكيه لها، وأنا أنهجُ وقلبي ينتفضُ من شدَّةِ الانفعال.

تأمَّلتني برهة، وقالت وهي تحكُّ جبهتها بإصبعها حكًّا خفيفًا:

- يا ريتني ما استحيت أقول للواد إمام يفكَّر عمَّك بالفلوس اللي اتعهَّد بيها جدك.

قلت لها وأنفاسي لا تزال تروح وتجيء:

- أنا مش تايه عن صوت جدِّي ولا كَحِّته، مش تايه، والناس اللي كانوا قاعدين على الدِّكَك وحشين وشكلهم يخوِّف.

تُطرِقُ أمي وهي تعاود الكلام بصوتٍ هامس:

- دي تبقى مشكلة لو الراجل ده اللي اسمه إبراهيم عاكسنا في الفلوس.

وأنا أقول:

- جدِّي والله العظيم! جدِّي عبدالحميد! أنا مُتأكِّد وكان بينده في الحلْم على جدَّتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما جاءت جدَّتي إيقون تستطلع الخبر أومأت لي أمي كي أذهبَ وأبدِّلَ ملابسي، تلكَّأتُ فنهرتني وسمعتُها تقول لجدَّتي وأنا أدخلُ غرفتنا: إنها احتارت في أمري، أكْلَتِي خفيفة ودائم السَّرَحان، ولا تمرُّ ليلةٌ إلَّا وأزومُ فيها وأنا نائم وعندما توقظني أقوم مخضوضًا.

أغلقتُ الباب ووقفتُ وراءه أتسمَّع حديثهما، كانتا تتكلمان عن جدِّي.

تقولان: إنه رجلٌ جاهلٌ ولو لم يكن مع أمي أوراق رسميَّة لطردها من بيته ولم يعترف بأن له حفيدًا، وأخذتا تلعنانه في تُربته هو وجدَّتي السَّهْتانَة البَهْتانَة وإمام خيال المآتة.

وقالت أمي: إن التيس يفهم أكثر من عمي، وحمدت الله أنه ليس لعمي قرون وإلَّا لنطحها بها لما كانت في البلد، وتعجَّبت من شرعنا الذي لا يُورِّثها أي شيءٍ في تركة جدِّي.

وجدَّتي تقول لها بغيظ: ألم تكوني زوجة ابنه وأنجبتِ منه؟

- وحق جلال في وِرْث جده؟

قالتها أمي بحسرة، وأضافت جدَّتي بإصرار:

- أيوه حقُّه في كل حاجة! في الغيط والبيت والمواشي، حتى في البط والفراخ والوِزّ كمان وكل قشَّاية عندهم.

- ومين يقدر يقول لهم كده؟!

- أنا عارفه انهم ولاد قحبة، ومفيش حَلّ إلَّا أنَّ أبوكي يُوكِّل محامي، بس الوقت، خايفة لا الوقت ميسعفناش.

أجابت أمي:

- عارفة عارفة، أنا إيه اللي شبكني الشبكة السودة دي، كان زماني مسافرة معاكم.

وبعد أن أتمَّتا حديثهما وقفتُ برهةً ساهمًا ثم استلقيتُ على السرير بملابس المدرسة، نادت عليَّ أمي كي آتي للغداء فقلتُ لها: إني مريض، ومكثتُ بقيةَ اليومِ في السرير مُتحجِّجًا برأسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت أيامٌ وأيامٌ بعدها وجدِّي يتراءى لي، ليس في المنام فقط، في اليقظة أيضًا. لا يجيء على بالي عفوًا وإنما أنا الذي أستحضره. لما قابلنا أول مرة، وعندما كان يحملني عاليًا وأنا أعبثُ بزِرِّ عمامته، ولما كنت جالسًا إلى جواره والهواء ينفخ جلبابه.. وجدَّتي، بوجهها الساكن ووجنتيها العاليتين، والحَسَنة الصغيرة التي على مقربة من فمها، لم تكن سوداء، كان سمارُها خفيفًا ولا تلحظها أبدًا إلا إذا دقَّقت النظر في وجهها.

ولم أكفَّ بعدها عن الحديث عن جدِّي لأبي..

ليس مع أمي فقط أو حتى جدِّي زكي، مع الأولاد..

أقول: إنه كان العمدة، وعنده خُفَراء وسجن يحبسون فيه الناس وأرض لا أوَّلَ لها ولا آخر، وأن عمي إبراهيم هو العمدة الآن وأهل البلد يعملون له ألف حساب. وأصفُ من خيالي بيته الكبير والدُّوَّار والشُّونَة التي بها خمسون بهيمة أو يزيد، وأشجار الكافور العالية التي تمتدُّ بحذاء الثُّرعَة، والنسوة اللائي يتَّجهن صوبها حاملاتٍ الهدومَ والمواعينَ لغسلها، والأولاد الذين يأتون إليها خلسةً وينزلون عرايا في الماء.

وحسن وفهمي لا يملَّان من السماع عن دنيا الريف التي يجهلانها، خاصةً وأنا أضيفُ جديدًا كل يوم، وإذا رأيتُهما مشدوهيْن بشيءٍ مما أقولُه أُسهب في الكلام عنه ومُخيَّلتي والحمد لله لا تكفُّ عن العطاء.

ودون أن أشعرَ كان لهذا الزَّهْو أثرُه في أول مشاجرة نشبت بعد ذلك، شتمني ولدٌ بأمي، فرددتُ عليه الشَّتْمةَ بأقذعَ منها وصياحي يتعالى: بأني ابن العمدة، وإذا زغدني أحدٌ بيده كنتُ أركلُه بقدمي، ومن يتربَّص بي ألقاه غير هيَّاب. وحسن وفهمي إلى جانبي، ينشران عني الأخبار ويقولان لعيال المدرسة: إن أهلي في البلد عندهم نبابيتُ وعِصيٌّ غليظةٌ ولو جاءوا سوف يكسرون عظامهم بها، حتى حضرة الناظر لن ينجوَ منهم. وانقلبَ الموقفُ لصالحي، لم أعُدْ مُستهدَفًا من أحد، الشيء الوحيد الذي ظلَّ يُسبِّب لي كدرًا هو النظرات التي تلاحق ملابسي الفَضْفاضَة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجاءنا إمام..

أتى بعد نهاية العام الدراسي، صعدتُ من الشارع فوجدتُه جالسًا مع أمي. بشاشتُه بلقائي لم تُخفِ عني آثار الغضب البادية على وجهه، قطعتُ عليهما الحديث وظللنا نحن الثلاثة صامتين بُرْهةً. أمي وجهُها محتقن، وإمام يسوِّي قَبَّة جلبابه البلدي المزمومة على رقبته، وشُعيراتٌ بيضاءُ زحفت على مقدمة رأسه وفُودَيْه. كان ينظرُ إلى أمي من تحت لتحت، لمحته فتشاغلَ بطاقيَّته. كبسها على رأسه ثم عاد وخلعها، أخذ يسوِّي أطرافها ببطءٍ ووضعها على رُكبته. تبسَّمتُ. تذكَّرتُ جدِّي عندما كان يخلع عمامته، ويدُه وعينُه عليها خوفًا من دَلْو الماء الذي كان يحمله.

سعل إمام سعلتين قصيرتين، أظنُّهما كانتا مفتعلتين، ثم عرض على أمي أن يأخذني معه لزيارة عمي.

قال لها ونظرةٌ راجيةٌ تبدو في عينيه:

- يوم وللا يومين يا أم جلال، وهَجِيبه بنفسي.

قالت: لا، اللي عايز يشوفه ييجي هنا.

ولما هَمْمْتُ بالكلام أسكتتني بإشارةٍ من يدها وقالت:

- لأه يعني لأه..

وقبل أن يغادرنا إمام دفع لأمي الأشهُرَ المتأخرة، وظلَّ عمي منتظمًا في السَّدَاد بعدها لكنه لم يحضرْ ولا مرة لزيارتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

كنتُ أعشق كرة القدم..

وأظلُّ ألعبُ في الشارع ليلةَ الجمعة، من العصر حتى ما بعد أذان المغرب.

تنادي عليَّ جدَّتي من الشرفة كي أصعد.

أرفع رأسي إليها متأفِّفًا ولا أستجيب. تعاود النداء بغيظ. أدَّعي الطَّرَش. تميلُ بجذعها فأعرف أنها تخلع الشبشب. كانت في الأول تكتفي بالتهديد به. تُلوِّح به في وجهي وينتهي الأمر. تغير التكتيك الذي تتبعه في التعامل معي بدءًا من هذا الصيف. أصبحت تقذفني به بلا سابق إنذار، والغريب أن ضرباتها لا تخيب أبدًا رغم أنها عمشاء، فلم أُفْلِح ولا مرة في تفادي شبشبها البرتقالي المُفلطَح ذي الفيونكة الحمراء، فإمَّا أن يأتيَني على رأسي أو في جنبي أو في مكانٍ آخر موجعٍ تصوِّب عليه. وإذا حالفني الحظ وراوغتُ بجسدي أتلقَّاه بين يدي كالكرة. أصعد وألقيه تحت أقدامها ويكون جهازي العصبي لحظتها في أقصى درجات الانتباه، فأصابعُها وبحكم العادة تنقضُّ على أُذُني. لكن على مَنْ يا أُمّ منقار! أكون قد طرت من أمامها، أستحمُّ وأتعشَّى وأتجهَّز لمشاهدة الفيلم العربي بالتليفزيون.

كانت تستهويني أفلام (فيروز) وأتخيَّل نفسي مكانها على الشاشة، أغني وأرقص وأجعل أنور وجدي يشد شعره مني، ومع ذلك لم أرَ كلمة النهاية أبدًا. أبدأ في النُّعاس في منتصف الفيلم تقريبًا، هذا إذا لم أنَمْ - نوم ثقيل وبشخير - وهم لا يزالون يعرضون أسماء الممثلين على الشاشة، وإذا كان جدِّي أو أمي لا يزالان يَقِظيْن يحملني أحدُهما ويضعني في السرير.

لا تفعلها جدَّتي أبدًا..

تقول: إن عندها الغضروف وأنا بسم الله ما شاء الله مثل العِجْل ولو حملتني لخلَّصتُ عليها، وإن تصادف وكان الفيلم من أفلام الرعب أو الأكشن يطير عقلها، تترك ما في يدها وتتربَّع أمام الشاشة وحواسُّها كلها تنبض من الترقُّب والانفعال، أما جدِّي فيمط شفته ويتركُنَا لينام ووراءه بدقائق أمي. وفي آخر السهرة تنغزني في صدري، وتصرخ في وجهي كي أصحو. أقوم مسروعًا بالطبع، فتجرُّني من يدي كأنِّي عنزةٌ هاربةٌ من صاحبها وتدفعُني نحو السرير إلى جوار أمي، لأظلَّ نائمًا حتى أذان الجمعة.

إلا هذه الليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كُنَّا في عز الليل وأيقظتني حَبْسةُ البول، تحسَّستُ موضع أمي فلم أجدها وكان نور الصالة مضاءً وأصواتٌ تأتي منها، كأن حقائب تُجرُّ وخيالاتٍ تروح وتجيء مسرعةً على زجاج باب غرفتنا.

استطعت تمييز صوت راشيل ابنة خالتي، كانت تكلم جدَّتي ثم أسرعت نحو باب الشقة، وخالتي بيلا تمضي في أثرها بكعب حذائها العالي وهي تقولُ لأمي: إنه لا وقتَ لخلع البراويز التي على الحائط فلا مكان لها في الحقائب.

غادرتُ الفِراشَ وأنا بين الدهشة والنوم، واربتُ الباب قليلًا ووقفت أنظر.

جدِّي يجلس ببدلته الكُحْلي، والكراڤته الرَّمَادي غير معقودة، طرفاها يتدلَّيان بغيرِ تساوٍ، والجزء الذي يُستخدم لعقد ربطتها يبدو أغمقَ قليلًا من لون الكراڤته، والقميص مُتَّسخٌ وبنصف ياقة، النصف الآخر مدسوس تحت ياقة الچاكت ولم ينتبه إليه جدِّي، والطربوش جزءٌ منه يستند إلى حافَّةِ الكنبة والباقي في الهواء ويهتزُّ لأقل حركة.

وجدِّي نفسه وجهُه معتمٌ وكأنما شاخ في العمر عشر سنوات أخرى، عيناه مزمومتان ورأسه مطأطأ إلى أسفل، نفس الهيئة التي أعرفه عليها عندما يكون مكروبًا، أما جدَّتي فكما العصفور، من غرفةٍ إلى غرفة، توصي أمي بقبض الجمعية في ميعادها من أمّ فؤاد الدَّايَة وإرسالها لها – فرنكات - مع قريبنا (أرتين) الذي سوف يلحق بهم قريبًا، وتُسرع إلى الشرفة ترد على هارون زوج ابنتها بيلا الذي ينادي عليها من الشارع، ثم تمسك بكتف أمي وتحثُّها على إنهاءِ ورق سفري من المزغود بأي طريق، لم أعرف وقتَها أن هذا المزغود هو عمِّي إبراهيم.

صعد خالي شمعون وأخذ آخر حقيبة، وقال لجدِّي وهو يلهث: إن هذا ليس وقت الجلوس على الكنبة وعليه أن يُسرع فالطائرة لها مواعيد.

قام جدِّي على ثلاث دفعات..

وعندما انتصبَ أخذ يُحدِّق في صورته المعلقة على الجدار، كانت مائلةً إلى اليسار قليلًا، عدل حافة البرواز فمالت منه الصورةُ نحو اليمين، اقترب أكثر يعالجُ الحافَّةَ بحركاتٍ خفيفةٍ من إصبعه. شاطت النار في جدَّتي لما رأته، شدَّته من كُمِّ (البدلة) وهي تصيح فيه بصوتٍ عالٍ. لم يردَّ عليها. أذعن وانحنى ليأخذَ الطربوش. خطفتْهُ من يده، وقالت بغضب: إنهما ذاهبان إلى باريس وليس إلى الفلاحين، ولو رأوه على رأسه لكان مسخرةَ الخلق هناك، وطلبت من أمي أن "تشَحَّته" للبوَّاب أو للسمكري الذي يصلح (بوابير الجاز).

أمسك جدِّي بيدِ أمي وقال لها بصوتٍ خفيضٍ ألّا داعي لذلك، فالطربوش على رأسه من ثلاثين عامًا ولا يصلح حتى لرأس كلب، أجابته أمي بحُنُوٍّ بأنهم حتى هنا لم يعودوا يلبسون الطرابيش، وأنها سوف تحتفظُ له به وتُحضره معها هو وكل الصور التي على الحائط.

تبسَّم واحتضنها، كان وجهُهُ ناحيةَ بابِ غرفتنا، تلاقت نظراتنا فاندفعتُ إليه وبكاءٌ حارٌّ - وبصوتٍ - ينطلقُ مني. ارتميتُ عليه فحملني إلى صدره. كانت المرة الأولى التي أراه فيها يبكي ويمسحُ دمعَهُ بكفِّه مثلما أفعل.

أخذتني أمي منه لما ازداد بوق السيارة التي في الأسفل، فوقفتُ أتطلَّعُ حولي وأنا لا أصدِّق ما يجري، وبدا هو كشخصٍ آخر. ليس جدِّي الذي أعرفه. لا ينطق بكلمة. عيناه شاردتان وكأنهما منتفختان، وبلا حتى غطاء على الرأس أو أي قدر من الهندام. حاله كله كان مُزْريًا.

أمسكتْ جدَّتي به واندفعت إلى الخارج، وقبل أن أسمعَ صريرَ البابِ وهو يُغلق علينا التفتْ للحظةٍ، حاول أن يقول لنا شيئًا غير أن حَلْقَه معقَ منه الكلام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

بعد سفر جدِّي مات البيت، وفقدَتْ أمي نضارتها..

أذهبُ إلى المدرسة وهي نائمةٌ وأعود وهي لا تزال في السرير، أشتري أي شيء من البقَّال نتقوَّت به ونقضي أغلب النهار - تقريبًا - بلا كلام. هي في غرفتها لا تخرجُ منها إلا للأمر الضروريّ، وأنا في الصالة إما مُمدَّدًا على الكنبة أو أحلُّ واجبات المدرسة، ولم يطاوعني قلبي ولا مرة على فتح التليفزيون.

ساعات كنتُ أسمعُ تكَّةَ أُكْرةِ بابِ غرفةِ جدِّي فأرفعُ رأسي من فوق الكراسة، تكون أمي قد دخلت والباب موارِبٌ، بحركةٍ تلقائيَّةٍ تتراجعُ أصابع يدي اليُمنى إلى الوراء وتستقر مؤخَّرة القلم الرصاص بين شفتيَّ وأمد رأسي قليلًا، وبحذرٍ شديدٍ أتابعُ ما تفعل. تتجهُ مباشرةً إلى سرير جدِّي. تقفُ أمامه ساهمةً. كان عَاليًا ويتدلَّى على جانبيه اللحاف الثقيل الذي طالما تغطَّى به، وأعمدته النُّحاسيَّة الأربعة تقفُ في صمت، أما الكُرَاتُ النُّحاسيَّة التي تعلوها والتي على شكل وجه إنسان عيونُه جاحظةٌ فكانت ترمقها أينما اتجهت. تشدُّ أمي اللحاف بوصةً من هنا وبوصتين من هناك وتعدل من وضع المُخدَّة أو تقلبها على الوجه الآخر، وتستديرُ ناحيةَ الدولاب، في التفاتتها تلتقي نظراتنا فأخرجُ القلمَ من فمي وأعود للكرَّاسة. أسمعُ صرير ضلفة الدولاب فأعود لها بعيني، أراها وهي تُخرِجُ طربوش جدِّي. تتأمله ثم تضعُه على رأسها. أتبسَّمُ وأزدادُ تطلُّعًا لها. تخلعُ الطربوش وتمسح جوانبه بباطن كفِّها ثم تُعيده إلى مكانه. تلتفت نحوي. أبدو منهمكًا في الكتابة ولا أُشْعرها بنظراتي. تنحني لتأتيَ بثوبٍ قديمٍ لجدَّتي من أسفل الدولاب. تُزيحُ بهزَّاتٍ سريعةٍ من أصابعها الأشياءَ العالقةَ به، ثم تمطُّ شفتها السُّفلَى وتخبط الثوب بيدها خبطاتٍ متتالية. في السكون الذي نعيش فيه تبدو خبطاتها مُدويَّة، وإذا كان الوقت نهارًا والشمس لا تزالُ تنفذ من شيش الشُّبَّاك، كنت أرى غبارًا خفيفًا يتصاعدُ إلى أعلى ثم يعاود الهبوط سابحًا مع أشعَّة الشمس، وأحسُّ بدفءِ الغرفة وهوائها الثقيل يتهاديان إليَّ وكأنما أتنسَّمُ أنفاسَ جدِّي وأسمعُ صوتَه.

تخرج أمي والوَجْد يتقطَّرُ من عينيها..

تسألني إن كنت مشتاقًا لجدِّي؟

أومئ رأسي بالإيجاب.

وكنتُ في جلستي أسمعُ صوتَ الأولادِ وهم يلعبون، فيهفو قلبي قليلًا إلى الشارع. أخرج إلى الشرفة لأتابعَهم من أعلى، يلمحني واحدٌ منهم فيصيحُ بأعلى صوته:

- جلجل، إنزل يا جلجل.

ويوقفون اللعب..

ينادون كلهم عليَّ مشيرين بأيديهم أن أنزل. أتحجَّجُ بأي شيء ولا أستجيب. كنتُ أظنُّ أني بذلك أواسي أمي في وحدتها، ولما تكرَّرَ نداءُ الأولاد أرغمتني هي على اللَّعِب معهم. عندما نزلتُ لم أشعرْ بأيَّة فرحةٍ وكأني مريض ولا أقوَى على اللعب، فلم تكن أمي وحدها هي السبب أنا الآخر كنت مكتئبًا لفراق جدِّي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يدقَّ بابَنا أحدٌ طوال عشرة أيام..

كل الجارات كُنَّ عاتباتٍ على أمي لأنها لم تبلغهن بميعاد السفر حتى يسلمن على جدَّتي وخالتي بيلا، ولم تُجْدِ اعتذارات أمي نفعًا. كُنَّ يُمصْمِصْنَ شفاههن أو يلوين وجوههن إذا رأينها على باب الشقة تنادي على البَوَّاب من بئر السلم، أو تضعُ صندوق القمامة جانبًا.

وبدأت عزلتنا لولا أُمُّ حسن رغم أنها كانت أول العاتبات، جاءت لزيارتنا فتَلَتْها الباقيات.

قالت لأمي مرةً:

- أنا خايفة يا كاميليا لنِصْحَى يوم لا نلاقيكي ولا نلاقي جلال.

لم تردَّ، تشاغلتْ بفَكِّ عقدة الطرحة عن جبهتها، والتفتت إليَّ تطلب مني أن آتي لها بدبوسين من التسريحة.

أردفتْ أُمُّ حسن:

- هو الأستاذ زكي والجماعة سافروا على فين؟

ثم مالت تهرش جنبها، ونظرةٌ ماكرةٌ تعلو وجهها وهي تكملُ الكلام:

- إوعي يا حبيبتي يكونوا سابونا وراحوا على البلد المدعوقة دي اللي اسمها إسرائيل.

فهبَّت أمي واقفةً وهي تقول: إنها تسمع خروشة في المطبخ، أكيد الفأر الذي يأتينا كل يوم من الشباك الذي على المنور، وأسرعت والشبشب في يدها، وانحنت أُمُّ حسن هي الأخرى تخلعُ شبشبها. صدَّقتُ أمي وطرت وراءهما وفي يدي شبشب جدَّتي الذي كانت مقدمته تطلُّ من تحت الكنبة، واكتشفتُ

في هذه اللحظة فقط أنه لا يزال موجودًا في البيت. فكرتُ في أن أقذفَ به في الشارع أو ألقيَهُ في صُنُدُوق القُمَامة غير أنِّي تراجعت، لم أقْوَ على التخلص منه فجدَّتي هي جدَّتي مهما فعلت..

كان الشباك مغلقًا وقلبنا المطبخ رأسًا على عقب، لا فأر ولا حتى نملة أو صُرصْار، والحِلَلُ فارغةٌ ومقلوبةٌ على فُوَّهاتها فيما عدا واحدة مركونة على جنب وتنبعث منها رائحة طبيخ حامض.

هزت أمي رأسها متعجبةً وهي تقول:

- أمَّال إيه الصوت ده؟ يمكن الهوا هو اللي بيخبط في الحِلَل.

نظرتْ أُمُّ حسن إلى شُبَّاك المطبخ المغلق، وقالت بنبرةٍ لم تَغِبْ عن أمي:

- يجوز، يجوز برضه.

ثم أردفت ضاحكةً:

- والفار ييجي عندكم يعمل إيه، دا المطبخ أنضف من الصيني بعد غسيله، إيه ده يا أم جلال ولا حتى فتفوتة عيش في البيت؟!

وعادتْ في المساءِ بوجبةٍ ساخنةٍ وبمثلها في اليوم التالي، حمدت الله فمن شهر وأكثر وأنا وأمي لا نأكل إلا الفول والبيض والسردين المُعلَّب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

وجاء أول خطاب من جدِّي..

أول ما سألَ سألَ عني ثم عن أمي وأصحابه خاصةً المعلم حبيب، وقال: إنهم نزلوا ضيوفًا لمدة أسبوعين في شقة الأستاذ لبيب موصيري الذي يمتُّ بصِلَةِ قرابةٍ لواحدة من خالاته، وأنه أول واحد في الأسرة يحصل على وظيفة بمساعدة هذا الرجل الشَّهْم، عامل نظافة في محلٍّ كبيرٍ للأقمشةِ صاحبُه رجلٌ يهوديٌّ بحيٍّ اسمُه (بارباس)، ويسكن هو وجدَّتي الآن في شقةٍ صغيرةٍ استأجراها بالقرب من المحل. وبالشارع الذي يسكنونه عربٌ كثيرون من الجزائر والمغرب وتوانسة، لكن جدَّتي لا ترتاح إلى التعامل معهم؛ خاصةً الرجل التونسي الذي يسكن في الدور الثاني.

أما خالي شمعون ففشل في الحصول على عملٍ إلى أن أكرمه الله من يومين واشتغل شيَّالًا بفندق (دي لاركاد) القريب من محطة (سان لازار)، وقال: إنه رأى الأوبرا مرتين، رآها من الخارج بالطبع، وهي دارٌ فخمةٌ ولا مثيلَ لها في مصر، لكن أين هي في قلبه من الأوبرا التي عندنا؟! أربعون عامًا وهو يمرُّ أمامها كلما ذهب أو جاء من ميدان العتبة، وسأل أمي عن العشرة جنيهات المُتبقِّية لدى صَبِّيه السابق الذي اشترى منه الڤاترينة؟

وبعدها بشهرٍ جاءنا منه خطابٌ آخر، كلامُه فيه كان حزينًا، واستحلف أمي أن تتقصَّى عن صحَّةِ الخبرِ الذي يتناقله اليهودُ المصريون عنده في باريس، بأن وزارة الداخليَّة في مصر أسقطتْ جنسيَّةَ اليهودِ الذين غادروا البلاد بمحضِ إرادتهم وأنذرتهم أن يعودوا إلَّا أنهم لم يأبهوا بهذا الإنذار.

قابلت أمي صديقةً يهوديَّةً لها تعمل في منزل (سلڤادور شيكوريل) صاحب محل شيكوريل عسى أن تفيدَها بشيءٍ ولا حِسّ ولا خبر، وذهبت إلى جارنا الأستاذ حسني الباشكاتب فأخذ أسماء وبيانات جدِّي وجدَّتي وكل الذين سافروا معهما ووعدها بالسؤال. ومرَّ وقتٌ طويلٌ والرجلُ كلما قابلها صدفةً في الشارع، يقول لها: الأوضاع غير مستقرة يا أم جلال، اصبري اصبري ما صبرك إلا بالله، ويتنحنح ويتركها معتذرًا بأنه تأخَّر عن أُمّ العيال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرًا جاءت رسالة من جدَّتي.

لم تسأل عني بالطبع أو عن أي واحدة من جاراتها القَدامَى، الأسطر الأولى كلها عن مبلغ الجمعية الذي لم يصل حتى الآن، وتشكَّكت في ذمة قريبنا (أرتين).

قالت: إن ذِمَّتَه (أستك) مثل أبيه، وأنه لن يُفلت من يدها ويوم أن تلقاه سوف تبصق على وجهه وتأخذ منه المبلغ وفوائد التأخير، ثم قالت لأمي: إن جدِّي أرسل خطابه الثاني من ورائها ولما عرفت بما فيه تشاجرت معه ليلةً بأكملها، فقد أصابه الخَرَفُ ولا يجبُ أن تسمعَ كلامه. وأن خالي إيزاك جاء أخيرًا من إسرائيل لزيارتهما، وقد تزوَّج من يهوديَّة مغربيَّة هاجرت معه هي وأهلها على نفس المركب التي أقلَّتْهُ من (مارسيليا). وهو ما شاء الله صحة وعز ويعمل في وظيفة محترمة هناك، وأن خالتي بيلا تفكر في اللحاق به.

أحوال خالي شمعون هي التي تُقلقُها فقد طردوه من وظيفته، قالوا: إنه مهمل في عمله، واتَّهموه بسرقة بشكير من إحدى غرف الفندق الذي يعمل به، إلَّا أنَّ قريبنا موصيري - أكرمه الله - ألحقه بعملٍ آخر بمحل ملابس شهير بشارع (ريڤولي)، حمَّالًا أيضًا وإن كان بأجرٍ أقلَّ من الأول. وتتعجَّبُ جدَّتي من أنه لا يزال مترددًا في مسألة السفر إلى إسرائيل رغم إلحاح أخيه عليه، وإن كانت هي وجدِّي لا يفكران في السفر إلى هناك وينويان البقاءَ إلى أن تلحقَ بهما أمي على الأقل. وسألت عمَّا فعلته أمي بشأنِ إنهاءِ عمي إبراهيم أوراقَ سفري، ولم تنسَ وصفَه بالوسخ ابن الوسخ، مضيفةً إلى ذلك شَتْمَتيْن أُخريَيْن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحسَّن حالُ أمي بالخطابات التي ترِدُ إليها، وبدأت الحياةُ تعود شيئًا فشيئًا إلى شقتنا وتكثر زياراتُ الجارات.

يبدأن الحديث دائمًا بالسؤال عن أحوالها المالية وإن كانت في حاجة لشيء أو فلوس سلف، وتدسُّ واحدةٌ أو اثنتان منهن أصابعها في صدرها كأنما تُخرج كيس نقودها. تُشِيح أمي بيدها شاكرةً، وظنُّها يقول لها إن كل هذا شغل سِتَّات وكلام في الهواء.

بعد أن تُقدِّم لهن التحيةَ، والتي غالبًا ما تكون شايًا أخضرَ، تعتدلُ في جلستها ليراها الجميع وتقول بصوت خفيض: الحمد لله، ترك لي أبي مبلغًا محترمًا في صندوق التوفير يكفينا أنا وجلال، ولا تتطرق أبدًا للنقود التي يأتي بها إمام من عمي إبراهيم.

وإذا ثرثرن ودخلن معها في الصميم بسؤالها عن أهلنا الغائبين لم يكن يصيبها أي ارتباك، وكأنما استعدت لهذه الإجابات وتدربت عليها سرًّا. يخفتُ صوتها قليلًا وهي تقول: إن جدَّتي تشكو من الغربة وقسوتها، والدنيا عندها لا تساوي يومًا من أيام مصر، المشكلة في جدِّي، زَلَّت قدمه وتدحرج على سلم العمارة التي يسكنون بها.

تشرئبَّ الأعناقُ نحو أمي، فتتنهدُ وتكملُ بنبرةٍ أشدَّ خَفوتًا:

- آهو جاله كسر في الحوض وركّبوا له صامولة في ركبته، آدي اللي نابه من السفر وتغيير الجو.

يعمُّ الصمتُ ثوانيَ تتلقَّى أمي المواساةَ بعدها، يقُلْنَ:

- سلامته عم زكي، عضمه كبيرة ومش وش بهدلة، راجل في حاله ولسانه حلو.

حديثهن يكون صادقًا ومن القلب فجدّي سيرتُه عطرةٌ في الشارع، التحفُّظاتُ على جدَّتي فقط.

ويأتيها أحيانًا سؤالٌ مفاجئٌ عن خالي إيزاك، الذي يتشكَّكْنَ كُلُّهنَّ في أمره.

تنكمشُ على نفسها لحظةً، ثم تقولُ بابتسام:

- ومين زيُّه دلوقت، آهو في تونس وفاتح ورشة نجارة هناك وحاله عال، دا هوه اللي بيصرف على علاج البابا ومُتولّي أموره ربنا يسعده.

ترفعُ امرأةٌ رأسها بدهشةٍ:

- بيصرف على عم زكي! وهو عم زكي فين بالظبط؟ في تونس

وللا فين؟

تومئ أمي برأسها مجيبةً من وحي الخاطر:

- آه في تونس.

وتسألها أخرى متعجبةً:

- أمَّال جماعة الأستاذ حسني بتقول إن عم زكي مسافر بلاد الخواجات مش تونس!

وتتلقَّت المرأة حولها متوقعةً المساعدة، فتقولُ أخرى:

- آه سمعنا إنه مش عارفه مسافر فرنسا ولَّا اسمها إيه دي؟!

وتنغزُ الجالسةَ إلى جوارها قائلةً:

- هيَّه اسمها إيه يا أم عباس؟

عندما كانت أمي تجيب، كنت ألمحُ - بحكم عشرتي لها - كفَّ يدها وهي تُحيط بمعصمها الأيسر وتبدأ إصبعُ السَّبَّابة بالهرش فيه بلا توقف، فأعرف أنها لا تقول الحق. وكانت النسوة يصمتن تمامًا ويختلسن النظر إلى بعضهن، وكُلُّ نظرةٍ تحملُ رسالةً مُشفَّرة.

انعكس ذلك على أمي، أصابها الضَّجَرُ من لُعبة القِطِّ والفأرِ هذه التي تلعبُها مع الجارات، فبدأت في التهرُّب منهن ولم تعُدْ تفتح الباب إلَّا لأم حسن، فالمرأةُ لم تُثقلْ عليها أبدًا وكانت أمي لا تزال تشعرُ بالحب تجاهها، أما أنا فكنتُ عندها بغلاوة ابنها حسن.

وفي ليلةٍ وأنا وأمي نتكلمُ عن جدِّي عرفتُ أنه لولا عمي إبراهيم لكُنَّا سافرنا معه؛ فقد قالوا لها في الجوازات: لا سفر ولا حتى جواز سفر إلا بموافقة عمي، ولما أرسلتْ له بذلك مع إمام أجابها بمثلِ ما كانت تجيبُه من قبل: لا. وألف لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

ودخلت المدرسة الإعدادي..

دخلتُها وأنا لا أعرف شيئًا عن الصلاة إلَّا من حصص الدين، أنظرُ إلى الشيخِ زكي بانتباهٍ وهو يقولُ لنا إنها عمود الدين، ومن أصبح مكلفًا بها ولم يُؤدِّها فهو كافرٌ ومنكرٌ للدين. وأتابعه بشغفٍ وهو يُشمِّر كُمَّ الجُبَّةِ والقفطان ويعلمنا كيف نغسلُ أيدَينا حتى المِرْفَقيْن، أو عندما يخلع عمامته ويُرينا كيف نمسح على رءُوسنا، ويُعرِّفنا بأوقاتِ كُلِّ صلاةٍ وعدد ركعاتها، والأدعية الواجبُ علينا الدعاء بها في وقت الشدة وعند السفر وقبل أن ننام، لكن ما إن تأتِ الإجازة حتى أنسى كل الذي تعلَّمته، مثلما ينسى الأولادُ دروس الحساب.

نكون قد أوغلنا في الإجازة وأصبح كل شيء منسيًّا، فيسألُني أحد الأولاد مازحًا عن عدد ركعات صلاة المغرب؟ غالبًا ما يكون السؤال أمام أحد الأغراب أو في جلسةٍ جادَّةٍ ويودُّ السائل قلبها إلى مزاح.

أقول: ثلاثة..

ترتسم الابتسامة على شفتيه، غير أني في الوقت ذاته ألمح نظرةً ماكرةً في عينيه. ينتابُني الارتباكُ ولا أعرف إن كان يشجعني أو يريد الإيقاع بي، فأسرع بالقول إنها اثنتان فقط وأتلفَّتُ حولي. يعاود السؤال مرة ثانية هو وغيره من الجالسين، وأنا متشبث بالإجابة وأحلف على ذلك بالله. ويكون السؤال التالي عن صلاتَي الشَّفْع والوَتْر، هل هما فريضة أم سُنَّة مُؤكَّدة؟ أو يكون في جزء (عمَّ) فأتلعثم ولا أجيب. ولم يفتح الله عليَّ سوى بثلاث سور قصار؛ هي الضُّحَى والليل والطارق، وبعض آيات متفرقة من سورتَي البقرة والرحمن، أحفظها وأتلوها كالماء.

الغريب أنني ومن دون باقي التلاميذ إذا ما قرأتُ هذه السورَ بصوتٍ عالٍ في حصة الدين، كان السكون يعمُّ الفصل ويتابعونني كلهم مدهوشين.

يرمقني الشيخ زكي بإعجابٍ ودهشةٍ أكثر من دهشة التلاميذ، ويسألُني إن كنت أستطيع تجويد ما قلت؟

أومئ برأسي وأبدأ في التلاوة وكأني الشيخ عبدالباسط عبدالصمد، فتنقلبُ الدهشةُ إلى انبهارٍ بحلاوةِ الإيقاعِ الذي أتلو به ويهزُّ رأسه قائلًا:

- الله.. الله.. فتح الله عليك من أوسع أبوابه.

وفي مرةٍ ازداد افتتانه بي، فرَبَّت على ظهري:

- بورك فيك يا جلال وجعلك الله ذُخرًا للإسلام يا ْبنَ الأكرمين.

سمعتُ لحظتها ضحكاتٍ مكتومة، وكان أحد الأولاد من جيراننا في الشارع في مرمى بصري، رأيتُه وهو يخفي فمَه بيده وأكتافه تهتزُّ من شدَّة الضَّحِك.

ففهمت..

جاءت في بالي على الفور ذكرياتُ المدرسة الابتدائي، والذي زادَ الطينَ بِلَّةً ضحكةٌ عاليةٌ أتت من الصف الخلفي، تلتها ضحكاتٌ أخرى وهمهماتٌ وانقلب الفصل إلى لغطٍ وفوضى. هبَّ الشيخ زكي واقفًا وأمسك بعصاه يمر بها بين الصفوف فعَمَّ السكوت، وانشغلت عيون الأولاد بمتابعة مسار العصا، فقد كان معروفًا عن الشيخ أنه إذا نزل بعصاه على ولد، لا يتركُه أبدًا إلَّا بعد أن تنكسر في يده.

انتهت الحصةُ وذهب كُلٌّ إلى حاله إلَّا أنَّ ما حدث لم يمرَّ مرور الكرام، ثار فضول الشيخ وأخذ يتحرى عني لعدة أيام وجاءت النتيجة لغير صالحي. أوقع الأبالسة بيني وبينه، وفهم حكايتي بشكل مُشوَّش بعد أن أدخل الأولاد عليها كثيرًا من الرتوش. اعتقد الرجلُ أنني لست مسلمًا وإنما يهودي حتى النخاع، وأن أمي تأخذني كل يومِ سبتٍ إلى المعبد لأتدرَّب على تلاوة مزامير داود، فأنا عضوٌ عاملٌ بجوقةِ المُنشدِين الصغار كما أفهموه.

صدقهم الرجل الطيب، وأخذ يتحرَّشُ بي منتهزًا أية فرصة لتكسير العصا على رأسي، ظنًّا منه بأنني كنت أخدعه طوال الوقت.

كنت قليل الحيلة وغيرَ قادر على مجابهته، لكن بمرور الوقت غلبت عليه طِيبتُه ويبدو أن ضميره أنبه فابتعد عني، غير أن حاجزًا نفسيًّا ظل بيننا ولم يكفَّ هو أبدًا عن ملاحقتي بنظرات الاتهام. ومع ذلك لا أنسى له أبدًا يوم أن نجحت وحُزت على أعلى الدرجات في مادة الدين؛ إذ أقبل عليَّ ووجهُه الطيب الحَنُون يحتويني، رَبَّت على رأسي وأخرج من جيبه ورقة بعشرة قروش كاملة وأعطاني إيَّاها، ودعا لي بأن أثبتَ على ديني مهما كانت المغريات.

فهمتُ بالطبع ما يقصد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وانقضت أيامُ المدرسةِ الابتدائيَّة، وأنا لا مصحف ولا جامع أو صيام.

وفي البيت أغلقت أمي الكتاب المُقدَّس، لفَّته في قماشٍ حريرٍ واحتفظت به في الدولاب مع ما بقيَ من آثار جدِّي، ولم تذهب ولا مرة إلى المعبد بعد سفره.

تقول: إنها لمَّا كانت صغيرة كانت تذهب هي وجدَّتي على أقدامهما كل يوم سبت إلى معبد (نسيم إشكنازي) الذي كان في شارع (الكوَّة)، وبعد أن أغلقوه استثقلتا المشوار إلى العباسية حيث معبد (القرَّائين)، تركوا هذه المهمة لجدِّي.

وهكذا بقينا أنا وأمي في الشقة، وكأن كل واحد منا بلا دين.

وفي كل يوم جمعة كنت أتطلَّعُ من الشرفة إلى الأولاد، وهم يسيرون بحذاء آبائهم قاصدين الصلاة. تحوم في سمعي ساعتها نبرات الشيخ الدمنهوري التي طالما سحرتني وأنا صغير، وأتذكَّرُ يومَ أن بكيت على كتف جدِّي وهو يحملني ويخرج مسرعًا من السرادق الذي كُنَّا نعزي فيه بالقرب من ميدان الجيش، وتلفُّني غلالةُ صمتٍ وكأنَّني وقعتُ في أسْرِ شيءٍ لا أدريه. ويعلو صوت المُؤذِّن بالجامع فأجد قلبي مسحوبًا مني، ومع ذلك لا أحرك قدمي وألحقُ بالصلاة، أقترب بمقعدي قليلًا وأضعُ كفِّي على سور الشرفة وأرخي رأسي عليه حتى يعودوا.

أقوم بعدها وأدور في الشقة بلا هدف..

أحدِّقُ بوحشةٍ في صورة جدِّي الغائب.. أفتح دولابه.. أتأمل ما تبقَّى منه.. الطربوش وحذاءً قديمًا وفردتَيْ شراب مستهلكتين وجراب النظَّارة الخاوي.. وعند رجوعي إلى الصالة يحوم في بالي وهو يغلق الكتاب المُقدَّس، ويلفُّ يده على يدي ضاغطًا عليها بحنان ويأخذني ويخرج.. وجدَّتي إيڤون وهي جالسةٌ في موقعها المعتاد على الكنبة، تأكل من طبَق الترمس والقشر يسقط منها في حِجْر الجلباب، وانقضاضها عليَّ يوم أن قلت لها إنها من أهل النار، وفردة شبشبها التي أصبحتُ بفضل الله قادرًا على الإفلات منها، يمرُّ كل هذا في بالي قبل أن أركن بيدي إلى باب المطبخ.

أرى أمي..

ظهرُها تجاهي ومِرْفقاها مثنيان وذراعاها الخارجان من الجلباب البيتي "أبو حمَّالات" أبيضان وبَضَّان، وفي الأعلى عند الكتف حبَّات عرق آخذةٌ في التكاثر من صهد المطبخ ولفح البخار المتصاعد من القِدْر التي أمامها. تكون في قمَّة انشغالها ومع ذلك تشعر بوجودي، تلتفت إليَّ، تومئ لي برأسها أن أدخل، أن آتي بمقعد وأجلس بالقرب منها، أن أتحدَّث معها، لا أفعل، وعندما أتركها يأتيني نداؤها ممزوجًا بالدهشة..

لا أجيب، أتجه إلى الغرفة، وأتمدَّد على السرير وعيناي على السقف..

ويأتيني جدِّي لأبي..

هذا هو ميعاد قدومه، عندما أسمع أذانَ الجُمُعَة ولا أذهب للصلاة، ينتصب أمامي بهيكله الأخَّاذ.. عيناه نفَّاذتان.. أخشاهما.. وساعات يلوِّح في وجهي بالعصا التي في يده.. أدفعه بعيدًا فلا يستجيب.. أغدو فارغًا أمامه.. بلا حراك.. أعرف ما الذي يشغله.. لا أصلِّي ولا أصوم.. ويطفو خيال جدَّتي لأبي أمامي فيتسع صدري، تطلب لي الهداية وتأخذ جدِّي في يدها وترحل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

كُنَّا نُفطرُ أول يوم من رمضان عند أُمِّ حسن..

تعرف أمي نقرة يدها على شُرَّاعة الباب الخارجيّ، ونرى خيالها وهو يتململ على زجاج الشراعة. تنحني أمي بحثًا عن شيء تضعه في قدمها، أنا الأسرعُ أكون قد فتحتُ لها، وفي ثانيةٍ تجلس أُمُّ حسن إلى جوارنا وبالهيئة التي كانت عليها في المطبخ، جلباب بُنصّ كُمّ والشبشب ويبدو أنها رمت الطرحة على رأسها على عَجَلٍ، فلم تستر ذراعيها العاريتيْن وشَعْرُها أغلبه نافر منكوش.

تفوح رائحة اللحم المسلوق منها، وهي تقول لأمي:

- الفطار عندنا النهارده يا أم جلال.

تعرف أمي أنه لا محالةَ ذاهبةٌ ذاهبة، إلَّا أنَّها ومثل كل مرة تحاول الاعتذار.

تقول والحياءُ يملأ وجهها:

- ملوش لزوم كفاية جلال.

تعلو ضحكة أم حسن:

- جلال! جلال مين ده! وهو يسوَى إيه من غير أم جلال، إنتي عايزة الحاج محمود يزعل.

ثم تُربِّتُ على أمي بحنُوّ:

- ربنا ما يقطعها عادة.

وتطير خارجةً، تنادي عليها أمي كي تبقى، فتصيحُ من أعلى بسطةِ السلم:

- الأكل على النار وإنتي عارفة بناتي خيبتهم ماوردتش على حد.

أُنهي واجبات المدرسة سريعًا في هذا اليوم وأقفز أمام التليفزيون متلهفًا على المسلسل العربي، غالبًا ما يكون عن اضطهاد اليهود لسيدنا محمد في أول هجرته إلى المدينة. تكون أمي جالسةً من قبلي وفي حجرها إبْرَتًا تريكو وشَلَّة خيط، ومشروع بلوڤر لي لا يزال في حجم الكف. يبدأ المسلسل فتنظرُ أمي إليَّ خطفًا وبربع عين ثم تعودُ إلى الشاشة، وجهها مشدود وعيناها لا ترمشان. لا تغير القناة مراعاةً لي، لكن أحداث المسلسل تجري على نحو أقوى من تحمُّلها، فتعلو حُمرةٌ خفيفةٌ على وجنتيها وتجري أصابعها على الإبرة

بتوتَّر؛ فتهتزَّ شلةُ الخيط وتسقُط أحيانًا من حِجْرِها متدحرجةً أمامنا، وتخطئُ بالطبع مرة واثنتين في مسافات الغُرَز فتنفخ مُتأفِّفة.

يوقعُ المسلسلُ بنا في مأزقٍ فيتحاشى كلانا النظرَ للآخر أو التفوُّهَ بكلمة، وأشعرُ بها بعد قليلٍ وهي تتسحبُ من جانبي، تغلق على نفسها بابَ الغرفة ولا تخرج إلا بعد أذانِ العصر مرتديةً ملابس الخروج. لم تكن مثل أُمِّ حسن التي كانت تأتي إلينا بأي ثوب، وإنما هي شيء آخر، لا تخرج من عتبة الباب إلَّا في أجملِ هيئةٍ، سواءً أكانت ذاهبةً إلى حفلة من حفلات المُكابِي([1])، أم لشراء جبن وزيتون من عند البقال.

تطلب مني ارتداء ملابسي أنا الآخر، أشير لها بأصابعي أن تنتظر فلم يعُدْ باقيًا على انتهاء المسلسل سوى دقيقة واحدة. ترمقُني بغيظٍ وتُسرع إلى التليفزيون وتُغلقه. أهمُّ بالخروج معها بالبيجامة فتدفعني بيدها نحو الدولاب لأغيِّر ملابسي وأنا أتلكَّأ وأجادل، وفي النهاية أمتثلُ ونهبطُ معًا إلى شقة أم حسن.

تلقانا المرأة على الباب مُهلِّلةً، ويكون الحاج محمود جالسًا بالجلباب البلدي على أريكة في الصالة، يومئ برأسه لأمي مُحييًا وتأخذها أُمُّ حسن وتدخلان. يدعوني للجلوس إلى جواره ويسألُني عن المدرسة وما إذا كنت صائمًا مثل حسن، ثم يعود إلى المسبحة التي في حِجْره. ويكون البيت مليئًا برائحة البَخُور وقرآنُ المغربِ لا يزالُ في أوله، ورغم أن التليفزيون الذي عند الحاج محمود ماركة (جروندج) والشاشة عريضة وأفضل بكثير من التليفزيون الذي عندنا، فإنه يستمعُ إلى القرآنِ من راديو عتيقٍ وغريبِ الهيئة موضوعٍ على رَفٍّ بالحائط وبجواره بطاريَّتان من الحجم الكبير.

تبدو الدهشةُ على وجهي فيشير إليه ويقول لي أنا وحسن: إنه بركة، اشتراه والدي بعد افتتاح الإذاعة المصريَّة بشهر واحد، ويوم أن أُذيع منه أول تسجيل للشيخ محمد رفعت كنتُ في مطلَع الشباب وأهلُ الحارة كلهم مدعوون عندنا في البيت.

أقولُ له:

- هنا في الشقة؟

يتنهَّد..

- لأه يا بْنِي كُنَّا أيامها ساكنين في العباسية، وأول ما اتجوَّزت جيت سكنت في العمارة دي أنا وجدك في شهر واحد، وكانت أمك دي لسَّه عيلة صغيرة.

ويعود للحديث مرةً أخرى عن الراديو وأنه ليس له أخٌ في بَرِّ مصر كله، فتطلّ أُمُّ حسن برأسها من باب المطبخ وعنقها يتقطر عرقًا من الحر والصَّهْد.

تضحك وتصيح بصوتٍ عالٍ ظنًّا منها، أننا لا نسمع مثلها من وَشِّ الوابورين اللذين أمامها.

- ومقلتش لهم إن المحروس بيكمِّل شهر رمضان بطلوع الروح، وبتاخده بعدها لعَمّ علي أبو شفة الكهربائي علشان يصلحه. ومقلتش كمان إنه آخر مرة قال لك إنه مش هيصلحه تاني دا راديو عكر وبيجيب النحس للمحل، ولولا إنك بوست راسه مَكْنْش عمره هيصلحه.

تبدو ابتسامةٌ على وجهِ الحاجِّ محمود ويقول:

- يا شيخة حرام عليكي، أحسن العيال تصدق.

ويقترب المغرب..

نلحظ ذلك أنا وحسن من نبرة المقرئ، وبوادر العتمة التي تلوح من زجاج الشرفة المغلق.

ينظرُ إلينا الحاج محمود ويقول: إلا أذان أول يوم، لا أنا ولا أي أحد من أهل الشارع القدامى يفطر دون أن تأتيه البشارة من الشيخ خلف.

تكون هذه الكلمات أمرًا بالانطلاق، فنتأهَّبُ ونمدُّ أيدَينا إلى صنادلنا المخلوعة بجوار المقاعد. تستوقفنا أُمُّ حسن بإشارةٍ من يدها، تكون قد غسلت وجهها وغيَّرت ثيابها وبدت في هيئةٍ غير التي رأيناها عليها من نصف ساعة، والطبليَّة تتدحرجُ على حافَّتها في يدِ ابنتها الصغرى، والكبرى قادمةٌ وراءها وعلى رأسها صينيَّة الطعام تتصاعدُ منها الأبخرةُ والروائحُ الطيبة، وطبليَّة أخرى تُدحرجها يدٌ أخرى صوبَ الغرفة الداخليَّة التي تجلس بها أمي.

نشبُّ أنا وحسن على أطراف أصابع أقدامنا لنرى ما على الصينيَّة، تلحظُ الأخت الكبرى ذلك، كانت قامتها مثل قامتينا تقريبًا، تبتسمُ وتشبُّ على أصابع قدميها هي الأخرى وبأقصى ما تستطيع حتى لا نرى.

وتقول أُمُّ حسن:

- ملوش لزمه يا خويا مَشْوَرَة العيال، دول صايمين، ودلوقت نسمع الأدان من ميكروفون الجامع اللي جنبنا.

فيشيحُ بيده:

- إلا كده، دي عادة يا حاجَّة.

فتبدي امتعاضها وخوفها علينا، ولا نستمعُ نحن إلى بقية الحوار، نخطفُ السلالم في أربع أو خمس قفزات، ونرى سعيد الأخ الأكبر لحسن داخلًا من باب البيت أثناء خروجنا منه. كان شابًّا ويعمل في ورشة بشارع أحمد سعيد، ورغم أنه الابن البِكريّ للحاج محمود فإنَّ حسن هو الذي فاز وكُنِّيتْ أُمُّه باسمه هو.

لا نشير له أو نكترث به نهرول مسرعين من شارعٍ إلى آخر، ونجد بإزائنا وأمامنا صبية في مثل أعمارنا وأولادًا وبناتٍ أصغر يجرون كلهم لنفس الغرض. تباغتُنا تكبيرةُ الأذانِ آتيةً من ميكروفون الجامع، فنُهدِّئ من خطواتنا قليلًا ونحن نتبادل النظر، ثم ننطلقُ بأقصى سرعةٍ نقدر عليها صوبَ زاوية الشيخ خلف غير آبهين بالأذان الذي نسمعه من جامع الحكومة، وعندما نصل نجد حشدًا من الصغار قد سبقونا وتحلَّقُوا بالزاوية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيخ خلَف رجلٌ عجوزٌ تخطى السبعين بعدَّة سنوات، بنى الزاوية من حُرِّ ماله منذ أكثر من ثلاثين عامًا ويقضي أغلب وقته فيها إما نائمًا أو ينظفها ويؤُمُّ الصلاة، ويرفض استخدام الميكروفون لا في الأذان ولا خطبة الجمعة!

يصعدُ من سُلَّم داخلي يوصل إلى سقف الزاوية..

يبدو رأسه أولًا وعليه عمامةٌ بيضاءُ تتدلَّى منها شراشيب رفيعة ثم باقي جسده، وأول ما يستوي نتأمل برهبةٍ وجهه المستدير ولِحْيَّته البيضاء الكَثَّة وتصدُر عنا في الوقتِ ذاتهِ آهةُ ارتياح، عادةً ما يكون بجوارنا رجلان أو ثلاثة طاعنون في السن من هلافيت الشارع.

يقول أحدهم: طول عمري وأنا أراه بهذه العمامة الثقيلة، أمَا كان أولى أن يستبدلَ بها طاقيةً بيضاءَ في هذا الجو الحار، فيلكُزُه آخر بمِرْفَقه كي يسكت.

يتوقع الشيخ خلَف وجودنا.

يرمُقُنا من أعلى ونشعر بأن سقف الزاوية يرتجُّ تحت ثقل خطواته، وهو يتقدم صوبَ الناحية التي نتجمَّع فيها. يكون أذان الميكروفون قد انتهى فنقول لأنفسنا: سيبدأ الآن. سيبدأ. سيبدأ. ويتأهَّبُ الصغارُ للصياح فور إلقائه التكبيرة الأولى، إلَّا أننا نُفاجأ بأن الأمر ليس كما نحسب، ينحني على قدمه العارية ويهرشها بغيظ، ونلحظُ تأفُّفًا على وجهه. أكيد لدغته حشرة وولَّت هاربة. يعتدلُ بعدها ويحملقُ بإمعانٍ ناحيةَ قرصِ الشمس الآفل، فيتبادل الرجال

الذين بجانبنا نظراتٍ تدلّ على رضائهم بما يفعل، ويقول نفس الرجل الذي تكلم منذ لحظة: أذانُه وحقِّ الله أذان شرعي، فكل شيء يخطئ إلا الشمس.

ويتنحنح هو مرتين وأول ما يقول: الله أكبر الله أكبر، كان الزمام يفلتُ منَّا خاصةً الصغار..

كانوا يصيحون بأصواتهم العالية:

- هيه.. هيه.. هيه..

ويولُّون الأدبار..

كنت أنا وحسن وبعض الصِّبْيَة الآخرين كبارًا عنهم؛ لذا لم نكن نحذو حذوهم ونفضِّل السير مُتمهِّلين بعض الشيء حتى لا يبدو علينا أننا متلهفون على الطعام مثلنا مثلهم، لكن ما إن نترك الشارع وندخل العمارة حتى تركبَنا الشياطين ونقفز على السلالم قفزاتٍ جنونيَّةً وكأنما هو آخر زاد لنا.

نجد الحاجَّ محمود وولده سعيد على الطبليَّة وقد التهما أطايب الطعام تقريبًا، ولم يبقَ إلَّا الدُّهْن والشَّغت وقطَعَ لحمٍ أحجامُها صغيرة، أما الباذنجان المَحْشوّ فقد أتوا على أغلبه هو والملوخية والبازلَّاء والمخلَّلات، لكن لا تزال توجد كميَّات من الأرز والخبز تكفينا نحن والجيران. نندهشُ ونشعرُ بأن في الأمر خُدْعَة، وقلوبنا تقول لنا إنهما قطعًا أكلا مع أذان الحكومة ومسألة الشيخ خلَف هذه كانت وبالًا علينا.

لا نقولُ لهما: السلامُ عليكم..

نجلس إلى جوارهما ووجهانا مُتجهِّمان، حتى يدركا الجُرْمَ الذي اقترفاه في حقنا. الغريب أنهما لا يشعران بنا ولا يحسان حتى بجلوسنا على الطبليَّة معهما، وبلا وعي منَّا أو اتفاق نبدأ أنا وحسن في الأكل بطريقةٍ تجافي أي ذوق أو لياقة. كُنَّا نريد الانتقام لهذا المقلب الذي شربناه، ولو سنحت لواحد منَّا الفرصةُ لفعل مثلما تفعل القطط وخطف قطعةَ لحم من يد الحاج محمود أو ولده دون تردُّد. الحمد لله أن الحاج محمود كان في وادٍ آخر وملهيًّا عنا بما في يده، أما سعيد فبعد أن امتلأت بطنه نظر باستغرابٍ إلى ما نفعل. زغد أخاه بمِرْفَقه في جنبه كي يحترم نفسه على الأكل، ورمقني بنظرةٍ تحملُ المعنى نفسه، لم نكترث به واستمررنا غير آبهين.

لكن من سبق غلب؛ إذ بعد أن انتهيا من أكل الدَّسِم والحادق استدارا إلى صينيَّة الحلوى التي بجوارنا، ونحن في حيرة من أمرنا ولا نعرف أيهما أجدَى لنا أن نظلَّ نأكلُ بقيَّة الطعام الذي تركاه لنا، أم نتركه وندخل في معركة

معهما على صينية الحلوى؛ خاصةً وأن سعيد كان مصممًا على الإتيان عليها وطاقته توازي طاقةَ فحلِ جاموسٍ يافع.

جاءتني عزومتان بعدها من صاحبين لي بالشارع، لبَّيتُهما بالطبع.

سألتُ أمي إن كنتُ أستطيعُ دعوتَهما على الإفطار أنا الآخر، تنشغلُ بأيِّ شيءٍ في يدها وتبدو وكأنها لم تسمعني. يزداد إلحاحي، فتوافقُ مُتبرِّمة. ألقاهما في الشارع وأؤكد عليهما، يصمتان وينظران إليَّ، وعندما ألُحُّ عليهما يقولان: إنهما سيسألان أمهاتهما، وتمرُّ الأيامُ دون أن يأتيني رد، فأعرف أنهما لا يريدان الأكل من يد أمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23

لم يلتحقْ أحدٌ من أفراد شِلَّتنا بالمدرسة الثانوية..

أنا الوحيد الذي التحقتُ بها، حسن رسب مرتين في الشهادة الإعدادية ووقف مع أبيه في محل العطارة، وفهمي ابن عم حسني الباشكاتب عزَّل مع أسرته إلى مدينة نصر، وولدان من العمارة المجاورة دخلا مدرسة الصنائع، أما نادية بنت مدام السُّبْكي التي تسكن في الشقة التي تعلونا فلم أنتبه إليها إلا عندما تصادمنا فجأةً على باب العمارة.

كانت إحدى ضلفتَي الباب الحديدي للعمارة مغلقةً على غير العادة وأنا أنزل السلم قفزًا مثل كل يوم، وبقوة الاندفاع وجدتُ نفسي منطلقًا نحو الضلفة المفتوحة فإذا هي داخلة. سقطت منها حقيبةُ المدرسة، وكيسُ نقودٍ صغيرٍ ومسطرةٌ وأشياءُ رفيعةٌ كانت بيدها، وهبطنا إلى الأرض معًا نلملم أشياءها والحرج والارتباك يملآننا..

يبدو أن زرار البلوزة العلوي كان معلقًا على شعرة، فوقع منها هو الآخر وانفرجت فتحةُ البلوزة قليلًا عن شريطٍ أسود رفيعٍ وبوادرِ صدرٍ يَقِظٍ نافر. صدرتْ عنها آهــةٌ خافتــة، ومالــت برأســها تضمُّ فتحةَ الصدرِ ووجنتاها تتضرَّجان بحُمْرةٍ خفيفة. كانت مثنيَّة على ركبتها مثلي ومن الخجل كانت تواري عينيها، وعندما مدت يدها تلتقط مُشْطَها الصغير الذي سقط بجوار قدمي، غمرتني رائحة أنثويَّة تفوح من كل جسدها، رائحة تبدو عُذريَّةً بريئة؛ لكنها في الحقيقة قاتلة فتَّاكة!

غَضَضْتُ بصري، وأنا أقول:

- الزرار. آه. ثانية واحدة وأنا أدوَّر عليه.

- آه.. الزرار!

ولما وقفنا قالت وهي تنهج، ونداوةٌ خفيفةٌ تتلألأُ عند مَفْرقِ شَعْرِها:

- إزيَّك يا جلال.

- آسف، مقصدش، كنت مستعجل.

- أبدًا أبدًا، دي مفاجأة مكنتش على البال.

- إنتي في سنه إيه دلوقتي؟

- أولى ثانوي.

- أنا في تانية علمي.

ومدَّتْ يدها مُسلِّمةً فأحسست بكفِّها الصغيرة طيِّعةً في يدي، وتركتني وصعدت على السلم وأنا أتابعها متأملًا، وقلبي يُذكِّرني بها لما كانت تأتي عندنا وهي صغيرة في يد أمها، كُنَّا نلعب الاستغماية ونجري وراء بعضنا طول الوقت ولا نكفُّ عن الصياح، أو نجلس صامتين في الشرفة ونصنع بيوتًا من علب السجائر الفارغة التي كان يحتفظ بها جدِّي لسبب لا أعلمه! وفي مرةٍ هدَّت بضربةْ من يدها البيتَ الذي مكثتُ أشيِّدُه ساعةً كاملة، وطفقت تجري في الشرفة وأنا وراءها، وعندما أمسكتُها وبلا تدبيرٍ مسبق مِلْتُ عليها وقبَّلتُها في وجنتها. حدقت فيَّ ساعتها بعينيها السوداوين والدهشة تملأ وجهها، وقالت بصوتها الرفيع الغاضب: إنها سوف تقول لأمها، أمسكت يدها بخوفٍ ورجوتها متلعثمًا ألَّا تفعل، وهي تأبَى وتتوعدني بعلقةٍ سوف آخذها ولا محالةَ من جدَّتي عندما تعلم بالأمر.

لا أظنُّها قالت، أو نسيت هذا الذي حدث.

ولعلَّها تشعرُ بنظراتي التي تحتويها من الخلف وهي صاعدة، أو يحومُ في بالها الذي يجوسُ في خاطري الآن، ففي انحناءةِ الدرابزين التفتت نحوي وأومأت برأسها إيماءَة حُلوة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت أيامٌ وأسابيع وأنا لا أكفُّ عن التفكير فيها، أو التلكُّؤ على باب العمارة لعلِّي ألقاها، وطالما جلستُ في الشرفة مُترقِّبًا قدومها إلى البيت أو خروجها منه.

لمحتُها مرة..

فخطفتُ قميصًا وبنطالًا من أعلى الشمَّاعة، ارتديتُهما وأنا في طريقي إلى الباب، ثم حذائي المُلقَى بجوار الكنبة وانطلقتُ مسرعًا إلى بَسْطةِ السلَّم أتلفَّتُ عليها.

لم أكمل.

لقيت الحاج محمود صاعدًا في موكبٍ صغيرٍ مكوَّن منه هو والبَوَّاب وعم مرزوق السمكري ومعه صبِّيُه شلبي اللَّطْخ، والاثنان يحملان نصف شيكارة إسمنت ومفتاحًا إنجليزيًّا وشاكوش ومسامير لإصلاح صهريج المياه، ووراءهما ساكنٌ بالدور العلوي وأربعةٌ من عيال العمارة ثلاثة منهم حُفاة والرابع بالشبشب والملابس الداخلية، كان واضحًا أنهم أتوا للفرجة.

سلمت على الحاج محمود فسألنـــي عن أحوالي ووجهتي، قلت له بصوت مرتفع وعيني على ناديــة وهي تخلِّصُ نفسها من الأكتافِ التي توقَّفت بوقوفِ الحاج محمود:

- أنا رايح المكتبة يا عم الحاج علشان أشتري أي كتاب خارجيّ لمقرر اللغة العربية بتاع أولى ثانوي.

فسألني الرجلُ بدهشةٍ: ألست في السنة الثانية؟

فقلت بصوتٍ ناعمٍ وهي تمرق إلى جوارنا: بأن أحدًا لا يستغني أبدًا عن السنة الأولى فهي الأساس.

هَزَّ رأسه مقتنعًا بما أقول، وأضاف بصوتٍ أبويّ: معك حق وبارك الله فيك، أما البَوَّاب العجوز فأزاح طاقيَّته البيضاءَ قليلًا إلى الوراء وهو ينظرُ إليَّ متبسمًا ويقول بلكنته النوبيَّة:

- شدي حيلك يا جلال يا ْبنِي، الهم تقيل عليكي، كان الله في العون.

وأشار إلى باب شقتنا المفتوح وهو يضيف، ونظرة ماكرة تبدو في عينيه:

- بس هَرَّصِي على الباب في الأول، دا إنتي من اللهوجة كنتي هتسيبيه مفتوح وتنزلي.

ونظر إلى حذائي:

- وكمان رباط الجزمة يا سي جلال، مالِك سيباه كده! اربطيه يا ْبنِ الحلال أحسن تتكعبلي وبعدين تتكعوري على السلم، اربطيه اربطيه اللهَ يرضى عليكي.

لم ألتفتْ إلى كلامه وقفلتُ راجعًا والغيظ يعَضُّ قلبي، وأتساءل بيني وبين نفسي عن هذا الرجل الكركوب الذي طلع لي في البخت، أيكون لاحظ شيئًا؟

لم تكن أمي بالشقة وأنا كمَنْ فقد نصف عقله ولا أعرف ما الذي أفعله كي أرى نادية، وأروحُ وأجيءُ في الشقة وأقومُ وأجلس.. أريدُ أن أراها.. الآن.. الآن الآن وليس بعد دقيقة.

بدَّلت ثيابي، وفكرةٌ مجنونةٌ تلوح في بالي. قميص وبنطال آخران، وحذاء وجورب جديدان، ونظرتُ في المرآة أتأمل نفسي، طولي وعرضي، شعري، لون القميص، ولم أشعر إلَّا وأنا أدقُّ على باب نادية.

فتحت لي مدام السُّبْكي بمريلة المطبخ:

- أهلًا يا جلال، مش بعادة يا ْبنِي!

رمشت بعينيَّ ثم تبسَّمت، ولم يفتح الله عليَّ بعدها بشيء.

وقفت أحدِّق فيها كالأبله، تعطَّل عقلي عن العمل ولا أعرف ما الذي أصاب لساني، كل الذي جال بخاطري لحظتها أنِّي أوقعت نفسي في ورطة وأني سوف ألقَى حالًا الجزاء الذي أستحقُّه.

- مالك مخضوض كده ووشك اصفر، ماما بخير؟!

- ماما. آه. بخير يا تانت. أنا كنت عايز...

- عايز إيه ومال صوتك عامل كده ليه، إنت عيَّان يا ْبنِي؟

- آه، عندي شوية برد، وكنت عايز كتاب من الآنسة نادية.

- سلامتك، وكتاب إيه ده اللي انت عايزه؟ وهو أنتم يا ْبنِي في سنة واحدة؟

- لا يا تانت أنا في سنه تانية، بس المواد زَيّ ما حضرتك عارفه مَبنيَّة على بعض.

كانت مدام السبكي امرأة طيبة، فانطلَى عليها الكلام ونادت على ابنتها بصوتٍ عالٍ:

أتت نادية ولما رأتني سهَّمت بعينيها قليلًا، فقالت لها أمها بدهشة:

- دا جلال ابن مدام كاميليا إنتي مش عارفاه وللا إيه؟ دا أنتم ياما لعبتم مع بعض وانتو صغيَّرين.

فأجابت بصوتٍ خافتٍ:

- عارفاه يا ماما عارفاه.

ثم قطَّبت ما بين عينيها كأنما تتذكَّر، وأردفتْ وابتسامةُ اعتذارٍ تلوح على شفتيها:

- بس حكاية اللعب دي واحنا صغيرين مش فاكراها.

- طيب يا بنتي دخَّليه الصالون وشوفيه عايز إيه علشان أنا داخلة المطبخ.

سرت خلفها حتى أجلستني على مقعدٍ بالقرب من باب الصالون، وسألتني وفي عينيها شقاوة:

- وهو احنا كُنَّا بنلعب مع بعض واحنا صغيرين؟ أنا مش فاكرة حاجة من دي.

والتفتت برأسها ناحية باب المطبخ، ثم سألتني عن الذي أريده وتركتني وذهبت.

هالني الترتيبُ والنظامُ وفخامةُ الصالون، المقاعد صحيح من طراز قديم، لكنها كلها مذهبة وما زالت بزهوتها ولها بطانةٌ فضيَّة، ومائدة رخاميَّة سوداء اللون عليها مزهريَّة كريستال، وسَجَّاد من الحائط للحائط، ومكتبة صغيرة في الزاوية بها ضلفةٌ زجاجيَّةٌ تضم دُمْيَةً لعروسة وتماثيل صغيرة. حالُهم أحسن من حالنا بكثير، وأهل أمها تجار وشيوخ بالأزهر، ناس كرام كما سمعت ويرعونهما.

عادت بعد برهةٍ قليلة وفي يدها الكتابُ الذي سألتُها عنه. سبقتها رائحةُ عطرٍ هادئ. كان واضحًا أنها وضعته للتَّوّ، وعليها روب آخر غير الذي رأيته منذ دقائق، لونُه رَماديٌّ فاتح ومُشجَّر بورد صغير بلون نبيتي، وشَعْرُها لا أعرف ما الذي فعلته به، أصبح مُلفتًا. الحق أنه أصابني الغرور، لما أحسست أن كل هذا من أجلي.

جلست على المقعد المجاور لي وكان في موضعٍ ترى منه باب المطبخ، وأخذنا نقلب صفحات الكتاب معًا. لم يكن في ذهني بالطبع استفهامٌ محدد أودُّ معرفة جوابه، وبرغم ذلك كنت أبدو أمامها جادًّا وشديد الاهتمام، وأول ما أشير إلى إحدى الصفحات كانت تقول:

- هيه دي اللي إنت عايز تعرفها؟

أُجيب وأنا أهزُّ رأسي:

- أيوه أيوه.

- عايز تعرف إيه فيها؟

فأسكت.

وآخذ الكتاب من يدها وأقلِّب فيه، وعندما أتوقَّف تقول:

- ودي كمان؟

- آه ودي كمان.

- دي ورقة فاضية إيه اللي إنت مش فاهمه فيها؟

وتوقَّفت عيناي على شفتيها وهي تتكلَّم، وكانت أصابعنا تتلامس بلا قصد فينتابُها ارتباكٌ خفيف، وكنت ألاحظ أنها ترمقني بين الحين والآخر، ونظراتُها

تقول إنها تفهم غرضي وأن كل هذا الذي أفعله كذبٌ في كذب وأشياء ملفقة.

لم أشعر إلَّا وأنا أضعُ كفِّي على يدها فسحبتها في الحال ونظرةُ عتابٍ تلوحُ في عينيها، أما أنا فأعدت كفِّي ثانيةً إلى مسند المقعد وكأن ذلك حدث مني بلا قصد واستمر الحديث بيننا.

فعلتُها ثانيةً..

لكن الزمام أفلت مني هذه المرة، أرحت كفي كله على يدها وبلا وعي مني وجدت نفسي أضغط عليها ضغطة خفيفة وأرفعها وألثمها بشفتيَّ.

هبَّت واقفةً وأنا معها.. رجعتْ خطوةً إلى الوراء إلَّا أنِّي لم أتراجع.. اقتربتُ منها.. نمشٌ قليلٌ بأعلى وجنتيها.. لمسته بشفتي.. أنفاسي وأنفاسها تتدافعان.. قبَّلتُها في نفس الموضع الذي قبلتها فيه وهي صغيرة، وخطفتُ الكتاب من يدها وانطلقت مسرعًا ناحية الباب..

قبل أن أنزل درجتين على السلم التفتُّ إلى الوراء، وهي تقولُ لي قبل أن تغلق الباب:

- يبقى إبعت الكتاب مع تانت كاميليا، إوعى تجيبه إنت.

وأردَفَتْ بدلال:

- فاهم وللا مش فاهم..

نزلت مسرعًا وقلبي يرفرف في صدري وينادي عليَّ، وأنا أستمهله حتى نصل إلى الشقة ويختلي كل منَّا بالآخر، وعند انحناءة السلم ومن الفرحة واللهوجة والتَّوَهان اصطدمت بعم إدريس البَوَّاب الذي كان صاعدًا، وعلى كتفه جردل تتساقط منه قطرات ماء على جلبابه.

صاح فيَّ ضاحكًا:

- جرالك إيه النهارده يا جلال أفندي، إنتي سرحانة كده على طول، إنتي كنتي فين يا عفريتة؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24

تصحو أمي في السادسة إلَّا ربعًا..

تبدأ يومها بإعداد ساندوتشات الفول والجبن، وأحيانًا الحلاوة الطحينية والبيض المسلوق ومعهما العيش (الكاشير)[2]، ثم تلفُّها في ورق جرائد وتضعها في الجيب الخارجي لحقيبتي، التي أكون قد أعددتُها من الليل وتركتُها بمدخل الشقة.

وحالًا حالًا تفتح باب الشرفة فيغمر الصالةَ ضوءُ النهار، والذي غالبًا ما يكون خفيفًا في هذه الساعة إذا كُنَّا في الشتاء، ويتسرب النور بالتالي إلى الغرفة التي أنامُ فيها من مُربَّعات الزجاج الإنجليزيّ المُحبَّب التي تحتلُّ النصف العلوي من واجهة الباب.

كما تأتيني الأصوات من الشارع..

عم صبحي بندائه الرتيب على الحليب الطازَج، كان معتزًّا بنفسه وببضاعته التي يحملها على قسطين كبيرين مربوطين بخُطَّافين من الحديد في الإطار الخلفيّ لدرَّاجته. لا يكرر النداء إلا مرةً أو مرتين، وله في كل ناصية شارع موطئُ قدم تتجمَّع فيه نسوة البَوَّابين وهن يحملن في أيديهن كيزانًا وسلاطين من الصاج.

وعَمّ هلال الذي لا يكفُّ عن الصياح على الجرائد والمجلات التي يحملها في حافظةٍ من الورق المُقوَّى، تتدلى تحت إبطه برباط من الدوبارة معلَّق في كتفه. وياويلنا لو كان هناك خبرٌ جديد، حادثةً مثلًا أو هجمة للشرطة العسكريَّة على من أسموهم - وقتها - بالإقطاعيِّين الجُدُد، أو تصريحٌ ناريٌّ للرئيس أمام المراسلين الأجانب، فساعتها يصبح عم هلال شخصًا آخر، يدبُّ بقدمه على الأرض ويُشيح بيده لأعلى ويصيح بإلحاح وانفعال مُحْدثًا فضيحة في الشارع، كان يبدو لنا - آنذاك - ليس كبائعِ جرائد مُتجوِّل، وإنما على أنه أحد المشاركين في صنع هذا الحدث!

وقد يأتي الثنائي سعيد وزكيَّة مبكرَيْن بعربتهما الكارُّو، وعليها كُلُّ أصناف الخضراوات والفواكه التي لا تُباع عند الفكهانيَّة، كالجوافة والتوت والجُمَيَّز.

يقفان أسفل عمارتنا، حيث تبدأ زكية بالنداء على الخضار الصابح بصوتٍ عالٍ أشبه بالغناء. ولطالما رأيتُها وأنا في طريقي إلى المدرسة وهي مبطوطةً على الكارُّو، قدماها متربتان وممدودتان أمامها وعروق رقبتها منتفخة كالحبال، ورأسها الذي يزيد قليلًا على حجم ثمرة الكرنب يدور يمينًا ويسارًا

مع النشاز الخارج من فمها، أما سعيد الذي يرتكن بمِرْفَقه على قائم التعريشة فكان يتأملها بافتنان وهو يمسح شاربه بطرف لسانه. وأول ما تنتهي من وصلتها يضع إصبعَي الإبهام أسفل شَحْمتَيْ أُذُنِيه ويتوتر كفَّاه الواصلان حتى منتصف عمامته، ويبدأ هو الآخر في النداء. لكن والحق كان نداؤه ذا إيقاعٍ عذب، وأرقَّ بكثيرٍ من صوت زكيَّة الذي كان أشبه بالسرسعة.

وتكتملُ الملهاةُ لو تجاوب معهما الحمار الذي يشدُّ الكارُّو..

كان ضامرًا وله كَرِشٌ كبيرٌ وكفلان ليسا مستديرين أو جلدهما مشدود كسائر الدَّوابّ، وإنما يكادَان أن يكونا مُستطيلَيْن وتعلوهما بقعٌ متناثرةٌ أخذت في الازدياد هذا الشتاء حتى وصلت إلى منتصف بطنه، ربما من الجَرَب أو كثرة الهُزَال. وهو على ما يبدو له في الطَّرَب، كُنَّا نراه وهو يتلاعب بأُذُنَيْه الكبيرتَيْن تبعًا لمسار الغناء خاصةً عندما يكون بصوت زكية، وكانت قوائمه تتقلقل على الأرض في هِزَّاتٍ صغيرةٍ مرحة، وبين الحين والحين يكفُّ عن الحركة تمامًا مكتفيًا برفع منخريه في الهواء وقلب شفته إلى أعلى. أظن أنه في هذه اللحظات يكون في أقصى درجات الاستمتاع بالغناء، بل وفجأةً كان يقطع الطريق على سعيد آخذًا منه زمام المبادرة، ويرد هو على زكية بوصلة من النهيق الطويل.

من الظلم تصنيفُ هذا الذي يصدر عنه على أنه مجرد نهيق - عادي- كالذي يفعله غيره من الحمير، بل كان نهيقًا فيه نغمٌ وفيه شجنٌ وحلاوة، ولا يصدر إلَّا من حمار موهوب! ولا أعتقد أن أحدًا في الشارع يقدر على النوم بعد وصول هذا الفريق، حتى ولو كانوا مثلي نومُهم ثقيلٌ ولا يصحون إلا بصعوبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تأتيني كل هذه الأصوات مشوَّشةً غير واضحة، وأشعر بحركة أمي في الشقة، ورغم ذلك أظل تائهًا ولا أعرف ما إذا كان كل هذا يحدث في اليقظة أو في المنام، وهي ثوانٍ قليلة ويخطفني النوم من جديد وأبدو أمام نفسي كمَنْ يهوي في فراغٍ معتم.

وتذهب أمي إلى المطبخ؛ لتعدَّ لنفسها كوبًا كبيرًا من القهوة المخلوطة باللبن الحليب.

لم يكن هذا المشروب معروفًا وقتها في عمارتنا ولا حتى في حي الظاهر كله، اللهم إلَّا البيوت التي عاشرت الأجانب. جدَّتي هي التي أتت به إلى بيتنا من صديقة لها كانت تعمل (كَمَريرَة) في بيت القَطَّاوي باشا، وكانت النسوة يتعجَّبن من هذا الذي نشربه ويقُلْن:

- حد يا ختي يعمل كده!

- اللبن يا أم إيزاك، اللبن الحليب! ويتحطّ على إيه! على القهوة بتاعة المزاج وعَدْلة الراس!

وفي مرة قالت أُمُّ حسن لجدَّتي: إنها لما حكت لزوجها لم يصدق، وعندما طلبت منه أن يجرب رد عليها ساخرًا:

- إنتي تتكلمي في اللحمة والبامية والكوسة ولحد القهوة ملكيش دخل.

التفتتْ جدَّتي إليها بدهشة، فأردفتْ:

- معلوم دا راجل صاحب مزاج ومبيدقش القهوة إلَّا سادة ومحوِّجة بالحبَّهان، ولو جت له مرة من غير وِشّ كان يزعق ويعمل غارة وساعات يرميها على الأرض.

أفلت لسان جدَّتي منها كالعادة:

- وطبعًا لازم ياخد لحسة أفيون معاها.

فنظرت إليها أُمُّ حسن بغضبٍ ولولا أنها تحب أمي وتعمل لها حسابًا لردت على جدَّتي باللازم، وإن كان هذا لم يحُلْ دون تراشقٍ خفيفٍ بينها وبين جدَّتي ثم خرجت زعلانة مننا، ولم تطُبّ شقتنا بعدها إلَّا بعد صلح وحق وحلفانات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجلس أمي بعد ذلك على الكنبة في الموضع الذي كان يُؤْثِرُه جدِّي وطالما جلس فيه، رشفتين والثالثة وتنادي عليَّ كي أصحو من النوم.

يكون نداؤها أول الأمر هادئًا لطيفًا، وباسمي المجرد.

- إصحَى يا جلال.. جلال.. يا جلال..

ثم تتصاعدُ وتيرةُ الصوت عدَّة درجات وتأتي بنبرةٍ حادَّة، أما اسمي فيتمُّ استبداله بالأوصاف المنكرة:

- إنت يا ولد، إنت يا حمار! إصحى يا زفت! بقولَّك إصحى يا بلوه أنت وإلا هجيلك بالشبشب!

وتلتقط أنفاسها مردفةً بنبرةٍ كلها معاناة:

- يا ربي إيه المَرَار ده، هو احنا اصطبحنا لموَّال كل يوم يا هباب إنت!

وأنا بالطبع في عالمٍ آخر، وأكادُ أكونُ ميتًا ولست نائمًا..

الغريب أن أمي تعرف أنه لا فائدة من هذا الذي تفعله، فلست أنا الذي يصحو من مجرد نداء! ومن أين؟ من غرفة لغرفة! لكنَّها عادةٌ تعوَّدت عليها أو لعلَّه من قَبيل التسخين؛ إذ سرعان ما تهبُّ واقفة، وفي وقفتها كانت يدها تصطدم أحيانًا بكوب القهوة باللبن وأنال أنا بالتالي شتمة أو شتمتين!

تدخلُ مندفعةً إلى سرير جدِّي حيث أصبحتُ أنام الآن، ويكون جرس المُنبِّه قد بدأ في الرنين هو الآخر. يتكاتف الاثنان عليَّ حتى أرفع رأسي من الفراش، المنبه وهو من مُخلَّفات الجيش الإنجليزي، وله صناجات نُحاسيَّة تجلجل حتى الشارع، فيبدو أنه كان مخصصًا للعساكر الكسالى أو ربما للتعذيب، وأمي من الناحية الثانية تشدُّ البطانيَّة من فوق جسدي وتلقي بها على الأرض، وهي تصيح وتضرب بكفَّيْها على حاجز السرير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25

اليوم..

وقبل حتى أن تتناولَ أمي رشفةً واحدةً من كوب القهوة باللبن وجدتني أمامها، تطلعت إليَّ غير مصدقةٍ فتقدمتُ منها وقبَّلتُها في مَفْرِقِ شَعْرها. تبسَّمت بدهشة، فزدتُ من تقرُّبي لها وانحنيتُ مُقبِّلًا يدها، فلم أكن أعرف من قبل أن الحب جميل إلى هذه الدرجة، وأن نادية يمكن أن تفعل بي كل هذا.

وطرتُ إلى المدرسة..

كان اليوم يوم إثنين..

وهذا اليوم إمَّا أن يكون ظريفًا خفيف الدم أو يومًا ثقيلًا، فالأمر يعود إلى الحالة المزاجية للأستاذ البصراطي الذي كان عندنا في الحصتين الأولى والثانية.

كان مُدرِّس أوَّل اللغة العربيَّة وتجاوزوه أربع مرات في وكالة المدرسة، ويقولون: إن زملاءَه أصبحوا نُظَّارًا بدءًا من العام الماضي، بل ويؤكد مرقص أفندي معاون المدرسة أن مدير التربية والتعليم بالمنطقة كان زميله في السنة الأولى بكلية دار العلوم، إلَّا أنَّ الأستاذ البصراطي لم يتخرج معه في الميعاد الطبيعي، آثر المكوث بالكليَّة سبع سنوات وترم.

ولفك عقدته وإيهامه بأنه شخصٌ مُهمٌّ قلدوه منصب الرائد العام للمدرسة، وهو منصب شرفي أهم ما فيه بالنسبة إلى الأستاذ أنه يجلس إلى جانب حضرة الناظر في المناسبات والاحتفالات عند تسليم الكؤوس والميداليات. وتكريمًا للأستاذ واتِّقاءً لشره - كما كانوا يتهامسون - كان حضرة الناظر بعد أن يسلم الكأس للفريق الفائز في التصفيات النهائية، يدعوه أحيانًا لتقديم ميدالية أو اثنتين، ولم يكن يقدمها بالطبع إلا للفريق المهزوم!

غير أنه لم يفهم الأمر على هذا النحو..

وكانت الدقائقُ العشرُ الأولى من كل حصة، تضيع في الكلام عن وظيفته الجديدة.

يقول: إنه بصفته الرائد العام للمدرسة قرر كذا وكذا، وأنه أوقف الأستاذ فلان عند حده لأنه لا يفهم في أصول التربية، أما الأستاذان مهدي طابع وفهمي ناشد اللذان سوف يُحالان إلى المعاش الشهر القادم فهما متجاوبان معه

ويُثنيان على أفكاره، والمدرسة كانت في حالٍ ولما عُيِّن هو في هذا المنصب أصبحت في حال آخر.

نُبدِي الإعجاب بكلامه، ونقول: أنت لها يا أستاذ، كان الله في العون!

تتغير نبرة صوته لتُحاكي نبرة المسئولين الكبار الذين يتحدثون بجهاز التلفاز، يقول وعيناه مسبلتان قليلًا: أمانة ووُضِعت في عُنُقي، أأهرب منها! كلَّا وألف كلَّا، ثم يتثاءبُ ويضيفُ بنبرةٍ أخرى تنمُّ عن صوتٍ يعاني صاحبُه التعبَ والإجهاد: أتعرفون يا أولاد؟

تتسعُ حدقاتُ أعيننا ونمتدُّ بصدورنا إلى الأمام، فيكمل: أسبوع بأكمله وأنا أسهر حتى الفجر..

ويسكت.

نقول كلنا في صوت واحد: لماذا يا سيادة الرائد العام؟

يقول: لأني مشغول بإعداد خطة جهنميَّة لنقل المدرسة نقلة نوعيَّة لتصبح في مصافِّ مدارس أوروبا، وأنا يا أولادي الكرام المحترمين لن أعرض هذه الخطة إلَّا على السيد الوزير مباشرةً، نعم السيد الوزير وليس أحدًا غيره، نصحني بذلك أحد زملائي المتقاعدين، وهذا سِرٌّ يا أولاد حذارِ أن تفشوه لأحد، فنحن في زمن لا يعلمه إلَّا الله..

نكتمُ ضحكاتنا ويسأله أحدنا فجأةً: هل الرائد العام هو الأعلى يا أستاذ أم وكيل المدرسة؟

ينظرُ إلى السائل متأففًا من جهله، ويردُّ على الفور بصوتٍ قاطع: طبعًا الرائد العام يا مُغفَّل!

ثم يُخفض صوته قليلًا، ويقول: هل تعلمون يا أولاد أن الأبحاث الحديثة في علم التربية تذهبُ إلى أن الرائد العام أهمُّ بكثيرٍ من الناظر. وعندما يجد أننا لا نزال على صمتنا ووجوهنا المتطلعة إليه تتوقع كلامًا أكثر، يضرب بسبَّابته على قفصه الصدريّ ويقولُ بصوتٍ حاسم ولكن أكثر خفوتًا: أما من وجهة نظري، فهذا المنصب يعلو على منصب مدير التربية والتعليم نفسه.

نتصنَّع كلُّنا العبَط والبلاهة، ونقول في نفسٍ واحد:

- آه والله صحيح! كانت غايبة عَنِّنا فين دي؟

ويهبُّ أحدُنا من مقعدة قائلًا بانفعال:

- ويمكن أحسن من الوزير كمان؟

يبدو الخجلُ على وجه الأستاذ البصراطي ويقول بصوتٍ ناعم، وهو يُربِّتُ على ظهر هذا الطالب:

- مش للدرجة دي! الرائد العام حاجة كده زَيّ وكيل الوزارة، زَيّ مستشار الوزير.

ويردف قائلًا:

- عارفين ليه يا أولاد؟

نسألُ كلُّنا، وبنغمةٍ ممطوطةٍ والدهشةُ الكاذبةُ ترتسمُ على وجوهنا:

- ليه يا أستاذ؟

يتبسَّمُ من قِلّة مداركنا:

- علشان أنا صاحب رسالة يا أولاد، أنا لا أكترثُ بالمناصب.

ثم يمطُّ شفتَه السُّفلَى، مشيحًا بيده في الهواء:

- يعني إيه ناظر وللا مدير وللا حتى وزير، أنا راجل تربوي أدعو إلى مكارم الأخلاق وأعالجُ النفوسَ المريضة.

فنُدخل في رَوْعِه أننا صدَّقنا ونقول:

- أكيد أكيد، بارك الله فيك يا كبير الأساتذة.

غير أن واحدًا من الصفوف الخلفيَّة باغت الأستاذَ مرةً وقال:

- بتعالج النفوس إزاي يا أستاذ، بحقن وللا ببرشام؟!

وكان نطقه للكلمتين الأخيرتين بصوتٍ خافت، إلَّا أنِّي أظنُّ أن الأستاذ سمعهما؛ إذ سرعان ما احمرَّ وجهُه ودمدم غاضبًا:

- بتقول إيه يا ولد؟ علِّي صوتك شوية يا جبان.

وكي لا يتعكر مزاج الأستاذ، شاركناه كلنا في تقريع الولد الذي تكلم حتى مضت الأمور على خير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولي أنا وزميلٍ آخر يُسمى خيري واقعة لا تُنسى مع الأستاذ..

ففي مرة وأثناء الشرح تراءى إلى آذاننا ضجيجٌ خفيفٌ آتٍ من غرفة الموسيقى، حيث كان طلاب أحد الفصول يعزفون في حصة الهوايات. وهو أمرٌ يحدث باستمرار ويمرُّ علينا مرور الكرام عندما يكون عندنا أي مدرس، لكن في هذه الحصة ومع الأستاذ البصراطي بالذات اختلفت المسألة..

نظرنا إلى بعضنا البعض وبسرعةٍ رفع أكثرُنا إصبعَه شاكيًا، حاول الأستاذ إفهامنا أنها ضَجَّةٌ لا تُذكر، لكننا أصررنا على موقفنا وأننا لا نسمع الدرس بشكل جيد.

وقال طالبٌ بلهجةٍ جادَّة:

- الأصول أصول يا أستاذ، والناس اللي حوالينا لازم تعرف إنه لما يكون الرائد العام في المنطقة دي كله لازم يسكت ويلزم الأدب! دا الرائد العام يا ناس..

أُسقط في يد الأستاذ، أصبحت كرامتُه على المَحَكّ؛ خاصةً وأنه لاح في وجوهنا اتهامٌ له بالتخاذل وأن هذا ليس من خصال من يكون رائدًا عامًّا للمدرسة! تلفَّت حوله وأشار لي أنا وزميلي خيري وانتدبنا للذهاب إلى مُدرِّس الموسيقى؛ كي نرجوه ونستسمحه في خفض الصوت قليلًا. وطلب منَّا أن نحدثه بذوق وكياسة لأننا لا نمثل أنفسنا في هذه المهمة وإنما نمثل الأستاذ نفسه، وهو كما نعلمُ ويعلمُ الجميعُ صاحبُ رسالةٍ ويحملُ مِشْعلَ التربية على كاهله؛ غير أننا فهمنا موقفه اللَّيِّن هذا فهمًا آخر، فالأستاذ (سُمْعَة) مدرس الموسيقى حادُّ المزاج ولا يطيق الذبابة لو طارت بالقرب منه، ويقولون في المدرسة: إنه (شُصَلي) وضيِّق الأُفُق، وأكيد الأستاذ يعرف ذلك ويتحاشاه.

ذهبنا مُسرعيْن، فالتقانا الأستاذ سُمْعَة بوجهٍ عابس.

قلنا له بلهجةٍ استفزازيَّة، وبنبرةٍ أشبه بالأوامر:

- سيادة الرائد العام للمدرسة بيقولَّك بَطَّل الدوشة دي اللي إنت عاملها يا أفندي إنت وإلَّا.

نظر إلينا من أعلى لأسفل ثم من أسفل لأعلى مدهوشًا مما نقول، واقترب منَّا خطوة فتراجعنا واحدةً مثلها لنحافظ على المسافة التي بيننا، فلا أحد منا يعلم رِدَّة فعله، (شُصَلي) ويجبُ الحَذَرُ منه.

- دوشة إيه يا حشرة مِنَّك له، بقى شُرَّابة الخُرْج ده باعت يهددني وبيقول وإلَّا.

وزفر ساخرًا:

- وإلا إيه يا سنكوح يا هلفوت منك له إنت وهو؟

أجبت بأعصاب باردة وكأن الأمر منطقي وطبيعي، وكان عليه فهمه من تلقاء نفسه:

- وإلَّا هياخد إجراء معاك، وإجراء شديد كمان.

- هو قال كده؟

هززنا رأسينا نحن الاثنين بما يفيد التأكيد، وأضاف خيري:

- الطيب أحسن يا أستاذ سمعة وإلا إنت عارف إن سيادة الرائد العام معندوش تفاهم.

وأضفتُ أنا متممًا:

- أي والله يا خيري يا خويا دا الأستاذ البصراطي ما بيرحمش وأيده زَيّ المرزبة، فاكر لما عَبَط الواد حامد ونزل عليه بالخرزانة؟

وأكمل خيري الذي كان معي على نفس الموجة:

- ودي حاجة تتنسي، دا بيقولوا الإسعاف شالته من قُدَّام الأستاذ وقالت إنه معدش ينفع تاني، وأحسن حاجه تودُّوه على بيته علشان أمه وأبوه يلقوا عليه النظرة الأخيرة.

وقلت أنا وعيناي على الأستاذ سمعة، وإصبعي تكاد تشير نحوه:

- ولما ضرب الواد الزناتي وكفاه على وِشُّه، يا عم دا راجل شَرَّاني ومستعد يعملها مع أي حد.

فصرخ في وجهينا قائلًا:

- رائد عام إيه وزفت إيه! جتكم داهيه إنتو وهو، بقى واقفين قدامي عمَّالين تغنُّوا وتردُّوا على بعض، يللا يللا يا جحش منَّك له من هنا.

ولما تباطأنا في الانصراف من أمامه لنأخذ منه ردًّا نعود به للأستاذ البصراطي، صوَّب لي لكمةً تجاهَ عيني بالضبط. كنتُ مستعدًّا لها بالطبع، فملت بجزعي وتفاديتها إلَّا أنَّ المجرم عاجلَنِي بركلةٍ ألقتني أرضًا، أما زميلي خيري فولَّى هاربًا. تدحرجتُ مبتعدًا لما رأيته يتجهز للركلة الثانية، وفي ثانيةٍ كنت واقفًا وأطير كما الريح من أمامه.

عدنا مَذْعُورَيْن للأستاذ وصياحنا واستغاثاتنا بطلب النجدة تسبقنا، فوقف يستمعُ لشكوانا ويرى آثارَ الحذاءِ على بنطالي، وكنتُ ألاحظ أن قدميه تتقلقلان على الأرض استعدادًا للانطلاق ووجهُه من شدَّة الغضب لا يستقرُّ

على حال، أما طاقتا أنفه فاتسعتا وبدأتا في الارتعاش وإخراجِ زفيرٍ متلاحق. من الواضح أننا أيقظنا غُدَد الشَّرِّ لديه وزدنا نشاطها فشحذته وجهَّزته لمعركةٍ فُرضت عليه فرضًا؛ خاصةً وأن كل الفصل ناشد الأستاذ بألَّا يتسامح في حقِّه وأن كرامته - وبالعربي الفصيح - أصبحت في مَهبِّ الريح، ولا مفرَّ من أن يتلقى المخطئ جزاءه لأن من يقُمْ بإهانة سفراء الرائد العام فكأنما أهان الرائد العام نفسه، فهذه معادلة رياضيَّة - وكما صاح أحد الطلاب بصوتٍ مسرحيّ - يجب أن تُحترم من كُلِّ صغيرٍ وكبيرٍ في المدرسة.

اغمَقَّ وجهُ الأستاذ من شدة الغيظ وضرب باب الفصل بقدمه مندفعًا صوبَ غرفة الموسيقى، ولبثنا كلنا خلف النوافذ نتابع صراع العمالقة هذا الذي على وشك الوقوع، وما هي إلا دقيقةٌ حتى علا الصوت وسقطت الآلات من أيدي العازفين، وأتى السُّعَاةُ والعمَّالُ من كل مكان، ورأينا حضرة الناظر يهرولُ مسرعًا في رهط من المدرسين.

كان منظره ملفتًا..

أزرار القميص بعضها لا يزال مفتوحًا ورباط الحذاء مفكوك، وهو نفسه ملخوم في رفع حمَّالات البنطال، أعتقد أنه كان في دورة المياة وصرخوا عليه.

وبعد تحقيق طويل عرفوا أصل الحكاية..

الفصل كله خصم خمس درجات من السلوك، أما أنا وخيري فالرَّفْت عشرة أيام مع إنذار بالفصل النهائي، وأتى الحاج محمود ووقَّع على تَعهُّد بأن أسلك سلوكًا مستقيمًا وألَّا أعود مستقبلًا لما فعلت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26

كان هذا أول العام الماضي..

أخذ الأستاذ البصراطي يدخل إلى الفصل بعدها وعيناه تَطقَّان بالشَّرَر، ووجهه يقول إنه مستعدٌّ لارتكاب جريمة مع أيِّ واحدٍ منَّا، وإذا صدرت من أي طالب حركة ولو بسيطة من تلك التي كُنَّا نفعلها في الأيام الخوالي، كان يثني يده إلى الخلف ويدفعه أمامه - كالمجرمين المقبوض عليهم - إلى حضرة الناظر مقترحًا عليه استدعاء الشرطة. يظل حضرة الناظر يُهدِّئ من ثورته، ولا يتنازل الأستاذ أبدًا حتى يُعاقب الطالب بالرفت ثلاثة أيام. يُسرع بعدها إلى مكتب مرقص أفندي ليقف على رأسه وهو يكتب خطاب الرفت، ويُرغمه على إضافة عبارة أو عبارتين شديدتَي اللهجة على الصيغة التقليديَّة للخطاب.

أما أنا وزميلي خيري فكُنَّا نعرف حدودنا معه..

لزمنا الصمت تمامًا ولم نكن نلقي بالًا بالدرس الذي يقوله الأستاذ، بل انشغلنا بالأستاذ نفسه. همُّنا كله كان محصورًا في متابعة تحركاته في الفصل؛ خاصةً بعد أن حفظنا التكتيك الذي يتبعه معنا، فقد كان يشرح الدرس وهو يتنقل بخُطَاه من موقعه بجانب السُّبُّورة إلى منتصف الفصل حيث نجلس، وعندها يحدث خلل ما في جهازه العصبي وتقلُّ سيطرته على حواسِّه. كانت أصابع يديه ترتعش قليلًا، وعيناه - وبالرغم منه - لا تحيدان عن متابعتنا من أعلى النظَّارة المرتخية على أرنبة أنفه. وبطبيعة الحال لم يكن يودُّ كشف أمره أمامنا ويحاول بكل طاقته إيهامنا بأن الأمر يأتي بطريقةٍ غير مقصودة وأنه ينظرُ لغيرنا كما ينظر لنا، إلَّا أنه كان يفشل في ذلك.

وعندما كنت ألحظُ أن شَحْمَتَيْ أُذُنَيْه أصبحتا حمراوين أو ازديادًا في رعشة أصابعه، أعتبر هذا إشارة خطر لنا وأخبط مرفقي بحذَرٍ في جنب زميلي فيفهم ما أعنيه.

في اللحظات التي يمسك فيها الأستاذ بزمام نفسه كان يحاول تضليلنا، إما بالنظر إلينا بطريقةٍ حياديَّةٍ أو يسألنا سؤالًا؟ إن أجبنا عليه بالخطأ أو الصواب أو حتى لم نُجِب، كان يُربِّتُ على أكتافنا بطريقةٍ أبويَّةٍ ويمضي عنَّا معتقدًا أن الأمر انطلى علينا وأننا نعيش في أمان كاذب. يعود مرة ثانية من حيث أتى ويعطينا ظهره فترةً طويلةً موجهًا حديثه للصفوف الأولى، عسى أن نخرج من جُحْرَينا ونرتكب أية غلطة. وفجأةً يستديرُ نحونا في التفاتةٍ سريعةٍ فيجدنا في

انتظاره، الأيادي موضوعة على الصدور، ووجهانا يكسوهما الأدبُ والامتثالُ كأننا ملكان من السماء، الابتسامة تكون في أعيننا فقط.

وعندما جاء امتحان آخر العام كان العقاب الأكبر لكل الفصل، ولولا تدخُّل حضرة الناظر ولجنة الرأفة التي عُقدت لنا على عَجَل ما نجح أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تغيرت الأحوال هذا العام بعد أن بددوا تلاميذ فصلنا القديم، فصل ثانية رابع، نفوهم ووزعوهم على باقي الفصول. وبالنسبة إليَّ أنا وخيري حوَّلانا إلى فصل ثالثة عاشر، ومعروف أن هذا الفصل سيِّئ السُّمْعة ولا يضمُّ إلَّا المُعاد قيدُهم بعد استنفاد مرات الرسوب وأصحاب العاهات وأراذل الطلاب، ولم يسبق أن التحق أحد منه بالجامعة.

عندما سألْنَا معاونَ المدرسة عن هذه النقطة بالذات رجع بظهر مقعده حتى التصق بالجدار، فبدا بنطاله مغبرًا كأنما لم يخلعه عن جسده شهرين متصلين وعنق الشراب متهدلًا، أما الحذاء فبلا لون تقريبًا.

نظر في وجوهنا المُتطلِّعة إليه، وقال بعد أن نفخ في زجاج النظَّارة وبدأ في تنظيفه بمنديل مُتَّسخ كان في حِجْره:

- الورق اللي عندي بيقول إن تلميذ واحد بس هو اللي عملها من سبع سنين ونجح بمجموع أربعة وخمسين في المِيَّة، وآهو مكتب التنسيق ودَّاه معهد في دمنهور.

- طب والباقيين يا مرقص أفندي راحوا فين؟!

- فين! على الشارع طبعًا، اللي بقى مكوجي، واللي واقف بعربية كُشَري، واللي صلاة النبي دلوقتي بقى صبي فسخاني، واللي شَغَّال في الحشيش!

- يعني واحد بس هو اللي فلح ودخل معهد؟

- ومين قال لكم إنه فلح! أنا سمعت من جماعه قرايبه إنه اترفد من سنة أولى لاستنفاد مرات الرسوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتيت اليوم للمدرسة وجلست إلى جوار خيري، وما إن بدأنا نثرثر حتى دخل الأستاذ البصراطي.

صرخ طالبٌ في الصف الأخير - اسمه الليثي - صرخةً مُدوِّيَة:

- قيام لسيادة الرائد العام للمدرسة.

قمنا والتفتنا ليس إلى الأستاذ، وإنما إلى الوراء حيث دِكّة الليثي.

فالجميع يودُّ متابعة المراسم التي يصرُّ على تأديتها في الأيام القليلة التي يأتي فيها إلى المدرسة، فلم يكن يأتي إلَّا يومين أو ثلاثة في الأسبوع على أكثر تقدير. وبالنسبة إلى الغياب (معمول حسابه)، فالفرَّاش الذي يمرُّ بورقة الغياب كانت له شهريَّة عند الليثي، وإذا فاح الكلام كان مرقص أفندي يتدخل ويُنهي الأمر دائمًا لصالح الليثي؛ كما كانت له طُرُق وحِيَل أخرى لا نعرفها. وضع الليثي - بصراحة - كان مميزًا، وله كلمة نافذة في المدرسة كحضرة الناظر تمامًا!

يتنحنحُ الليثي في البداية، ثم يصيحُ بصوتٍ جهوريّ:

- ثابت كل الفصل. ثابت. ثابت. ثابت ولا حركة، اكتم نفسك يا تلميذ مِنَّك له.

ويبدأ في السير بخطوةٍ عسكريَّة متجهًا إلى الأستاذ، يداه ترتفعان حتى مستوى كتفه، وركبتاه تنثنيان بحركةٍ لولبية، وتأخذان قدميه معهما إلى أعلى ثم تعودان بهما إلى الأرض، مُحاكيًا بذلك المشية العسكريَّة للرَّايِخ الثالث.

تظلُّ أعيننا عليه وهو يتبختَرُ أمامنا كجنود النَّازي الذين كُنَّا نراهم في أفلام الحرب العالمية الثانية، وأول ما يصل إلى الأستاذ يضرب الأرض بقدمه ضربةً قوية، مُؤدِّيًا التحية العسكرية مثلما يفعلون في الجيش بالضبط. ولم يكن ينسى بالطبع هزَّ كفِّ يده أمام عينيه هِزَّاتٍ عصبيَّة ولعدة مرات - أثناء تأدية التحية - معبرًا عن الصرامة وانفعاله بجلال الموقف.

يصيحُ ثانيةً:

- تمام سيادة الرائد العام، القوة 41 طالب، 7 رفد من حضرة الناظر، 9 نوم، واحد محجوز في قسم الوايلي، والباقي مستعد للدرس.

كان الأستاذ البصراطي يتقلقلُ في مكانه من شدة الغيظ، إلَّا أنه لا ينطق أو يُبدِي أي استياء ظاهر. يتمتمُ بصوتٍ خفيض: انصراف، متمنيًا من الله أن تنتهي هذه المراسم على خير، فهو يعلم أن الذي أمامه ليس طالبًا أرسلوه ليتعلَّم، وإنما هو في مواجهة مجرم يرتدي ملابس طالب.

يدور الليثي على عقبيه بطريقة مُلفتة ويعود بنفس المشية إلى مقعده، وعيوننا عليه ثانيةً ومعنا عينا الأستاذ ودهشتُه. يتثاءبُ الليثي بعدها بصوتٍ عالٍ، ثم يعود برأسه قليلًا إلى الوراء ويغفو غفواتٍ قصيرةً إلى أن تنتهي الحصة. أما الأيام التي يكون فيها مُجهدًا من سهرة بالليل أو خلافه، فكان الطالب الذي بجواره يترك له الدِّكَّة، ويمدُّ هو رجليه على مقعده (ويتصلطح) بكتفه ورأسه على الحائط أو يثني رأسه على الدكة (وهات يا نوم). وفي هذه

الحالة يصبح المربع الذي هو فيه منطقة مغلقة، ومحظور على المدرسين الاقتراب منها.

استحالة أن يكون هذا طالبًا..

طول بعرض وشارب مفتول، ونَدْبَة أعلى حاجبه الأيسر من ضربة سِكِّين، ويقولون إنه متزوج بامرأتين. هو ليس أصلًا من مدرستنا، ابن أحد تجار روض الفرج، وحوَّلوه من مدرسته هناك بعد أن دخل هو وشِلَّتُه في معركةٍ بالعِصِيّ مع الباعة السَّرِّيحة الذين يسدون مدخل السوق. خرج بكفالة من النيابة وكادوا أن يحرموه من دخول امتحان الثانوية العامة، لولا أن أباه حصل له على استثناء من الوزير فأتوا به إلينا. ويحلف أحد عمال المدرسة برحمةِ أُمِّهِ بأن سُمعة الليثي كالطبل في روض الفرج، وأنه من بعد العصر يلبس الجلباب واللاسة ويقف في المحل مع أبيه، ويُؤكِّد بأنه رآه أكثر من مرةٍ بشمروخٍ في يده لحفظ النظام في المحل وطرد الصعايدة المُتطفِّلين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأ الأستاذ البصراطي في الدرس، وعنوانه دراسة تحليليَّة لإحدى القصائد الشعريَّة.

ظل يشرح لنا بيتًا بيتًا إلى أن جاء إلى بيتٍ لا أعرف لماذا لم يحذفوه من كتاب الوزارة، الغَزَلُ فيه ليس عفيفًا بالمرة ومثيرٌ للكلام واللغط بين الشباب أمثالنا. حاول الأستاذ المرور عليه سريعًا ليتفادى التعليقات والرذالات؛ لكني كنت في الانتظار رفعت يدي وسألتُه والبراءةُ على وجهي عمَّا يقصده الشاعر من هذا البيت، وما معنى لفظ بذاته.

نظر إليَّ وهو يعَضُّ بأسنانه على شفتيه، وعيناه تقولان (هو أنت تاني يا بْنِ الكلب).

لا شكَّ في أن ذكريات ماضينا المشترك حامت في باله في هذه اللحظة؛ خاصةً وأن زميلي خيري أبدَى عدم فهمه هو الآخر، وتلاه الليثي الذي على ما يبدو لم يكن قد دخل في النوم واستفزَّه حديثنا.

أدرك الأستاذُ بأنِّي أوقعت به، فاقترب منِّي وهو يصيحُ بطريقةٍ هستيريَّة:

- يعني مَنْتَش فاهم! مش فاهم إيه يا إبليس! هتعيد أيام زمان تاني إنت والمضروب اللي جنبك، روح يا خويا اسأل حد من الفاميليا، وللا أقولك روح اسأل جولدا مائير وهيَّه تفهِّمك، أظنَّك عارفها؟!

لا أعرف من أين اكتشف أن أمي يهوديَّة، ليس بمَلفِّي في المدرسة أي ذِكْر لهذا الأمر، لا بُدَّ أنه سأل عني بعد واقعة العام الماضي، أو ربما تَعقَّبني حتى

مسكني وأجرى بنفسه تحرِّياتٍ عني.

الغريب أني لم أهتزَّ من هذه المباغتة كما كنت أفعل أيام الابتدائي والإعدادي، لم أشعر بأن ما يقولون عنه أستاذًا ألقى شتمةً في وجهي أو عرَّض بي.

قلت له بهدوء: هل تقصد أن أمي يهوديَّة، وأنت تعايرني بها؟!

ردَّ على الفور وهو يشيحُ بيديه معتذرًا:

- حاشَ لله. لا أقصد هذا.. أنا.. أنا..

وتناوله الارتباك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27

قلبي يخفقُ كلما أتيت إلى محطة التِّرَام المواجهة لسينما مصر..

أسبوعان، قل ثلاثة أو أربعة، وأنا أطرق الباب على مكتب الأستاذ شنودة مشرف الدور طالبًا الإذن بالانصراف بعد الحصة الثالثة.

أقول له بصوتٍ مؤثر: إنه جاءني خبر الآن بأن جدِّي عضَّه كلبٌ ضالٌّ وأودُّ اللحاق به في مستشفى الدمرداش، أو أتحجَّج بالذَّهَاب مع أمي العمشاء إلى مستشفى (سيد جلال) ليضعوا لها مسَّا في عينيها...

كثيرًا ما كان يأذن لي، وإن ركب رأسه ولم يفعل لم يكن أمامي حلٌّ سوى الحيَل والرُّشَا أو مغافلة عم سيد الهلف بوَّاب المدرسة. وكانت منافع زميلنا الليثي - أعطاه الله الصحة - تظهر في أوقات الشدة هذه، فعندما كنت أبدو مهمومًا من عدم السماح لي بالخروج، كان يتعاطف معي ويقول وهو ينزع بالمِلْقاط شعرةً بيضاءَ نبتت في شاربه:

- ولا يهمَّك يا واد يا جلال ولو عايز تزوَّغ من أول النهار إتَّكل على الله وأنا المسئول، ما أنت عارف إن المدرسة كلها في جيبي الصغيَّر.

أقوم من جانبه، فيجذبني من يدي مكملًا الحديث بنغمةٍ ساخطة:

- دي عالم أنطاع متعرفش يعني إيه لهلبة الحب والقلب لما يتنكِّد، أنا مش فاهم ليه ما يدِّرسُوش الحب وتفانينه حصة ولَّا اتنين كل أسبوع! كل اللي فالحين فيه، جا وجتا! وظا وظتا! والجَذْر التربيعي والجذر التكعيبي!

أسحب يدي، فيردف مبتسمًا:

- عمر ما حد هيفهمك يا نمس غير واحد حَبِّيب زيِّي، دا انا حبيت لغاية دلوقتي تلاتة على أم العيال ولسَّه قلبي عطشان.

ويدفعني بيده مشجعًا:

- يللا يللا يا ْبنِ الحلال.

ألوِّحُ له ضاحكًا وأُسرع إلى حمَّام المدرسة حاملًا حقيبتي، أسحبُ القميصَ المكويّ من أحد جيوبها، أرتديه في ثانية وأصفف شعري ولا مانع من لحسة من كريم الشعر الخاص بأمي والذي أكون قد وضعته خلسةً في الحقيبة، ورشَّة من زجاجة الكولونيا (اللاڤندر) أو حتى من زجاجة العطر الخاصة بأمي، أيهما تيسَّر لي أخذه معي صباحًا. وبحركة من حركات أنورِ وجدي ألقي

بالحقيبة بقوة وعاليًا تجاه ولد من الجيران، يتلقَّفها مني وكأنها كرة كي يسلمها للبوَّاب (عم إدريس) ريثما أعود، وأطير أنا كالريح من شارع إلى شارع حتى أصلَ إلى محطة الترام وأندسُّ بين الناس، العرق يتصبَّب منِّي وعيناي تتطلَّعان إلى الترام الآتي من العباسيَّة، وعندما أراه بعرباته الصفراء وصلصلته التي تتلاحقُ مُنْبئةً عن دخوله إلى المحطةِ أفقدُ السيطرةَ على نفسي. أطيش قليلًا وأتلفَّت حولي، أفتِّش عنها بين فتيات المدارس النازلات من العربة الأولى والثانية والثالثة، أو اللائي أفلتن مني ولا زلن يعبُرن الشارع متجهاتٍ إلى الطُّوار. وأرى عن بُعدٍ فتياتٍ خارجاتٍ من المكتبة التي على الصف الآخر، أو واقفاتٍ يشترين اللبّ والآيس كريم من المحل الملاصق لسينما مصر.

أقول لنفسي لعلَّها بينهن وأُسرع باحثًا عنها غير أنِّي لا أجدُها فأعود إلى المحطة مرةً ثانية، وأقف بين أناسٍ جُدُدٍ يائسًا ولسعةُ وَجْدٍ تنغزُ قلبي، وأرنو ببصري من جدِيدٍ ناحية العبَّاسية، عسى الترام القادم أو الذي يليه ولا فائدة أيضًا، فأرجع إلى البيت وفؤادي خالٍ.

ومضت الأيامُ والقلبُ يلحُّ؛ حتى إني صممت يومًا أن أُغير على شقَّتها مثلما فعلتُ في المرة السابقة، وليكن العذرُ هذه المرة كتاب الإنجليزي، ارتديتُ ملابسي بالفعل، وكدتُ أصعد لولا بقيةٌ من العقل.

خفت..

خشيتُ أن أُثيرَ انتباه مدام السبكي فآتي بالوبال على رأسي ورأسها.

قلتُ في نفسي الشارع أسْلَم، ظللتُ أتسكَّع فيه بالساعات لعلِّي ألقاها، أو ربما تطلُّ من الشرفة، وأقترب من عم إدريس، أجلس معه على الدكَّة وكلام في كلام، عن البوظة والنوبة والسودان والشارع الذي أصبح قذرًا بعد أن خرج عم طلبة الكنَّاس على المعاش. أحدِّثُه وعيناي على الشارع أو بسطة السلم، وهو يصغي ويعبث بأصابعه في شاربه أو يزيح شال عمامته البيضاء الكبيرة من عند أذنه ويهرش وهو يكزُّ على أسنانه، وعندما يملُّ مني كان يفرد ساقيه ليقوم وهو يقول بصوتٍ أبوي:

- ما تطلعي تذاكري كلمتين ينفعوكي في الامتحان يا سي جلال، إنتي قاعدة بس للكلام والخبص واللبص..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعُدْ طيفها يلوحُ أمامي بين الحين والحين كما كان، بل بقي معي، لازمني، أراه في كل وقت، في اليقظةِ والمنام، وصوتُها وهو يداعب أُذُنِي يوم أن

التقينا على باب العمارة، والقبلة التي تركتُها على خَدِّها يوم أن صعدتُ إليها مُتحجِّجًا بكتاب اللغة العربية..

وبِتُّ أسألُ نفسي ألا تحبني مثلما أحبها؟

ألا تشعر بي كما أشعر بها؟

عيناها تقولان ذلك، ووجنتاها من شدة الحُمْرة تكادان تنطقان، وأصابعنا التي تلامست بقصدٍ وبغير قصد، أم كل هذا خيالٌ في خيال..

ولما طال بي الوجد، قلتُ أسألُ أمِّي فهي خبيرةٌ بهذه الأمور.

قمتُ إليها مسرعًا، كانت تمدِّدُ ساقيها على الكنبة ونظَّارة القراءة ساقطةٌ على أنفها، ويداها ممسكتان بعددٍ قديمٍ من مجلات الأزياء العالميَّة التي كانت جدَّتي تشتريها أيام تألُّقها في عالم الخياطة. لم تبالِ بقدومي فوقفت إلى جوارها أتطلَّع إلى ما تحدق فيه باستغراق، صورة كبيرة لمجموعةٍ من حسناوات الخمسينيَّات يتهادين فوق منصَّةٍ خشبيَّةٍ في عرضٍ بملابس البحر ذات القطعتين، وفي الصحيفة المقابلة إعلان بالألوان الزاهية عن نوعٍ من الخمور المُعتَّقة مكتوب باللغة الإنجليزية أسفله "إن من لا يتذوقه لا يعرف للحياة معنًى".

جلست قُبالتها وسعلتُ سعلةً خفيفة، انتبهتْ والتفتتْ إليَّ فبدأتُ الحديث بالكلام في بعض الأمور التافهة، وهي ترد بكلماتٍ مُقتضبَة "آه.. آه.. طيب.. خلاص خلاص عرفت"، وعيناها لا تزالان على المجلة. وأول ما طرقت الموضوع الذي قدِمتُ من أجله ودون أن أصرِّح بالطبع باسم (نادية) مُدَّعيًا أن الأمر يهمُّ صديقًا لي ولا يخصُّني، وضعتِ المجلةَ جانبًا واستدارت بكل جسدها نحوي.

قالت بشيءٍ من الحِدَّةِ الممزوجة بالسخرية:

- علشان البنت هنا خيبتها تقيلة! تحب زيِّنا ويمكن أكتر مننا ساعات، بس وده المهم إنها ضعيفة وغلبانة ومبتعرفش تعبر عن حبها، وإن اتجرأت مرة وعملتها يفضحوها دا إن منزلوش على راسها بالشباشب وللا حبسوها في أوضة وتربسوا الباب عليها زَيّ المساجين.

أقول مصبرًا نفسي، ومعللًا احتجاب نادية عني طوال هذه المدة:

- أنا بقول إن الكسوف هو السبب.

تهز رأسها رافضةً فأقول:

- الكسوف يا ماما.. الكسوف.. الكسوف.. يعني ما حسِّتيش بيه ولا مرة مع بابا؟

- كسوف إيه يا خايب..

ثم تردف بصوت مرتفع قليلًا ونغمة ممطوطة:

- الخوف.. الخوف..

وترنو ببصرها تجاه رقعة في زاوية السقف، أعدمتها الرطوبة حتى بانت بطانة الطلاء كئيبةً غامقة، فأعرف أنها تسرح في عالمها القديم، وأهمُّ بالعودة إلى غرفتي ثانيةً. تشير لي بأن أجلس، وتميل نحوي وهي تقبض على معصم يدي بكفَّها، ويجيئُني صوتُها خافتًا رقيقًا، وهي تقول: إنها هي التي أحبت أبي قبل أن يحبها هو، أحبته أكثر مما يحبها، ولو عادت بها الدنيا إلى الوراء ما اختارت غيره رغم ما تعرَّضت له من عذابٍ وفراقٍ للأهل والأحباب.

أتطلَّعُ إليها بحنانٍ وألثُم كفَّها الجاثمة على معصمي..

تسحبُ كفَّها وتفاجئني برنَّةِ صوتٍ غير التي كنتُ أسمعها من قبل، تقول: إنها لو لم تُشاغل أبي لأخذ منها قطعة القماش ولم تَرَهُ بعدها، فمرةً تقول له: تعالَ الأسبوع القادم لترى البضاعة الجديدة، ومرةً تقول: لا تشتري اليوم فالأوكازيون سوف يبدأ الشهر القادم، وهذا سِرٌّ سمعته من سكرتير الخواجة سمعان صاحب المحل وممنوع عليها إفشاءَه للعملاء.

وترخي عينيها وهي تضيف بدلال:

- وأقولُّه بس إنت مش زبون، إنت حاجة تانية.

وكَمْ من المرَّات أخذته من يده في جولاتٍ بالمحل ليرى القمصان والجوارب والأحذية، وفي اليوم الذي توقَّعته طلب منها الخروج بعد انتهاء ورديتها في العمل. تناولا الغداء في الشارع وشربا عصير برتقال من محل (ويلسون) بالعتبة الخضراء، ومشيا في شارع الجيش وشارع عبدالعزيز، وأنها هي التي دبَّرت أمر انتقاله من حي الحسين حيث كان يسكن إلى حي الظاهر.

وتمضي في الكلام، ووجهُها يتألَّقُ بفرحةٍ مكتومة:

- تعرف أول مرة بوسنا فيها بعض إمتى؟

من الحياء أنحني على الكليم متشاغلًا بفردة الشبشب التي أفلتت من أصابعي وانقلبت على وجهها، وهي لا تكترث بالحُمْرَة التي بدت على وجهي.

وتقول: إنها هي التي باغتت أبي وقبَّلته في وجنته وهما يرتِّبان حاجياته في الغرفة التي استأجرها على السطوح، وعندما استدار إليها أفلتت من يده.

- وتعرف إن عمك إدريس الراجل الكُهْنَة ده مرة شافنا...

فأكادُ أبتسمُ من عَمِّ إدريس هذا الذي يتابع أحوالنا الغراميَّة منذ أيام أبي؛ غير أنِّي أقاطعها بانفعالٍ ظاهر:

- ماما.. يا ماما من فضلك، بلاش كلام في الحاجات دي.

وينتابُني إحساسٌ بالحرَج مما تقول، أعبِّر عنه بعودتي إلى الكلام ثانيةً في الموضوع الذي بدأنا به من قبل، وبتصميمي على رأيي والسخرية من البنت الجريئة، ولكن بكلمات محسوبة مراعاةً لها.

ترد عليَّ بغضبٍ وتتهمُني بالغباء وأنِّي لم أتخلص بعدُ من الجهل الفلاحي الذي يجري في دمي، وتنحرفُ بالحديث عامدةً لتلوك في أشياءَ لا أعرف عنها الكثير أو حتى القليل. كنت لا أزال جاهلًا بديني فلم أُحسن جدالها، وعندما أشعر بأنها تحاصرني وتكاد تُضيِّق عليَّ الخناق، كنتُ من الحنق وقلَّة الحيلة أرفع صوتي حتى أُسكتها وينتهي الأمرُ بيننا إلى خناقة.

والغريب أنه في أعقاب كل مشاجرةٍ من هذا النوع لا يزيد خصامنا على نصف يوم، يبدأ أحدُنا بعدها بمبادرة الصلح مع الآخر.

أتحيَّن وجودها بعيدًا عني وأُلقي بشيءٍ ثقيل على الأرض، فتأتي مسرعةً لتجدني ممسكًا بكاحلي وأجِل على القدم الثانية، تفهم وتبتسم، أو أذهب إليها مباشرةً حيث تجلس وأُقبِّلها في مفرق شعرها فتحتويني بحنان، وكثيرًا ما كانت هي التي تُقبل عليّ.

وتأتي بعد ذلك المناورة، والتي غالبًا ما يقوم بها الطرف المبادر بالصلح.

تبدأ المناورة دائمًا بمحاولةِ لجَسِّ النبض.

أقول وكأن كلامي جاء عَرَضًا وبلا قصد:

- والله دي الناس شكلها يفرح وهيَّه خارجة من صلاة الجمعة، الغني والفقير، الصغير والكبير، اللي صلُّوا جوَّه واللي فرشوا حصير على الأرض، واللي بيسلِّم على الناس بعد الصلاة واللي واللي..

لا تقاطعني مثلما كانت تفعل من قبل احترامًا للصلح الذي أبرمناه منذ دقائق، فأستطردُ أنا كلمةً من اليمين وكلمة من الشمال عن سماحة الإسلام، وأنه دين الفِطْرة، والعقل، كلمات أشبه برءُوس الموضوعات كنت أعرفها من

دروس الدين أو من الشيوخ الذين يتحدثون في التليفزيون. ومن جهلي كنت أفرغُ من الحديث سريعًا، وأتوقَّفُ مُحدِّقًا في وجه أمي لأعرف أثر ما أقول، أجده جامدًا خاليًا من أي تعبير، حتى عيناها لا وميض فيهما أو نظرة تُستشفّ، فأتذكَّر ساعتها بيت الشعر الذي طالما حفظناه في المدرسة:

لقد أنلتُك أذنًا غير واعيةٍ.. ورُبَّ مُنْتصتٍ والقلبُ في صممٍ

وأفهم وأسكت..

أما هي فتكلمني عن باريس بلد الجمال والنور حيث يعيش جدِّي الآن، وأن اليهود يملكون هناك نصف محلات شارعَيْ ريڤولي وأوسمان، وفي أمريكا لهم كلمةٌ مسموعةٌ وهم أصحاب البنوك والمصانع والمال، وكلمتين عن آينشتاين وفرويد وماركس وفلان الذي أخذ جائزة نوبل في الطب، أو في الأدب أو العلوم.

وعندما تشعر بأني أميل نحوها بوجهي وحدقتاي تتسعان، تظهر الراحة على وجهها وتبدو وكأنما قلبها يقول لها إنه ليس أمامها إلا جولةٌ واحدةٌ وتُجهز عليَّ.

تبدأ حينها في التلاعب بصوتها، يأتيني هادئًا، مؤثرًا، وهي تسترجعُ معي ما كانت تُلقِّنه لي وأنا صغير عن سيدنا يعقوب وسيدنا إسحاق أو داود، والمَلَاك الذي أتى بالكبش إلى سيدنا إبراهيم.

أقول لها:

- بس دا كان فَدْو لسيدنا إسماعيل.

- بتقول إيه!

- لسيدنا إسماعيل..

- جبت الكلام ده منين يا جاهل، الفدو كان لسيدنا إسحاق!

وتكررها ثانيةً بنبرةٍ قاطعة، وهي تمسك بأُذُنِي على سبيل المداعبة:

- سيدنا إسحاق.. إسحاق.. إسحاق..

أصمِّمُ على ما أقول وهي كذلك، وعندما تدركُ أن الصلح الذي بيننا على وشك الانهيار وأننا مقبلان على مشاجرةٍ أعنف من السابقة، تبتسم في وجهي وتهتدي إلى حَلٍّ وسطٍ وتقول:

- إسماعيل وللا إسحاق، الاتنين أولاد سيدنا إبراهيم.

فأؤكد على كلامها بإيماءة من رأسي.

وشيئًا فشيئًا يلحظُ كلانا فتورَ الآخر مما يُقال، إلى أن جرت واقعةٌ ألزمت كُلَّ واحد منا حدودَه ولم نجرؤ بعدها في الكلام عن الدين، ديني أو دينها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28

كانت واقعةً محرجةً لي ولأمي..

إذ طَقَّ في رأسي أن آتي بشيخ يهديها إلى الإسلام، شيخ بجُبَّة وقُفْطَان حامل للقرآن ويفهم في الدين، فأنا لا أنفع معها، جاهل ولا أملأ عينيها. ولِمَ لا؟ خاصة أني سمعتها مرة تحكي لجدَّتي عن (إستر) التي كانت تعمل بقسم النوڤوتيه بمحل سمعان، فقد قالت لها: إن إستر هذه تركت دينها وأسلمت بعد أن تزوجت من جارها في السكن.

وعندها ردت جدَّتي بحنق:

- مش إستر دي بنت حِنَّة (البَلَّانة) اللي كانت بتلفّ على بيوت اليهود كل يوم سبت؟

- أيوه أيوه يا ماما.

- بنت جريس اللي كان بيشتغل تمرجي في المستشفى اليوناني؟

- هيَّه هيَّه يا ماما.

- مش غريبه عليهم، يعملوها ويعملوا أبوها كمان، ما هم ناس أوساخ ومَلهُمْش مبدأ، إوعي عمرك تبُصّي في وِشَّها مره تانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت ما أزال في الثامنة عشرة وخبرتي قليلة والموضوع نفسه حساس، فمع مَنْ أتكلم؟ ومن يرشدني إلى هذا الشيخ؟

الحاج محمود مثلًا.. هو في مقام أبي لكني أخجل من الكلام معه، حسن.. لا معنى له وقليل الحيلة مثلي، واكتشفت في هذه اللحظة أنه ليس لي أحد في هذه الدنيا بعد أمي ألجأ إليه، لا خالة ولا عمَّة ولا صدر حَنُون ألوذ به، ولما أتت أُمُّ حسن في بالي انطلقت إليها مسرعًا.

توهَّج وجهُها بالفرحة وعَرَّت رأسها للمرَّة الأولى أمامي منذ أن كبرت، وهي تدعو الله أن يُكلِّل مسعاي بالنجاح، ومن شدة فرحتها قبَّلتني على رأسي ووجنتي حتى يداي انحنت تُقبِّلهما بصوتٍ لاهثٍ ولمعةٍ

تطلُّ من عينيها:

- مفيش غيره شيخ الزاوية، نروح له سوا يا ْبنِي، إستنَّى عليَّه بس لما ألبس.

وأخذت أنفاسها وأردفت:

- وإن مفلحش تروح الأزهر إنت وعمك الحاج محمود، وتجيبوا واحد تاني وتالت ورابع لحد ما ربنا يكرمها.

- شيخ الزاوية! آني زاوية فيهم؟

- يوه يا جلال، الزاوية اللي كُتّ إنت وحسن بتجروا وتروحوا لها أول يوم في رمضان تسمعوا الأدان وترجعوا لنا بالبشارة.

قطَّبتُ حاجبي متذكرًا الشيخ خلَف، الرجل الصالح الذي كان يصعد على سقف الزاوية للأذان، وعيونُنا من أسفل ترنو إليه برهبة.

- قصدك الشيخ خلف؟

- الشيخ خلف يا ْبنِي كبر ومعدش بيطلع من البيت، وأهل الشارع راحوا جابوا واحد مطرحه من البساتين اسمه الشيخ سَلَامُونِي أبو جاموس، آكل شارب نايم في الزاوية.

قلت:

- طيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توجهنا إلى الزاوية معًا، وانتظرناه إلى أن خرج بعد صلاة العصر.

كان مُلفنًا في كل شيء، في قِصَر قامته وبدانته وزناخته، ويقبض بيده اليمنى على عصًا غليظة أشبه برِجْل السرير، واللِّحْيَة أعوذ بالله نافرة شعرة هنا وشعرة هناك ومُخضَّبة بالحِنَّاء. لم أرتَحْ له من النظرة الأولى، وأظن أنه بادلني نفس الشعور. ظللتُ أرمقُه بامتعاض وهو يمضي أمامنا، كان أشبه بقاطرةٍ تتحرك وليس بني آدم يمشي، ولا يكفُّ عن السُّعال والبصق في الشارع.

دفعتني أُمُّ حسن لألحق به.

- أروح فين يا ماما! وده ينفع ده! دا عامل زَيّ الشوضلي.

- يا ْبنِي حرام عليك، ومتخدش بالمظاهر.

- إنتي شايفه التعويرة التي فوق حاجبه وللا الزُّقْلَة اللي في إيده، دا باين عليه بتاع مشاكل وخناقات.

- وبعدين يا جلال، أنا غلطانة اللي جيت معاك، إنت هتندَه عليه ولّا أسيبك وارجع.

اتجهتُ إليه واستوقفته، فالتفت إليَّ متأففًا:

- عايز إيه يا ولة؟

باغتتني نبرةُ صوته، نعير الجاموس ألطف منها، ولحقت بنا أُمُّ حسن، انتحينا به جانبًا وطفقت هي تحكي له حكاية أمي وهو ينصتُ ويهز رأسه، وعندما تدخَّلت في الحديث موضحًا بعض التفاصيل الغائبة عنها زجرني قائلًا:

- احترم نفسك يا ولة، ولما الكبار يتكلموا الصغار يحطُّوا لسانهم جوَّه بقهم ويسكتوا.

نظرت إليه ساخطًا وكدت أن أهمَّ بتوبيخه لولاها، لكزتني في رُكبتي كي أسكت.

وبعد أن فرغت من الحديث وشرح الحكاية من أولها لآخرها، بادرها قائلًا:

- خلاص خلَّصتي؟

- أيوه خلصت يا سيدنا.

فالتفت إليَّ:

- وانت يا وَلَه، يللا يللا قول إللى عندك؟

فأشحتُ له بيدي بأنه ليس عندي ما يُقال، فرد عليَّ قائلًا:

- أحسن برضه، وكفاية المختصر المفيد اللي قالته خالتك حَكِم أنا ما عنديش دماغ لكلام العيال.

ثم أزاح العمامةَ إلى الوراء، وأخذ يلعقُ شارِبَه وهو يقول لها بالفُصحَى:

- لا تقلقي يا امرأة فأنا لها، اربطي العقدة في عنقي وتوكَّلي على الذي لا يغفل ولا ينام.

- بتقول إيه يا سيدنا؟

تدخَّلتُ موضحًا:

- بيقولِّك إن الحكاية سهلة.

- سهلة! سهلة إيه يا ولد! أنا قلت كده يا واد يا كداب إنت، دا شغل كبير هشتغله على مَيَّه بيضة، وبعدين سهلة وللا صعبة دا شغلنا وإنتو لكُوا النتيجة.

وزفر بحنق:

- دا إيه البلاوي دي على المسا!

أشحتُ بيدي في وجهه وقبل أن أنطق، سبقتني أُمُّ حسن قائلةً:

- بس خلِّي بالك يا سيِّدنا دي راسها ناشفة وزَيّ الطوبة.

- طوبة مين يا حاجَّة! دا أنا أبو جاموس والأجر على الله، ومش هتاخد في إيدي غلوة واحدة، حافردها واتنيها في إيدي زَيّ حِنَّة العجين.

ومشينا نحن الثلاثة..

كان يسيرُ بالعرض ويصطدمُ بي دون أن يعتذر، ناهيك عن الرذاذ الذي يتسقَّط من فمه ويَطالُ ملابسي، وأنا من جانبي كنت أتحاشاه قدر الإمكان. وتركتنا أُمُّ حسن مسرعةً، وهو يتابع مُؤخَّرتها باهتمامٍ فزغدتُه بضيقٍ وأنا أقول:

- جرى إيه يا سيدنا! خَلِّيك معايا أنا.

توقَّف عند أول محلٍّ لعصير القصب وطلب (شوبًّا) ثم آخر وتجشَّأ مشيرًا لي أن أدفع الحساب، واقترح عليَّ ألَّا نبدأ هذه المهمة إلَّا بعد تناول وجبة كبدة ساخنة فتأفَّفتُ:

- عربية الكبدة مش بعيدة يا وَلَه، دي على ناصية الشارع.

- مفيش وقت.

- وقت إيه وبتاع إيه! دي عادة وربنا ما يقطعها، أصل أنا كل ما يجيني نفر في شغلانة أخده الأول على الحاتي وفيها كيلو كفتة ليَّه أنا لوحدي، دا غير المشكِّل كبدة على طرب على مخاصي على حتَّتين سمان ودا طبعًا غير الحلو وعلبة سجاير مقفولة. دا كده يا أول يا هادي، أنا بوفرلك وبقول كبدة علشان صعبان عليَّه شكلك وانت عامل كده زَيّ الأرزقيَّة.

ويقف مشيرًا لي بيده:

- إنت بتشتغل إيه يا وله؟ فرَّان وللا جزمجي وللا بتقُف بقِدْرة فول في الشارع؟

همسة واحدة وكدتُ أصفعُه على وجهه، واحترت في أمره وفي مصداقيَّته للمهمة التي انتدبناه لها، لكن ما باليد حيلة سوف أكمل المشوار حتى لا أخيب رجاء أمّ حسن فيَّ.

غير أني رفضتُ اقتراحاته، قلتُ له بحسم:

- لا كبدة ولا دياولو يا شيخ حلموس، وهنطلع من هنا على البيت على طول.

- حلموس مين يا قليل الأدب! أنا اسمي الشيخ سلاموني، ومش كفاية إنك نِتِن ومبيهونش عليك المَلِّيم طلعت أطرش كمان، وبعدين بلاها الكبدة من وِشَّك وانت فقري كده وبوزك يقطع الخميرة من البيت.

ومشى حانقًا، وعلى باب العمارة قبض على معصم يدي، وهو يقولُ بنبرةٍ قاطعة:

- قبل ما أطلع نتفِّق الأول.

- نتفق! نتفق على إيه؟

- على الحلاوة يا بطل، وهو إنت عايز تاكل حقي، عشرين جنيه، جنيه ينطح جنيه.

لم آخذ كلامه على محمل الجد، وقلت:

- زَيّ بعضه.

- وتدبحوا عجل وللا خروف سمين؟

- حاضر.

- وأنا اللي أقف على الحَلَّة وأفرَّق اللحمة؟

- برضه حاضر يا شيخ سلموني.

- قول يا عم الشيخ سلموني، خَلِّيك مُؤدَّب.

- حاضر يا عم الشيخ سلموني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان صعودنا على السلم أول المشاكل.

التفت إليَّ حانقًا:

- هو مفيش مصعد هنا؟

- بتقول إيه؟

- مصعد يا جاهل يا عديم المفهوميَّة، ألا تعرف معنى المصعد؟ رافعة تحمل الناس إلى أعلى وكل واحد منهم يهبط منها إلى شقته.

- آه!! قصدك أسانسير، مَكَنْش يِنْعَزّ يا سيدنا الشيخ.

واضطررت إلى تقديم بعض المساعدات له خاصةً عند انحناءات السلم، كنت كمن يدفع برميل زيت أو كيس قطن مكبوس، وهو يشجعني قائلًا:

- شد حيلك شد، أيوه كده زُقّ.

وعند البسطة الثانية، استدار إليَّ:

- هيَّه أمك اسمها إيه؟

قلت وصبري يكاد ينفد:

- اسمها كاميليا.

- لا كاميليا ولا فاميليا بعد النهارده، بعد ما أخلَّص مأموريتي نشوف لها اسم تاني، اسم من أسامينا، فاطمة، عليَّة، نوال، ولا إيه رأيك نسميها (أُمّ ديل) على اسم أمي، إيه رأيك يا وَلَه؟

أجبته والبصقة على لساني:

- مفيش مانع يا عم الشيخ سلموني.

وعلى باب الشقة أسرع قبلي، وأخذ يدقُّ على الشُّرَّاعة بشدةٍ وبكلتا يديه وأنا ادفعه بعيدًا عن الباب:

- حيلك حيلك يا عم الشيخ زفت! فيه أصول! فيه ذوق! أنا اللي أخبَّط مش إنت وأنا اللي أدخل الأول مش إنت، وكمان فيه جرس عندنا يا سيدنا.

- دا تكتيك يا عبيط، لازم نخطفها خطف وندخل عليها نلخبطها زَيّ ما المباحث بتكبس على الناس في البيوت.

ثم انتبه:

- وبعدين تعالَ هنا يا قليل الأدب، إنت بتقول يا شيخ زفت! أنا زفت، دا أبوك وأمك هما اللي...

وكدنا أن نتشاجر بالأيدي، وفتحت أمي الباب وانفتحت أبواب الشقق الأخرى وعيال صغار تندفع منها تجاهنا، وسمعتُ لُهاثَ الحاج محمود وهو يصعد مسرعًا ووراءه عم إدريس مُشوِّحًا بالعصا التي يخصصها لطرد قطط الشارع التي تتسلل إلى المَنْوَر.

صاحت أمي، ووجهها أصفر كالليمونة:

- فيه إيه يا جلال، ومين الراجل ده؟ انطق يا بْنِي؟!

وأمسك به الحاج محمود من كُمِّ الجُبَّة:

- بتعمل إيه هنا يا أبو جاموس؟

والتفت إليَّ:

- وانت يا جلال، مالك يا بْنِي ومال الراجل ده، إيه اللي لمَّك عليه؟

فردَّ أبو جاموس:

- بَعْمِل إيه! هو أنا برمي جتِّتي يا حاج محمود، أنا جاني السُّخام ده - وأشار إليَّ - ومعاه ولَّيَّة منفوخة شحم ولحم وقَدّ كيس القطن، استرجُّوني همَّا الاتنين علشان آجي هنا وأعمل اللازم مع الولَّيَّة الكافرة دي.

وأشار إلى أمي، وهو يقول لي:

- مش هيَّه دي أمك برضه يا وَلَه، ضروري هيَّه دي اللي أنا جاي أنشلها من الضلال، ومالِك يا حُرْمَة واقفة تتعوّجي كده وبتتكلِّمي بالعين والحاجب، يللا يللا قُدَّامي على أوضة الصالون وحُطِّي حاجة على راسك قبل ما أقعد معاكي.

والتفت إليَّ:

- وإنت يا وَلَه هات لي حاجة ساقعة ووراها على طول فنجان قهوة سادة.

أمسكت برقبته وصاحت أمي:

- ضلال إيه وكفر إيه وبتعوّج إيه يا راجل يا ناقص! شاهد يا حاج محمود! شاهد! مش عيب تقول كده وإنت لابس عمَّة ودقنك متحنَّيَّة، إنت شيخ إنت! دا أنت صَرْمَة قديمة.

وزغدتني في كتفي بأصابعها:

- كده برضه يا اللي ناقص رباية، دي عَمْلَة تعملها وتفضحنا وتلِمّ علينا الناس كده! على كل حال مش وقته وحسابنا مع بعض بعدين.

وتدخَّل الحاج محمود:

- حصل خير.. حصل خير.. وإنت يا أبو جاموس ربنا يهديك وامشي من سكات.

- أيوه تمشي من سكات، وإلَّا ها..

قالها عم إدريس وهو يتراجع عدة خطوات مُلوِّحًا بعصاه، ثم أردف:

- هنا عمارة محترم، ناس أشراف، يللا روحي على بيتك يا أبو جاموس، دي مفيش غير خمسة وللا ستة نفر هما اللي بيصلُّوا في الزواية بعد إنتي ما طبِّيتي فيها، إنتي جاية هنا تعملي غاغة في العمارة بتاعي!

- بس يا راجل ياللي عامل زَيّ عفريت العلبة إنت، وانت يا حاج محمود أروَّح إزاي، أمشي كده من غير أبيض ولا أسود، دا العربون حتى ما أخدتوش!

- عربون! عربون إيه وبتاع إيه هو انت جاي في مقاولة، دا أنت جاي في عمل إنساني، خد ربع جنيه أهوه واتَّكل على الله.

وارتفع صوت أمي معاتبًا الحاج محمود:

- عمل إنساني إيه يا حاج محمود! ما يصحِّش كده! إصحَى لكلامك..

- مَقْصُدش يا أم جلال، مقصدش والله، وبعدين والنبي تدخلي إنتي وتقفلي الباب وسيبيني أفُضّ الدور بمعرفتي.

وبعد أن دسَّ أبو جاموس الربع جنيه في سيَّالته وانصرف، قال لي الحاج محمود:

- إيه ده يا جلال؟ هو فيه واحد عنده شوية عقل يروح يجيب شيخ وللا غيره علشان يهدي واحد تاني، الهداية من عند الله يا بْنِي، وبعدين أمَّك مش كافرة زَيّ الراجل الناقص ده ما بيقول، أمّك سِتَ من أهل الكتاب، ست طيبة وأبوها راجل طيب وعشرة ييجي تلاتين سنة، الله يخرب بيتك يا أبو جاموس.

ثم أمسك بيدي مستطردًا:

- إنت تعرف الوسخ ده كان إيه؟ كان شيخ منصر، أي والله!! كان تُرَبي ومعمول له خمسين محضر في قسم البساتين. قال إيه؟ يُنَطّ على الحوش من دول ويسرق الرخام بتاعه، وأعوذ بالله أي تُربة يلاقيها في وِشُّه يفتحها وياخد العضم اللي فيها.. إشي رِجْل.. دراع.. أي حاجة.. ويبيعهم للتلامذة بتوع كلية الطب، دا أنا سمعت والله أعلم إن التُّرَبيَّة هناك لما زهقوا منه لبَدُوا له السنة اللي فاتت وضربوه علقة كسروا فيها دراعه، منهم لله اللي جابوه

الزاوية عندنا، ويا ريته ستر دا فيه إشاعة دايره في الحِتَّة، وللا أقولك إيه يا بْنِي ربنا حليم ستَّار، وإن كان ديل الكلب عمره ما يتعدل.

وقبل أن أدخل إلى الشقة، انتحى بي الحاج محمود:

- والنبي تعتذر للست الوالدة علشان الكلمة اللي فلتت من لساني، إنت عارف مَعزِّتكم عندي.

فأومأتُ له برأسي مُؤكِّدًا على ما يقول وأنا أهمُّ بالانصراف، غير أنه استوقفني:

- إستنَّى إستنَّى! إلَّا بحق تعالى هنا وقول لي مين هي الست اللي كانت معاك وإنت رايح لأبو جاموس؟ اللي بيقول عليها قَدّ كيس القطن؟ ألَّا دا راجل فلاتي ومعندوش ضمير والواحد لازم يحرَّص منه.

- ست مين وبتاع مين دا بيجيب من دماغه يا عم محمود.

- آه.. على قولك، ما أنا عارف إنه كدَّاب الشيخ هباب ده.

ولم يمرَّ هذا الأمر بيني وبين أمي مرور الكرام، أسبوعان بأكملهما ونحن على خصامٍ حتى صفا الجو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

29

فالحمدُ للهِ عادت المياه إلى مجاريها بيني وبين أمي..

ولم يبقَ أمامي سوى نادية، فكيف أصلُ إليها؟ فحكاية التزويغ هذه كل يوم بعد الحصة الثالثة والوقوف على محطة الترام لا نتيجة منها ولا لها أي مفعول، كما أني لم أعد أراها نهائيًّا، فلا عادت تظهر لي على السلم أو في الشارع وباب شرفتها مغلق ليل نهار.

ليس من خيارٍ أمامي الآن إلَّا التزويغ من أول النهار ومداهمتها في عُقْر دارها، في مدرسة العباسيَّة الثانوية بنات.

لا زلت أذكُر هذا اليوم.

كان يوم ثلاثاء..

هَبْبتُ من النوم مبكرًا بلا نداء من أمي أو رنين منبه، جسدي أخف من الريشة وفي أُذُنِي أغنية العندليب: أنا لك على طول خَلِّيك ليَّه...

وحالًا إلى الحمام والمشط هنا وهناك والكولونيا بعد حلاقة الذقن والفانلة (اللاكوست) التي أرسلها جدِّي من باريس، وعندما تأكدت أني على الهيئة التي أردتُها لنفسي، فتحتُ باب غرفتي وعيناي ترنوان بحذرٍ نحو الغرفة الثانية التي تنامُ فيها أمي. بابها مغلق والحمد لله، والدنيا هُسّ هُسّ وهذا هو المطلوب، فسحبت ترباس الشقة وفي ثوانٍ كنت على السلم، ومتجنبًا بالطبع لمس الدرابزين المُتترَب حتى لا أفسد هندامي.

قبل أن أفرغ من السلم وأدخل في معمعة الشارع، جاءني النداء باسمي حادًّا وعاليًا، فرجعت عدة درجات وأنا أرفع رأسي إلى أعلى باحثًا عن أمي.

كانت تقف بالرُّوب على الباب، شعرُها لا يزال منكوشًا وبيدها الحقيبةُ ولفَّةُ الساندوتشات.

قلتُ بصوتٍ مشرق: صباح الخير يا ست الكل، لا داعي للحقيبة فأنا ذاهبٌ في رحلة مع المدرسة، لكن لا بأس من الساندوتشات، وصعدت لآخذها.

التقتني بوجهٍ عابس:

- رحلة إيه دي اللي جت على غفلة؟! ما احنا سهرانين ليلة امبارح سَوَا في البلكونة، يعني لا اتكلمت ولا قلت! وبعدين دا أنا شايفاك وانت بترتب كتبك في الشنطة قبل ما تنام، تبقى رحلة إيه دي؟

- يا ماما، دا أنا كنت بدوَّر على كتاب الرياضة علشان أراجع فيه مسألة قبل ما أنام.

- مسألة! مسألة إيه؟

- نسيت أقولِّك يا ست ماما، نسيت، جَلَّ من لا يسهو، أعمل إيه في دماغي دي اللي مدياني الطَّرْشَة وشغَّالة في النسيان، عربي أنسى، كيميا أنسى، إنجليزي أنسى، لما شكلي بقى وحش قُدَّام المدرسين، أنا محتاج أكشف عند حكيم يشوف إيه الحكاية دي؟

- ولد! لِمّ الدور وبلاش استعباط، وقولِّي هنا رحله إيه دي اللي إنت إن شاء الله رايحها؟

أعرف تمامًا أنها لن تكفَّ عن حصاري حتى تصل إلى مُرادها، فبدأتُ في المناورة:

- إحنا يا ستِّي رايحين رحلة دينيَّة، يعني هنزور الجوامع الإسلاميَّة، الأزهر والحسين ومسجد السيدة زينب كمان، وإن كان فيه وقت حنروح السيِّدة نفيسة والإمام الشافعي، كله كله.

- كده!

- أيوه كده..

أدخلتُها في الممنوع ولم تملك سوى أن تَرْمُقَني بريبةٍ دون أن تنطق بحرفٍ وتركتني ودخلت، وشرعت أنا في التلكُّؤ أمام باب العمارة لعلِّي أرى نادية وهي خارجة؛ لكني وضعت ذيلي في أسناني وقلت: يا فَكِيك، عندما تطلَّعتُ ببصري إلى أعلى بحكم العادة لأجد مدام السبكي تستندُ إلى سور البلكونة وعيناها عليَّ. طرت "طيران" من شارع إلى شارع حتى وصلت إلى محطة الترام، جلست على الدِّكَّة الخشبيَّة للمحطة ألملمُ نفسي وأطرد الوساوس التي تحوم في بالي. أتى ترام والثاني، وأنا أقول لنفسي "إقصر الشر يا جلال، إقصر الشر أحسن تكون أمها واخده بالها وهتيجي وراك تشوف إيه الحكاية".

وعندما جاء الترام الثالث قفزت فيه، وضربتين بالمِرْفَق وزُغد هنا وزُغد هناك حتى وجدت لي مَوْطِئ قدم على السلم مع (شِلَّة) من عساكر الجيش المتوجهين إلى معسكراتهم بالعباسية، وفي غمضة عين كنت على الرصيف المواجه للمدرسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضجيج وحركة وأبواق وبنات في بنات بالمرايل الكحلي، الطويلة والقصيرة، التي تضع إيشاربًا على شعرها والتي تتركه مسترسلًا على أكتافها، من تأخذ الحياة على محمل الجِد وتمشي مشيةً عسكرية، والتي تضحك عَمَّال على بَطَّال، التي تأتي وحدها من شارع مجاور والتي تصل بسيارة وسائق، واللائي يُلَمْلِمنَ أطرافَ الجونلّات وهن ينزلن من الترام.

وعندما بدأ الطابور عبرت الشارع، وأخذتُ موقعًا متميزًا أمام فتحة من فتحات السور الخشبي للمدرسة. كانت والله فتحة لا بأس بها، وكنت أستطيع إدخال كل رأسي منها لو أردت. ووجدت إلى جواري شخصًا أكتع يرتدي بنطلون بيجامة وعليه قميص كاكي من مُخلّفات الجيش، وامرأتين أظن أنهما كانتا من زوجات البَوَّابين، وولدًا كبيرًا كان واضحًا من الهباب الذي يملأ (العَفْرِيتَة) التي يلبسها أنه صبيٌّ في ورشة ومُتَّجه إلى عمله.

وقفنا كلنا نتابع مراسم الطابور..

الست الناظرة - ما شاء الله - هيبة وشياكة، ونظَّارة بإطار مُذهَّب وبشرة بيضاء بحُمْرَة خفيفة واستدارات محسوبة بالمسطرة، بَدَن قَالِت كبَدَنِ (صوفيا لورين) في عِزِّ مجدها. كانت قادمةً من مكتبها وبدأت تتبختَرُ أمام صفوف البنات كأنها وزيرُ التربية والتعليم، ووراءها بخطوتين مُدرِّسةٌ ببنطالٍ أسود وفي يدها خيزرانة، جسمُها مدكوك وكلها عضل، أكيد مُدرسة التربية الرياضيَّة، وبمحاذاتها مدرسٌ في حجم التمساح، لُهاثُه لا ينقطعُ وفي يده كراسة يُدوِّن بها الملاحظات.

تلتفتُ إليه الست الناظرة مشيرةً إلى إحدى البنات، فيقول:

- عارفها يا ستي عارفها وريقي نشف معاها! قلتلها ميت مرة! بلغتهم كلام حضرتك بأن ديل الجونلة يوصل لحد نُصّ الرِّجْل.

ويتوقف فتستحثُّه بهزتين من رأسها، فيعاودُ الكلامَ بصوتٍ متقطع:

- حاضر حاضر، بس آخد نفسي، أنا قلت وعملت اللي عليَّه ومعليَّاش ذنب، أعمل إيه أنا بقى في البنات الملاعين اللي مبتسمعش الكلام!

- خلاص يا أستاذ لمعي، خلاص خلاص وما دام هُمَّه قُلالات الأدب كده تتبعت جوابات النهارده لأولياء الأمور.

- حاضر يا هانم، حاضر حاضر.

- إنت عارف إن الكلام دا مش من عندي، دي تعليمات الوزارة، عايزاهم يلبسوا (شانيل) يعني فوق مشط الرجل بشبر واحد، مش زَيّ البنت

المضروبة دي اللي في الصف التاني، دي زَيّ ما تكون لابسة (ميكروچيب)، دي جاية مدرسة وللا رايحة فين؟! وشايف البنت أم فيونكة كُحْلي على شعرها يا أستاذ لمعي، وللا اللي في آخر الصف؟

- شايف يا هانم، شايف شايف.

ثم كَرَّ على أسنانه وانطلق بصوته الجهوري موجهًا حديثَه للبنات:

- سامعين وشايفين الست الناظرة زعلانه كده ليه! مش ياما حِسِّي إتنبح في الحكاية دي! على كل حال الجوابات هترفّ النهارده على البيوت وكل واحدة بقَى ذنبها على جنبها، من بُكره اللي مش هتلبس عِدِل مش داخله من باب المدرسة.

انصرف الرجل الذي بجواري وفي أثره الصبيّ، لم تبقَ إلا المرأتان.

سمعت إحداهما تقول للأخرى:

- شوفي يا أختي الراجل طول بعرض إزاي وعمَّال يكِشّ في روحه لما بقَى زَيّ الفرخة قُدَّام الولَّية، والأكادة إنه مربِّي شنبه!

- أمَّال إيه إسأليني أنا، دي كمان رايقة النهارده، تعالي شوفيها لما تكون متزربنة وراكبها عفريت، بتبهدل الدنيا ويبقَى الفلق ده واقف قُدَّامها قاطع النفس، ولَّية جامدة! قادرة!

- صلاة النبي دا احنا بقى معيز مش ستات، وتستجري يا أختي تعمل كده قدام جوزها؟

- ومتعملش ليه، الجامد جامد في أي مطرح، وعلى قولك يا أم بدوي عيني علينا! دا أنا لو اتأخرت دقيقة واحدة وأنا بَعْمِل الشاي لزغلول جوزي كان يبهدلني، دا مرة الوسخ ده اللي شكله عامل زَيّ شكل الحمير حدفني ببابور الجاز، شوفي يا أختي معلِّم كده ليه على كتفي!

عدت بعيني إلى عرض الطابور، عندما بدأت المرأة تعري جانبًا من كتفها لتُريه لرفيقتها أم بدوي، وكانت الست الناظرة قد فرغت من التفتيش ووقفت في منتصف الحوش تتابع باقي المراسم، وعلى مقربةٍ رهطٌ من المُدرِّسات، كلهن تقريبًا من أحجام خالتي أم حسن، ويبدو أنَّهُنَّ يتعاملن أيضًا مع الترزي البلدي الذي يحيك لها فساتينها، الذوق نفسه وهي نفسها التفصيلة، فالفستان ما شاء الله لا يعرف "لَفّ ولا دوران"، ولا يوجد به حتى زرار واحد، (كُبْشَة) والسلام عند الرقبة ونازل حِتَّة واحدة كما (الشوال) حتى "بِرِّ الرِّجْل".

ظللتُ أتابعهن، كُنَّ قرابةَ سبعة أو ثمانية وكلهن ممتعضات كأنما طاقات الأمل أُغلقت أمامهن والدنيا سواد في سواد، مُدرِّستان فقط هما اللتان شَذَّتا عنهن، انتحتا ببعضهما (وهات يا غمز ووشوشة) على الست الناظرة وعيناهما تجريان عليها من أول الحذاء الإيطالي الذي في قدمها، حتى شَعْرها الذي تُصفِّفه تصفيفة (فرح ديبا). أما البنات – فوالله - عفاريت مثلنا، يتغامزن ويُخفين ضحكاتهن، وواحدة تقرصُ الأخرى فتردُّ عليها بزَغْدة في مُؤخَّرتها، ويدٌ ناعمةٌ خفيفة تخطف فيونكة شعر فتلقَى من صاحبتها خبطة مِرْفَق في جنبها، ثم بدأت تحية العلم:

تحيا مصر.. تحيا مصر.. تحيا مصر..

عندما سمعتُ التحية انشرح قلبي وأحسستُ بأن الدنيا حلوة وكلها خير، ولعنت الليثي وفؤاد ودرويش وخيري وبقية (الشِّلَّة) أصحاب الحناجر المخرومة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت البنات إلى الفصول، وأنا إلى المقهى الذي على الميدان..

العمال فرغوا للتَّوِّ من فتح أبوابه وبدءُوا في مسح الطاولات والمقاعد بالفوَط الصفراء ورش الأرضية بالخراطيم حتى بدا المقهى نظيفًا، وإن كانت رائحةُ عطنٍ خفيفة لا تزالُ تهبُّ من داخله. عندما هممت بالدخول أشار لي أحدهم وهو يجفف العرق العالق بجبهته إلى مقعدين موضوعين (خِلْف خلاف) في صدارة المقهى، ففهمت أنها إشارة بأن المكان ليس جاهزًا بعد لاستقبال الزبائن. ولاحظت أن بجواري جَمْعًا من كبار السن يثرثرون، ويقبض كل منهم على جريدته تحت إبطه أو في يده، وثلاثة أو أربعة مثلهم يمشون جيئةً وذهابًا أمامنا. وعندما فك أحد العمال عقدة المقعدين تقدم الجميع بتُؤدَةٍ وصمتٍ إلى الداخل، اتجه كل واحد منهم إلى طاولته التي ألفها وبدءُوا في الجلوس، وطفق غيرهم ومن المُسنِّين أيضًا في القدوم تباعًا من الخارج.

كان واضحًا أن رُوَّاد الفترة الصباحيَّة من أرباب المعاشات، والجرسونات يعرفونهم بالاسم ويأتون لهم بالطلبات من تلقاء أنفسهم، لهذا شاي بالحليب، وللآخر زنجبيل، والذي يجلس في الزاوية أشعل السيجارة فلا بد من أن يأتوا له بالقهوة السادة في الحال.

مضى الوقت وأنا لا أسمعُ إلا قلقلةَ المقاعد وخروشة الجرائد، وكان الجرسونات مؤدبين مسالمين، لا يُحدثون ضجيجًا أو يناكفون مع أحد أو نسمع نداءاتهم العالية التي اشتهروا بها، كأنما هم ملائكة يجوسون في المقهى.

كانوا والحق مختارين بعناية، أو ربما أعطيت لهم تعليمات حازمة بالتزام الهدوء والتعامل برفقٍ مع هذا النوع من الزبائن.

لم أمكث طويلًا..

شعرتُ بالملل فقمتُ أتسكَّعُ في شوارع العباسيَّة، وفي ميعاد الخروج كنت على باب المدرسة وفي رأسي ألفُ عينٍ إلى أن لمحت نادية وهي خارجة، نظرت بتلقائيَّة إلى ذيل الجُونلَّة، كانت (شانيل) كتعليمات الست الناظرة، والهمسة التي بقيَت عاريةً من ساقها بدت ملفوفةً لفَّةً تدير العقل ولا يملك من يتأملها إلَّا أنَّ يزفر من جوفه ويقول: سبحان الخالق، والبشرة في الأصل بيضاء، لكن الشمس أبت إلَّا أنَّ تشارك وتكسوها بسُمْرة خفيفة، والرأس مرفوع، والأقدام تضرب الأرض بزهوٍ كالمُهْرة التي لم يكبح جِمَاحَها خيَّال..

طغى عليَّ لحظتها إحساسٌ جارفٌ بأن هذا الذي أتأمله يخصُّني أنا، أملكه وحدي، وأن نادية مني، من أهلي، وأنا الآخر منها، ولا أُطيق أن ينشغل بها أحدٌ في هذه الدنيا سواي، وألَّا يراها غيري إلا خطفًا أو لمجرد السلام..

عبرَتِ الشارع وأنا وراءها، ركبَتِ الترام فركبتُ معها. وعلى محطة سينما مصر وقفت برهة تتلفت حولها والتقت أعيننا. بدَتْ كأنَّما لا تبالي بوجودي، إلَّا أنَّ عينيها قالت كلامًا آخر. وقبل أن تصل إلى شارع الخليج المصري بمسافةٍ أسرعتُ حتى سرت بحذائها، فرمقتني بنظرةٍ خاطفةٍ وأبطأتْ من خطواتها.

- إبعد أحسن حد يشوفنا.

لم أنطق، كنت مرتبكًا.

- بقولَّك إبعد، إبعد يا جلال، إنت اتجننت!

قلت بتوسُّل:

- دا أنا من الصبح واقف قُدَّام مدرستك علشان الدقيقة دي.

- عارفة عارفة، وشايفاك من بدري، بس إبعد دلوقتي.

- دا أنا بقالي شهر بدوَّر عليكي ونفسي أشوفك، وبستنَّاكي كل يوم على محطة الترماي.

- أصل أنا كنت عيانة، هي تانت مقلتلكش دي زارتني مرتين! وأنا قلت لما يعرف ضروري هيعمل أي حيلة علشان يطمِّن عليَّا.

- آه منها ماما دي، المهم هو اللي مبتقولوش، وأنا لو أعرف كنت جيتلك على طول لابس بالطو أبيض والسمَّاعة نازلة على كتفي وعامل نفسي دكتور.

- يا سلام..

- وإنتي نايمة على السرير وشعرك سايح على المُخدَّة، تفتحي عينيكي تلاقيني واقف قدامك، وتقوليلي زَيّ ما كانت ليلى مراد بتقول في الفيلم: يا طبيب القلب بقيت حبيب القلب..

- وبعدين بقى يا جلال.. وبعدين..

لم نعبر شارع الخليج، استدرنا بشكلٍ تلقائيٍّ وعدنا ثانيةً إلى شارع الجيش وظللنا صامتيْن برهة. مددتُ يدي لأحتوي كفَّها فسحبتها وعيناها ترمقانني بحياء، وفي المرة الثانية استكانت كفُّها في يدي فأخذت أتحسسها وأضغط عليها ضغطاتٍ خفيفة، كانت دافئةً وبدأت أصابعُها تغوص في يدي الواحد تلو الآخر.

- ياه دا أنا عمَّال أستنَّاكي على المحطة وانتي مستنيَّاني في الشباك.

- ومين اللي قَالَّك إني كنت مستنيَّاك، أنا من الزَّهَق كنت بَبُصّ من الشباك وبالصدفة كنت بشوفك.

- كده..

- أيوه كده.

- طب عيني في عينك.

- أهُه..

أخذتنا دفقةُ الحب فلم ننتبه إلى عم إدريس الذي كان قادمًا في مواجهتنا يتوكَّأ على عصاه، رأيناه في نفس اللحظة وأظنه رآنا، فأحاطت نادية ذراعي بكفِّها وعيناها خائفتان، وأصابني الارتباك أنا الآخر ووقفت مشدوهًا من المباغتة.

- شافنا!

- لأه مشفناش، دا رجل غلباوي ولو كان شافنا كان وقف واتكلم معانا.

- أنا بترعِش كُلِّي، دي كانت ماما تموِّتني.

وتركتني، فجذبتُ يدها إليَّ:

- لأه أنا ماشية، هعدِّي الشارع وعلى البيت على طول، وإنت خَلَيك هنا، إوعى تيجي ورايا.

- طب هشوفك إمتى؟

- بعدين بعدين.

وأسرعت وعيناي تلاحقانها حتى أخذها الشارع مني.

وبِتُّ ليلتي وسِرِّي في قلبي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

30

تكرَّرت اللقاءاتُ بيننا..

اتفقنا على أن أنتظرَها على محطة الترام كل يوم ثلاثاء الساعة الواحدة ظهرًا، وقالت هي: إن تأخرت أنا انتظرني حتى الساعة الثانية، أما إن تأخرت أنت فلن أبقى دقيقة واحدة.

قلت: حاضر، وأنا أضع يدي على يدها.

كنت آتي من المدرسة دائمًا قبل الميعاد، أجلس على دِكَّة إسمنتيَّة تتوسط المحطة، وقلبي وعيناي تتطلَّعان بشغفٍ إلى الترام القادم من ناحية العبَّاسيَّة وعندما أرى مقدمته تلوح من بعيد، أودُّ لو أطيرُ وألقاه في منتصف الطريق. وإذا حدث وتأخرت مرة وحام في بالي أنها سوف تنفذ شرطها، تُكذِّب ظنِّي وأجدها جالسةً في انتظاري، الحقيبة بين أقدامها وفي يدها مجلة تتطلع إليها، غالبًا ما تكون مجلة (الكواكب).

ترفع رأسها فتراني أعبُر الشارع، تشير ليَّ بأصابعها كي أُبطئَ من سرعتي وأن أهدأ، أشعرُ بالخجل من نفسي، وأقول لها ولهاثي يسبقني:

- آسف آسف، أنا واخدها جري والله من المدرسة لحد هنا.

- دول كلهم عشر دقايق تأخير، إرتاح إرتاح بس وخد نفسك.

وتبدأ هي بوضع كفِّها على يدي أو تمسح بمنديلها حبَّات العرق التي على جبهتي، أتأملها بعيــنيَّ وقلبي يــزداد تعلُّقًا بها.

تُبادرني قائلةً:

- عامل إيه في المذاكرة؟

- الحمد لله، من ساعة لما بقيت أشوفك بقى حالي حال، باكل الكتب أكل، نفسي أجيب مجموع كبير، تمانين في المِيَّة وللا أكتر، آه لو أدخل كلية الطب.

- وهو انت مبتحبش الكليَّات العسكريَّة؟ الجيش يعني وللا الشرطة.

- إنتي عارفة إن الناس اللي زيِّي لا بيرضوا يدخلوهم الجيش ولا حتى الشرطة، الناس اللي أمهاتهم..

ولم أكمل..

احتوتني بعينيها، وأردفتُ أنا:

- أنا مش عارف ذنبي إيه! وللا أنا أقل من أي واحد في إيه! أنا مصري زيِّك وزي أي واحد ماشي في الشارع ويمكن أكتر كمان.

ويبدو أن الانفعال أخذني فارتفع صوتي قليلًا، إذ قطع رجلان يقفان على مقربة منَّا حديثهما والتفتا نحونا وانتقلت امرأةٌ عجوزٌ من دِكَّة مجاورة إلى حيث نجلس وهي تنظر إلينا وتقول:

- فيه إيه يا ولاد؟ زعلانين من بعض وللا إيه؟

ردَّت عليها نادية بجفاء:

- مفيش حاجة يا ماما! مفيش مفيش.

وأخذتني من يدي كي نترك المحطة، والمرأة تلاحقنا قائلة:

- يوه! أنا بس بسأل، هو السؤال حُرُم.. بنات الأيام دي معندهمش طولة بال كده ليه! دا أنا في زماني...

والتفتت نحو امرأةٍ بالقرب منها تحمل طفلًا على صدرها وآخر يمسك بذيل فستانها، وبدأت تحكي لها عمَّا كان يحدث في زمانها، والمرأةُ ضَجِرةٌ وتشيح عنها بوجهها.

وقلتُ أنا بعد برهة صمت:

- إنتي عارفة إن بابا مات شهيد.

- عارفه، وكل الشارع عارف..

- وأهل بابا في البلد نفسي الظروف تسمح وتيجي معايا مرة وتشوفيهم، دول أصل مصر، دول اللي بيزرعوا الأرض ويأكَّلونا ويشرَّبونا.

وأضفتُ وأنا أكثر انفعالًا:

- وجدِّي، جدِّي لوالدتي آه لو شفتي حاله وهو مسافر.

- مصدَّقاك يا جلال، تلاقي نَفْسُه كانت صعبانة عليه وهو مسافر؟

- صعبانة عليه.. صعبانة عليه دا إيه، دا كان بيموت! بيتقطَّع حِتَّت وهو مسافر..

فقالت وعيناها تتساءلان معها:

- طب وإيه اللي خلَّاه يسافر ويسيب مصر ما دام مكنش عايز؟

- منهم لله بقى، مَقدِرْش عليهم، غلبوه، جدَّتي وخالي وخالتي جبروه على السفر، العيلة، العيلة كلها اتكاترت عليه.

- طب الحمد لله إنهم مخدوكش معاهم.

- لو كانت جدَّتي تقدر كانت عملتها، أصل أنا كنت تحت وصاية عمي ساعتها ولسَّه لغاية دلوقتي، وهو مرضيش يوافق على سفري، ولا حتى إنهم يطلَّعوا ليَّه جواز سفر من أصله.

ثم تبسَّمت، فرنا وجهها إليَّ بابتسامةٍ أكبر:

- أصل ماما قالت لي مرة إن عمي من خوفه لياخدوني من وراه فضل مراقب الشقة سنة بحالها، بعت شوية رجَّالة من البلد على الشارع بتاعنا، مرة يتمشُّوا رايحين جايين أو يقفوا بالساعات قدام محل العصير بتاع المعلم حبيب ومَبَطَّلوش قعاد على دكة عم إدريس ويفضلوا يقرروه عني.

وتزداد ابتساماتي:

- وللا اللي كانوا بيخبَّطوا علينا ويعملوا نفسهم تايهين وغلطانين في العنوان، دا مرة واحد خايب منهم خبط علينا مرتين في يوم واحد! في الأوَّلانيَّة قال: هو الأستاذ زناتي موجود؟ فماما قالت له: لأه ومع السلامة وهي طبعًا فاهمة، وفي التانية قال: هو الأستاذ عوف ساكن هنا؟ ماما قالت له: عيب عليك وإنت راجل كبير كده وشنبك قد فردة الشبشب وتبقى كدَّاب وتِقْلِق الناس في بيوتها، إنت عايز الأستاذ عوف؟ الأستاذ عوف قاعد جوَّه، وقعدت تنادي بصوت عالي: يا أستاذ عوف، قصدي يا جلال.. يا جلال.. ومسكتني من إيدي وقالت له: الأستاذ عوف أهُه، عايز منُّه إيه؟ وقعدت ماما تضحك وتقولِّي إن الراجل اتخض ومعرفش يعمل إيه، وفي الآخر قال لها: أنا مش قصدي على عوف ده، عوف اللي أنا بسأل عليه متجوز وعنده عيال، وننزل جري على السلم وماما من على البسطة تقول له: إوعى تطُبّ هنا تاني يا راجل يا خايب إنت وقول للي باعتك مَيصحِّش كده..

كنت أحكي لها وأنا أضحك، وهي تبادلني الضحك.

- أيوه كده انبسط يا دكتور جلال.

فتأمَّلتُها، واجتاحتني رغبةٌ في تقبيلها وهي تقول:

- أيوه أنا عايزاك تبقى دكتور، دكتور قَدّ الدنيا، عندك عيادة كبيرة في شارع الجيش، وواحدة تانية في العباسية قُدَّام مدرستي.

وانزلق لسانها:

- ويقولوا عليَّه...

ثم وضعت يدها على فمها، وهي تميل برأسها خجلةً، فأكملتُ أنا وعيناي تأكلانها أكلًا:

- حَرَم الدكتور جلال..

فقرصتني في يدي:

- عيب! أحسن عم إدريس يسمعنا..

- لا دا انكشف من ساعة المرة اللي فاتت، عينيه شيش بيش وتلاقي كمان ودنه مفوِّتة ومبيسمعش.

وأخذنا الحديثُ في الكلام عن عم إدريس، عن طيبةِ قلبه ونوادره التي لا تنقطع، وعن سعيد الابن البِكري للحاج محمود الذي اشترى سيارة فيات قديمة من أحد أصحابه بشارع أحمد سعيد وأخذ يتباهى بها أمام العمارة، وبعدها بأسبوعٍ تبيَّن أنه أخذ مقلبًا والسيارة مسروقة.

- دا عم الحاج محمود كان هيتجنِّن، ومن غيظه طلع من المحل بالمَغْرَفَة الحديد اللي بيكيِّل بها البضاعة وراسه وألف سيف ليفتح نافوخ ابنه سعيد.

- لا وإيه كمان، دي ماما بتقول إن تانت أُمّ حسن صوِّتت في وِشُّه ورمته بكوز مَيَّة كان في إيديها أول ما دخل عليها الشقة.

وعندما نظرت نادية في ساعتها عرفتُ أنها تودُّ العودة، استوقفتها قائلًا:

- نادية، تفتكري مامتك توافق لو اتقدمت لخطبتك؟

فنظرت إليَّ بدهشة:

- تخطبني؟ ودلوقتي! طب اصبر شويَّة لغاية لما تدخل الجامعة.

انتابني الضيقُ مما قالت، فسألتُها جادًّا:

- أنا بقول هتوافق.

- يعني، مش متأكدة.

ازددت ضيقًا.

- أنا بَتكلِّم جد.

فأمسكت بيدي:

- طبعًا هتوافق، دا أنا بنتها الوحيدة وملهاش غيري، وعمرها ما هتقف في وِشّ سعادتي.

وأردفت وعلى وجهها ضحكةٌ ماكرة:

- إنت مستعجل قوي كده ليه؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انقطعت لقاءاتُنا بعدها عدَّةَ أسابيع..

أذهب إلى المحطة كل يوم ثلاثاء ولا أراها، فأقول لنفسي ربما تكون مريضة، ربما أمر آخر، ولم أعرف ما الذي أفعله. فكرت أن أسأل أمي بطريقٍ خفيّ، أو أصعد بنفسي إليها، أو يكون عم إدريس مرسالًا بيننا، غير أنِّي لم أُقْدِمْ على فعل أي شيء من كل هذا.

وفي يوم لقيتُها مصادفةً على السلم، كانت صاعدةً وأنا في طريقي إلى الشارع.

تلفتَّت حولها، وبدا وجهُها خائفًا حزينًا.

- مالِك، أنا قلقت عليكي؟

- روح دلوقتي يا جلال.

اقتربتُ منها فرجعت إلى الوارء، حتى كادت تلتصقُ بجدار السلم:

- بقولَّك رُوح، رُوح والنبي علشان خاطري.

- نادية فيه إيه؟!

- مش عارفة ماما متغيَّره معايا ليه ومدقَّقه عليَّه في الخروج، وزعيق على أي حاجة.

- تفتكري لاحظت حاجة؟

- مش عارفه، واللي قالقني كمان إن خالي الشيخ محمد راح المدرسة وسأل عني، دا عمره ما عملها قبل كده.

- يمكن كل دا أوهام.

- تفتكر؟ ياريت..

ولم أشعر إلّا وهي بين أحضاني، وأقبِّلها قبلاتٍ محمومةً على خَدَّيْها وفوق شفتيها، وهي تدفعني عنها دفعاتٍ خفيفة.

- كفاية كفاية، إبعد يا مجنون، إبعد أحسن حد يشوفنا.

أفقنا على صياح عم إدريس:

- بس بس! إيه دا يا قطة يا قليل الأدب.

كان أمامنا وجهًا لوجه، وأكيد رآنا، فهبط قلب نادية من الخوف ولم تعرف ما الذي تفعله، اتكأت عليَّ، تأملتني بنظرةٍ خاطفةٍ وصعدت لتتركني مع هذا الرجل السوسة.. لا أعرف من أين أتى؟! أكان صاعدًا أو نازلًا! أم هبط علينا من أي سماء؟ كان عاري الرأس، شَعْرُه كله (مفلفل) ومساحة على جنب في حجم ثمرة البلح جرداء تمامًا وليست بها شعرة واحدة، وجلبابه الأبيض يتدلَّى إلى ما بعد ركبتيه بقليلٍ وفي يده عصا.

قال وعيناه الماكرتان تجوسان في وجهي الشاحب:

- قطة يا سي جلال، قطة ملعون مجنِّني خالص، سودة وديله مقطوع وكل يوم تتسحَّب وتقلب صفايح الزبالة بتاع السكان.

لم أنطق بحرف.

- شفته يا سي جلال؟ أنا غُلبت فيه القطة المجرم ده! عايز أضربه واحد عصاية على راسه علشان يحرَّم.. أمَّال.. يستاهل..

- لأه يا عم إدريس أنا لا شفت قطة ولا فار، ما أنت شايفني نازل في أمان الله أشتري حاجه من تحت، وبعدين إنت ماشي حافي كده ليه؟ مش خايف حاجة تدخل في رِجْلك وتعوَّرك وانت عضمة كبيرة!

- أمَّال.. أنا خالع المركوب من رجلي وطالع واحدة واحدة علشان أظبط القطة قليل الأدب ده..

تركتُه وهممتُ بالصعود ثانيةً إلى الشقة، وأنا أقول لنفسي "قصَّر يا جلال في الكلام مع الراجل ده أحسن يعملَّك فضيحة".

إلا أنه نادى عليَّ:

- إنتي راجعة ليه يا سي جلال؟ مش بتقولي إنك نازلة تجيبي حاجة من تحت، سبحان الله!

التفتُّ إليه:

- والنبي تسيبني في حالي يا عم إدريس.

ودخلتُ إلى الشقة وتركتُه يصعد إلى أعلى، وقلبي يخفق ويقول "ربنا يستر، دا لو عملها الراجل القرد ده وقال لمدام السبكي يبقى خلّص علينا".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

31

لم أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي..

مررتُ أولًا على عَمّ إدريس، أردتُ أن أسأله، أفتح معه الكلام، أفعل أي شيء كي أرتاح، زوجته الست شوق هي التي كانت تجلس مكانه فوق الدِّكَّة، وأمامها صينية عليها كومةٌ لا بأس بها من الأرز.

قالت وأصابعها لا تزال تروح وتجيء على الأرز:

- آهو عندك نايم جوَّه يا سي جلال.

- لسَّه نايم لحد دلوقتي؟

رفعت رأسها نحوي، وهي تنكت حبَّة أرز علقت بين أصابعها:

- وهيفضَل على كده يا بْنِي لحد صلاة الضهر ويمكن أكتر كمان، أصل بعيد عنَّك عمك إدريس لما بينام مَحدِّش مننا بيعرف هيصحَى تاني إمتى؟ لا أنا ولا العيال، عايزُه في حاجة مهمة وأنا أنده عليه وانت وبختك؟

أشرتُ لها بيدي بألَّا داعي، ووضعتُ الحقيبة إلى جوارها ولفَّة الساندوتشات، وفرخ ورق مُقوّى ومعقود بأستك كنت قد رسمت عليه لوحة تعبيريَّة عن حرب أكتوبر، نويتُ أن أدخل بها المسابقة التي أعلنت عنها مديريَّة التربية والتعليم.

تركتُ لها هذه الأشياء ومشيت..

قلت أقف عند إحدى النواصي القريبة لعلِّي أرى نادية وهي خارجة فألحق بها، وأعرف إن كان قد حدث شيء بعدما تركتني.

كنت مضطربًا وكأن قلبي مسحوبٌ مني، وكلما رأيت أحدًا ممَّن أعرفهم قادمًا تجاهي أتوارى عنه في شارع جانبي. لم تكن بي طاقةٌ للكلام مع أحد، أو حتى أن أرفع يدي له مُسلِّمًا، ولم أكفَّ عن سؤال نفسي عن الذي حدث بالأمس؟

كنتُ أهبطُ على السلم مصادفةً وليس في بالي شيء، حدث ما حدث رغمًا عني وعنها..

لماذا أقول عنها؟

لماذا أزجُّ بها في أمرٍ أنا الذي أقدمت عليه، ولا ذنب لها فيه؟! أنا الذي بدأت، أنا أصل الحكاية، أولَها وآخرها، أنا الذي تجرَّأت وقبَّلتها على السلم رغمًا

عنها.. أنا الذي عرَّضتُها لنظرات عم إدريس، وأنا الذي سوف أجعلها مُضغةً للقيل والقال لو كان رآنا أحدٌ غيره.. ويلوح أمامي طيفها فأزداد ألمًا وإشفاقًا..

وطال انتظاري حتى انقضى ميعادُ نزولها فعاودتُ السير، ولا تبارح خيالي اللحظة التي تشبَّثتْ فيها بي وقت أن فوجئنا بعم (سُخَام)، ارتجَّ جسدُها من الخوف، أحسستُ بيديها تضغطان على كتفي وعلى ذراعي من أعلى، كانت تحتمي بي، أخذت تحدق فيَّ بعدها وهي ترجع بظهرها إلى الوراء وتستند إلى حافَّة الدرابزين، وأنا كالأبله لا أعرف ما الذي أفعله؟ لن أنسى أبدًا وجهها الذي تقلَّصت ملامحه، ولا عينيها اللتين كادتا أن تتكلَّسا، أو النظرة التي ألقتها عليَّ بعد أن صعدت بضع درجات على السلم. لم أقوَ عليها فنزلتُ ببصري إلى الأرض، ولم يدُرْ بخاطري مطلقًا أني لن أراها ثانيةً إلا بعد زمنٍ طويلٍ وأحداثٍ جسيمةٍ تمرُّ بي وبها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضيتُ من شارعٍ إلى آخر حتى سمعتُ أذان الظهر..

لم أدخل مسجدًا من قبل، ولا انحنيتُ للصلاة إلا في المناسبات، أو إذا شجر خلاف بيني وبين أمي وأردت أن أُريَها أني لا أزال مسلمًا. خاطرٌ ألحَّ عليَّ بأن أصلي، عبرت الشارع بالفعل متجهًا إلى الزاوية التي ينبعث منها الأذان، كانت مجرد زاوية صغيرة والمؤذن يقف بالباب، كفُّه مشدودةٌ ويدور برأسه إلى اليمين واليسار، ينادي عليَّ بأعلى صوته أن أقترب، أن آتي، أن أثني ركبتي وأخلع حذائي وأدخل، غير أنِّي لم أُجِبْ. ظلت قدماي على حالهما، ثقيلتَيْن وتسيران بغير هدى..

وبعد أن جُبتُ أغلب شوارع حي الظاهر ووصلت إلى شارع رمسيس عدت ثانيةً إلى البيت، لم تكن أمي موجودة لا في غرفتها ولا في المطبخ فتمددتُ فوق السرير، ومن شدة التعب غفوتُ غفوةً هببتُ منها على صرير باب الشقة، كانت هي، قمتُ إليها فسبقتني بالكلام ووجهُها تعلوه الدهشة:

- إيه ده اللي انت هبِّبته على السلم؟

قلت مرتبكًا:

- وهو إنتي عرفتي؟

- أيوه عرفت يا فالح، والخبر شاع في العمارة كلها، والأهم من دا كله إن صاحبة الشأن عرفت.

خبطت بكفِّي على جبهتي وعدتُ ثانيةً إلى السرير، وأنا أقولُ لها:

- مين؟ مدام السبكي! آه يا عم زبالة يا راجل يا خبَّاص، أنا عارف من الأول إنك هتخربها.

نظرت إليَّ باستغراب:

- زبالة مين؟ قصدك إدريس، وهو راخر شافكم؟ يا دي الخيبة!

- أنا بحسب هو اللي قال.

- لأه يا فالح، الخدَّامة بتاعة أبو السعد أفندي هيه اللي شافتكم من شُرَّاعة الباب، وعلى طول كان الخبر عند مدام السبكي.

ثم تأملتني وهي تدقُّ بظفر إصبع الإبهام على شفتيها دقاتٍ متلاحقةٍ وعيناها سارحتان:

- طب إدَّارَى يا وله، إدارى.. خدها وروح أي حتة بعيدة واعمل اللي إنت عايز تعمله، مش هنا يا أهبل علشان الناس تشوفك وتفضحك.

- أدَّارَى.. أدارى على إيه! لا لا يا ماما دا إنتي بقى فاهمة الحكاية غلط!

- والنبي؟

رددتً عليها بحنق:

- إيه الكلام ده اللي إنتي بتقوليه، إنتي فاكراها إيه، دي نادية يا ماما، نادية نادية المحترمة بنت الناس..

لم تُبالِ بما أقول..

تركتني وخرجت من الغرفة لتعودَ بعد برهةٍ وتجلس على السرير إلى جواري، بعد أن وضعت كوب الشاي الذي كان في يدها على منضدةٍ قريبة.

ظللنا صامتيْن لعدة دقائق، إلى أن قالت بنغمةٍ ليِّنة:

- أنا عارفة إن البنت حلوة ومدوَّرة، ودلوقتي أنا بسألك بالهداوة إنت عايز تضيَّع وقت معاها وبس، يعني بوسة وفسحة وحاجات زَيّ دي، وللا الحكاية بجد وبتفكَّر مثلًا ترتبط بيها؟

قلتُ، وأنا أضربُ بيدي على عارضة السرير:

- تاني يا ماما.. تاني!

وهببتُ واقفًا لأترك لها المكان، إلَّا أنَّها أمسكت بذراعي.

- بس قبل ما أقعد لازم تعرفي إني بَحبِّها، بحبها، بحبها.

ثم أردفتُ، بعد أن جففتُ حبَّةَ عرقٍ تنسالُ خلف أُذُنِي:

- واللي حصل ده عايز أشوف له حِل، أنا مكسوف من نفسي ومش عارف هقابل الناس بعد كده إزاي، تانت أُمّ حسن وللا عم الحاج محمود وللا وللا، والأهم من دُول كلهم مدام السبكي هشوفها بآني عين.. ونادية!

وعضضتُ على شفتي، فقاطعتني بإشارةٍ من يدها:

- طيب بس خلِّينا خطوة خطوة، إنت عارف الأول أهلها مين؟

- أعرف إن لها خال اسمه الشيخ محمد.

- أيوه عليك نور، وبيلبس عِمَّة وكاكولة وبييجي يزور أخته مرة كل شهر، وأول ما يدخل من باب العمارة يفضل يقول: يا ساتر يارب يا ساتر يارب، وعينه متترفعش من على الأرض طول ما هو طالع على السلم، وخالها التاني الشيخ مصطفى، جنبنا هنا، إمام جامع الشعراني. وبيقولوا إنه ألعن منه، لا بيخلِّي أهل بيته يتكشفوا لا على رجَّاله وللا حتى على ستات، وأمها زَيّ ماانت شايف الإيشارب على راسها ليل نهار ومبتعرفش تقول إلا قال الله وقال الرسول، تفتكر دُول يوافقوا عليك؟ على واحد أُمُّه يهوديَّة، وياريت كده وبس جده وجدته وخِلَانُه وخالته كلهم يهود.. تفتكر؟!

- جدِّي وجدِّتي.. وأنا مالي بيهم، دُول في دنيا وأنا دلوقتي في دنيا تانية.

- عيب عليك يا جلال، دُول اللي ربُّوك.

- عارف يا ماما عارف، أنا بقول إنهم فاتونا خلاص.

- وهو أنا إيه وهُمَّا إيه، أنا إيه وجدك زكي إيه.. إنت نسيته يا جلال؟

وأضافت بصوتٍ بدا أوله متحشرجَا:

- أنا لسَّه راجعة من عند مدام السبكي، ومش عايزه أسمَّعك الكلام اللي قالته، كلام عيب ومفيش واحدة تقبله على نفسها، مش عارفة دول مسلمين إزاي! وللا شيوخ إزاي! ويقولوا أهل الكتاب ومش أهل الكتاب! أهل الكتاب إيه بقى؟ نهايته يا بْنِي الست بتقول: إنها لا عايزة شوشرة على بنتها ولا سيرة تطلع عليها، إنما لو قربت منها تاني يبقى إنت ناوي على شر وساعتها هتقول لاخواتها على طول وهُمَّا يتصرَّفوا معاك.

ظللتُ ساكتًا وهي تتابعُ ما يدور على وجهي، ثم قالت:

- دي كمان بتقول إنه بعد البنت ما تخلص من المدرسة هيعزِّلَوا من هنا.

- يعزلوا؟

سرحت بعينيَ، وهي لا تزال تقول:

- إنتو شباب والكلام ده يا ْبنِي بيحصل في كل حتة، والبنت كويسة مقلناش حاجة، لكن حكاية الدين لزومها إيه؟ دي زَيّ ما تكون بتعايرني!

بقيتُ على صمتي..

- نصيحتي لِك يا ْبنِي انك تبعد عِنها، أنا واحدة مليَّاش حد ومش قَدّ المشاكل، ولا حد يقولِّي صنفك إيه ولا مِلِّتك إيه! أنا يا ْبنِي اللي فيَّه مِكَفِّيني.

أحسستُ بالدم يثورُ في عروقي، ويضربُ في رأسي كالنافورة:

- ومين ده اللي يعايرك يا ماما، طـب هتشوف مـدام السبكي

ولا الشيخ محمد ده إيه اللي هيحصل بعدين، إن مكنتش أتجوِّز نادية غصب عنهم، بس أنا أتخرَّج من الجامعة.

- لما تتخرَج! وهو انت فاكر إني هعيش لك هنا على طول!

لاح جدِّي بمُخيَّلتي، فقلت:

- أمَّال هتروحي فين؟ عند جدِّي؟

- أيوه، ورايحة على طول.

قلتُ بجزع:

- وتسيبيني؟!

- أسيبك إزاي، رِجْلك على رجلي، شد حيلك إنت بس وخد الثانوية العامة واحنا على باريس على طول.

قلت وعيناي تتوهَّجان:

- باريس!

- أيوه باريس، وكل حاجة مترتبة، والوظيفة كمان مستنيَّاك، هتشتغل مع خالك شمعون، مفاجأة مش كده!

سحبتُ مُخدَّة السرير واضعًا إيَّاها على حِجْري، وعيناي تحدقان فيها وهي تكمل الكلام:

- لا وإيه، سوسو ابن الأستاذ شولح.

تتقلص تقاطيعُ وجهي قليلًا، وأميل برأسي مستفسرًا فتقول:

- لا. لا. دا واحد من قرايبنا متعرفوش.

ثم تكمل:

- كنت بقول إيه.. آه.. الواد سوسو كان عندي هنا من شهرين وبيقول إن راشيل كبرت واحلوّت والفلوس بتجري في أيديها، تعرف بتشتغل إيه؟

أزدادُ إنصاتًا..

- مع السوَّاح العرب، إنت عارف انهم ميعرفوش يتكلموا فرنساوي، تاخدهم هي بقى من المطار تفسَّحهم وتلِفّ بيهم على المحلات وتفضل معاهم لغاية لما ترجَّعهم المطار تاني، وبيطلع لها من الحكاية دي سبع ولا تمن تلاف فرنك في الشهر، دا بالميت..

- وأنا بقى لو رحت أشتغل إيه مع راشيل؟ وللا شيال زَيّ خالي؟

- بس إنت تنوي، وهتلاقي كل السكك متسهِّلة.

- لا لا ياست ماما، يفتح الله، أنا مرتاح هنا.

ردَّتْ بعصبيَّة:

- وهو انت فاكر إنك هتطُول نادية دي طول عمرك، دا بُعدك، شوف مصلحتك فين وتعالى معايا.

قلت بأَسَى:

- مش بس نادية، أنا حابب العيشة هنا، الشارع بتاعنا وعم إدريس ومحل العصير والمدرسة والجامعة اللي هدخلها وشارع الجيش، أسيب دا كله واروح بلد غريبة! لا ناس ولا صحاب وإن لقيت شغلانة تبقى بالكتير شيَّال وللا زبَّال وللا كنَّاس في شارع!

بدا وجه أمي كئيبًا، وأنا مستمرٌّ في الكلام:

- ماما مَقْدَرش أعيش هناك، نروح زيارة شهر، اتنين، تلاتة ونرجع، لكن على طول مستحيل.

- اتكلم عن نفسك لأني هَستنَّى هناك على طَول، أنا عملت اللي عليَّه، اترمِّلت عليك، وفارقت أهلي علشان خاطرك.

- بس يا ماما..

- بس إيه، إنت عارف إن جدّتك قعدت تزنّ على وداني علشان أسيبك عند أهل أبوك في البلد وأسافر معاهم، أنا اللي قلت لأه، مَرضِنْش وقلت مَسِبْش ابني لوحده وهَربِّيه ولو حتى أشتغل خدَّامة في البيوت وللا أشحت عليه، وجدك كمان ياما اتخانق مع جدتك علشان كلامها ده.

وأنا أتذكر جدَّتي، وأقول في نفسي "آه يا مجرمة يا أم منقار!".

ثم أقول لأمي:

- عارف عارف.

- وعارف كمان إن جدَّك ساب لك ألف جنيه في دفتر التوفير، نُصّ تحويشة عمره، سابهم من ورا جدتك علشان يساعدوا في تربيتك، مَلُوش حق عليك هو كمان؟

كنتُ أتأمَّلُ شَفتيْها وهي تتكلم، غير أن عقلي كان مُشوَّشًا ولا أعرف ما الذي أقوله أو أفعله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

32

قالوا الشيخ خَلَف مات..

كنت جالسًا في الصالة أراجِعُ دروسي وفرغتُ للتَّوِّ من حَلِّ أحد الامتحانات التجريبيَّة في مادة الرياضيَّات، ثم قارنتُها بالإجابة النموذجيَّة في كتاب (المرشد) فوجدت نفسي أستحق الدرجة النهائيَّة.

تمطيتُ منتشيًا واتجهت نحو الشرفة وأنا أقول لنفسي: كلية الطب إن شاء الله، ولسوف أفوز بنادية في النهاية رغم أنف الشيخ محمد والشيخ مصطفى وكل الشيوخ الذين في الدنيا.

تطلعتُ من أعلى إلى الشارع، فبدا لي مضطربًا وليس كعادته!

عم الحاج محمود وبعد أن خطا عدة خطوات بعيدًا عن المحل يعود ويلتفت مناديًا بصوت متوتر على صبيانه كي يأتوه بالكُوفيَّة وعلبة السجائر، ويتحسَّس السيَّالة وجيب الصديري فلا يجد حافظة نقوده، فيشيح بيده نحو الأرض متأفِّفًا ويزعق على من بالمحل كي يبحثوا عنها هي الأخرى في أحد الأدراج، ثم يتجه صوب العمارة حيث أبو السعد أفندي والكابتن فريد الساكن الجديد كانا في انتظاره.

وألمحُ حسن يمرُق خارجًا من باب العمارة، يُسِرُّ شيئًا في أذن أبيه ويتطلع إلى أعلى فيراني، يشير لي بأن أنزل ويرجع هو ثانيةً إلى العمارة. وعلى رصيف العمارة المقابلة كان يقف رجلان أو ثلاثة من السكان ومعهم عم محمد بائع الفول ولا تزال مريلته مربوطةً على صدره وقد اكتسحتها بقعُ الزيت والفول اكتساحًا، ولم تبقَ فيها بوصةٌ واحدة تخبرنا عن لونها الأصلي. انتظروا برهةً حتى أتى إليهم المعلم حبيب وشرعوا جميعًا في السير، وأقبل عليهم المعلم زينهم الجزار من الناحية المقابلة ومعه الحاج شلبي صاحب مَحْمصَة البُنّ.

سأل أبو السعد أفندي الست شوق عن عم إدريس، فأبلغته بأن الخبر جاءه بعد صلاة الفجر ومن وقتها لم تَرَهُ.

قال لها بجِدَّةٍ، وهو يقلِّب كفه:

- يعني هو فين دلوقتي؟

- يوه.. هيكون فين يعني! راح الزاوية من ساعتها زَيُّه زَيّ الخلق.

- طب ما تقولي كده من الأول!

واستدار إلى الواقفين:

- كلمتهم في الشغل وأخدت أجازة عارضة لما البت ضحى الشغالة قالت لي وهيَّه راجعة من عند بتاع العيش.

فرد عليه الحاج محمود:

- الله يرحمه، فين! من سنين طويلة، وإحنا عايشين إحنا وولادنا على أدانه، كُنَّا بنستبشر بيه ونحب نصلي وراه، دي الزاوية كانت بتشغي ناس في صلاة العشا وخصوصًا في رمضان، وآه على صلاة الفجر مع الشيخ خلف.. وللا صلاة التهجُّد.. كانت الناس بتنهنه وراه ومنهم اللي بيبكي بالدموع. كانت أيام حلوة وتنعاش يا كابتن فريد، والخلق جايه منين؟ اللي من شارع الخليج واللي من نواحينا هنا من الضاهر، واللي من باب الشعرية وعندك فوق لحد ميدان الجيش.. أي والله!

ويلتقط أنفاسه:

- وإيه! الناس مش لاقيه حِتَّة تقعد فيها، ويجيبوا حصيرة من هنا وحصيرة من هناك، وعمك زناتي صاحب الفِرَاشَة اللي ورانا يبعت له كام سجَّادة، وافرش يا عم هنا وفي الحتة دي وفي الحتة اللي هناك لحد ما الشارع يتقفل.

ويركِّزُ بصره على الكابتن فريد:

- وتعرف؟! الجامع اللي ورانا، جامع الاوقاف، كان بينِشّ وتلاقي صفين تلاته واقفين ورا الإمام ودمتم، الناس المستعجلة هيَّه بس اللي بتصلِّي فيه، راجل مبروك ووليّ بصحيح مش القحف اللي اسمه أبو جاموس!

يقاطعه أبو السعد أفندي:

- آه بحق هو راح فين الراجل العِزَّة ده؟ اللي ما عاد حد بيشوفه يتسنكح في الشارع رايح جاي زَيّ الأول.

- آهو عندك متلقَّح في السجن، قال إيه.. واحدة بتاعة خضار، من اللي بيقعدوا دُول على الرصيف! غلبانة والغلب قاطع قلبها، فاكراه بني آدم بصحيح وهيصالح بنتها على جوزها، راحت له الخايبة، والمصيبة إنها عورة وولَّيَّة لا مؤاخذة كبيرة في السن وشكلها يقرف الكلب، إنما هتعمل إيه في اللي ديله نجس، وقال إيه ابن الكلب ده خادها في الخرابة اللي ورا الزاوية والناس امسك حلَّق حُوش ونزلت على راسه وراسها بالجزم والشباشب! بقولَّكم إيه

ربنا حليم ستار وآهو مرمي على البُرْش دلوقتي أديله ييجي شهرين، يللا بينا، يللا يللا، الصُّهر وجب وزمانهم طالعين بالراجل.

وبدءُوا في السير، وسمعت أنا طرقًا على باب شقتنا، كان حسن:

- طبعًا جاي معاك، بس ثانية واحدة لحد ما أغيَّر هدومي.

ولما أخبرت أمي، تلقَّت الخبر بكآبةٍ أدهشتني:

- مين؟ الشيخ خلَف! ربنا يسامحه، كان راجل صالح وقلبه كبير، دا انا عارفاه وياما شُفته، تعرف إنه حضر كتب كتابي أنا وأبوك هنا في الشقة، وكان قاعد في الحتة دي.

وأشارت إلى أحد المقاعد:

- دا ياما جدك زكي شكر فيه، وكان يقول آدي الناس المسلمة صحيح، وتعرف إني...

استعجلتها، مشيرًا إلى حسن الواقف بالباب.

- خلاص خلاص رُوح يا حبيبي، بس ما تتأخَّرش إنت عارف الامتحان بعد أسبوعين، دي الثانوية العامة يا جلال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يبدو أن الخبر شاع في حي الظاهر بأكمله..

كانت الزاوية أشبه بخليَّة نحل، والخَلْق من حولها أُمَم أمم ومن كل الأعمار..

عيال وكبار وصبيان وبنات، والشارع مغلق من شدة الزحام، وعلى النواصي وفي مداخل الشوارع القريبة والحارات، تصطفُّ عربات نصف نقل وباص قديم وعربات أجرة بعضها آتٍ من الأرياف، وأخريان مَلَّاكي من طراز حديث تحمل إحداهن لوحة محافظة أسوان، والسائقون إما واقفون إلى جوار المَرْكَبات أو خلف عجلات القيادة في انتظار الانطلاق إلى المدافن بالناس.

كنتُ أنا وحسن على أول الشارع وتصادف أن وقفنا إلى جوارِ عددٍ من الرجال، بشرتهم سمراء ونُحاف وجلابيبهم زاهية البياض، عرفناهم من العمامات التي على رءُوسهم، كانت كبيرة ومعقودة على غِرَار عمامة عم إدريس.

قلنا: أكيد أنهم من النوبة مثله، والغريب أننا لم نسمع واحدًا منهم ينطقُ بكلمةٍ أو يهمسُ في أُذُن الآخر، يعطون الموت حقه ويهابون جلال الموقف،

ظلت أياديهم معقودة أسفل صدورهم وبقوا كلهم صامتين.

لم نغامر أنا وحسن بالتقدم إلى الإمام، أحببنا الوقوف مع هؤلاء الناس الطيبين، وإذا أخذت دفقةُ الناس واحدًا منَّا خطوتين أو ثلاثة إلى الإمام كان الآخر يشدُّه إليه مخافةَ أن يضيع منه في الزحام.

وفجأةَ عَمَّ السكون، ورأينا الجثمان يخرج من الزاوية..

وانجذبتُ أنا إلى الرجل الذي يحمل مقدمة المِحَفَّة من الأمام، كأني أعرفه.. يا سبحان الله! إنه عم إدريس، خدعني البصر أول الأمر لما رأيته وقد شاخ في العمر مرةً واحدة وبدا وكأنه في الثمانين، ربما من قِلَّة النوم أو الإجهاد، أو لعلَّه الحزن وصُفْرة اللون عندما تكتسيان السمار، فقد سمعت أنه لم يكن يفارق الشيخ، وحتى بعدما لزم بيته كان يَعُودُه بلا انقطاع. وحامت في بالي لحظتها الرهبةُ التي كانت تتغشانا أنا وحسن، عندما كُنَّا نرى الشيخ خلف وهو يتأهَّب للأذان.

لم يدُم السكون سوى لحظةٍ حتى انطلقت زغرودةٌ من إحدى الشرفات، تلتها الزغاريدُ من كل مكان. ووجدنا مصاحف صغيرة وأيادي عالية في السماء وأصحابُها بملء أفواههم يصيحون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا إله إلا الله الشيخ خلف حبيب الله.

كان حسن يتابعُ ما يجري باستغراق، ويلكُزني كلَّ ثانيةٍ كي أنتبه لهذا أو أنظر إلى ما يفعله ذاك، وأنا لا أكاد أشعر به، تأتيني كلماته مُشوَّشة وكأنها قادمةٌ من بعيد، من عالم آخر غير العالم الذي كنت فيه، وتخبو صور الناس في عيني، تبدو كالظلال، والأصوات لا أعي منها إلا كلمة: لا إله إلا الله، وكأن قدميَّ قد خفَّتا وأطير في الهواء، وأدخل دفعةً واحدة في بكاءٍ ونشيجٍ ولا أكفُّ عن الصياح بأعلى صوتي: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وحسن المصعوق بما أفعل يحيطني بذراعه، يرجوني أن أهدأ ويتلفَّت حوله كالمشدوه. وانشقَّت الأرض عن الحاج محمود، أخذني في أحضانه وأخذ يقرأ على رأسي الفاتحة وقصار السور وبعض الأذكار، فأستكينُ بين يديه، ثم ما تلبث أن تبدأ شهقاتي وأهمُّ ثانيةً بالبكاء.

أخذني هو وحسن إلى البيت، أذكرُ أني ظللتُ نائمًا حتى منتصف الليل، وعندما سمعت أذان الفجر نزلت إلى الجامع أُصلِّي مع الناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

33

جلال..

أكتبُ لك هذا الخطاب صباح اليوم الذي سوف نتركُ فيه البيت، ومن أول الليل وأنا لا أعرف بأيِّ وجهٍ سوف تهلُّ علينا شمس الصباح، ولا كيف سوف أترك هذه الدنيا التي وُلدتُ وتربيتُ فيها، فراشي الذي لا أذكر أني نمت مرة واحدة بعيدًا عنه، والشارع الذي لا أعرف سواه..

ظللتُ أتقلَّبُ طوال الليل في الفراش، أتألَّم تارةً لفراقك، وتارة أخرى خوفًا من الحياة التي أنا مقدمةٌ عليها، ووجدتُ نفسي أتأسَّى على حالي وأدخل في نوبة بكاء..

واعلم يا حبيبي أنك من الآن سوف تكون بمأمن، سوف أخبِّئُك في قلبي، في أعمق مكان فيه، وأغلق عليك، ولن يعرف أحدٌ أبدًا بمكانك، لا أمي ولا أمك ولا أحدٌ آخر، قد يروننني جالسةً أطالع كتابًا أو مستلقيةً على الفراش أتهيَّأ للنوم أو هنا أو هناك، لكن لو كانت لهم قلوب لعرفوا أني لست وحدي وإنما معك، أكلمك وتكلمني، أخفض عيني خجلًا وأنت تُربِّت عليَّ أو تُجري أصابعك على شعري..

قد لا تصدقُ إذا قلتُ لك إني لا أعرف عنوان السكن الجديد الذي نحن في طريقنا إليه الآن، فقد حرصت أمي - سامحها الله - على ألَّا تبوحَ به لأحدٍ حتى لا يتسرَّب إلى أهل العمارة، فأخفته حتى عني، وعن صديقتها الحميمة زوجة أبو السعد أفندي.

جلال..

أنا يتيمةُ الأبِ كما تعلم وأهل أمي هم الذين تكفَّلوا بتربيتي، والقرار قرارهم في كل شيء يتعلق بي. ويبدو أن أمي تسرَّعت وأخبرتهم بالذي بيننا، وها أنا أجني ثمار ما فعلت. والأدْهَى من ذلك أنها قالت لي من يومين: إن خالي الشيخ مصطفى كلمها في أمر خطبتي لابنه الكبير الضابط بالجيش، وقبل أن أنطق بكلمة قالت لي إنني لو أكثرت في الجدال لن يكتفوا فقط بنقلنا من السكن القديم، وإنما سوف يخرجونني من المدرسة وأجلس معها في البيت.

والذي أودَّ أن تعرفه أيضًا أن هذا الحال الذي انتهينا إليه جاء على هوى تانت كاميليا، هذا ما فهمته من أمي!

اهتمّ بنفسك وبدروسك يا جلال..

وأستحلفك بالله ألّا تُمنِّي نفسك بشيءٍ تستكثره علينا الظروف والأيام، لأنك لو أقدمت على شيء ولو كان حتى مجرد السؤال عن عنواني فسوف توقع بي الأذى، فما زال لأمي عيونٌ في العمارة تنقل لها الأخبار.

نادية

كنتُ عائدًا من صلاة الظهر فوجدتُ الست شوق في انتظاري أمام باب العمارة، تلفتَّت حولها وقالت: إن معها أمانةً لي، وعندما لمحَتِ الدهشةَ التي تكسو وجهي، أردفتْ:

- أيوه أمانة.. جواب من الست نادية.

فرفعتُ بصري إلى أعلى صوب شرفتها.

- بتبُصّ على إيه يا بْنِي مفيش حد فوق! دُول عزِّلوا خلاص، مشيوا من إمبارح الضهر.

- عزلوا؟ سابوا البيت خلاص؟ نهائي نهائي!

- إنت لسه بتبص فوق! يا دي الخيبة، يا بْنِي خَلِّيك معايا..

وأخرجت الخطابَ من صدرها، وسلَّمته لي وهي ترجوني:

- إوعى يا سي جلال يقع في أيد حد كده وللا كده، إوعى.. دا يبقى فيها خراب بيوت، وبالخصوص الست والدتك.

- بتقولي إيه؟

- أيوه الست والدتك، دي وصية نادية، وقالت لي: إنها كانت عايزه تقولَّك كده في الجواب بس انكسفت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما صعدتُ إلى الشقة وجدتُ أمي جالسةً على الأرض في غرفتها، وإلى جوارها حقيبتان من الخشب حجمهما كبير وكُلٌّ واحدةٍ منهما مُبطَّنة بصدغ من الحديد، وفي المنتصف من أعلى (زَرَّة) بمسامير كالتي تُستخدم في غلق الأبواب، وقفل يزيد وزنه على ربع كيلو. الحقيبتان اللتان كانتا أسفل سرير جدِّي ولا أذكر منذ أن وعيت على الدنيا أنهما تحركتا بوصةً واحدةً من مكانهما، وكان الدولاب مفتوحًا عن آخره ومحتوياته متناثرة في كل مكان، بلوزات، فساتين، شمَّاعات، مفارش وبلاطي قديمة، أرواب وقمصان نوم، زجاجات عطور فارغة أو بالكاد فيها نقطة أو نقطتان، وشباشب بيتي وخروج بعضها مقلوب على وجهه.

رفعَتْ رأسها إليَّ مبتسمةً، وعيناها تلمعان من أعلى النظّارة المتدلية على أنفها:

- إنت فين يا جلال؟ مش كنت تقف معايا وأنا بعمل بروڤة للحاجات اللي هناخدها معانا، كنت فين واتأخرت كده ليه مش قلت لي دقيقة وراجع؟

- كنت في الجامع.

فقالت وهي تحكُّ بأظفارها في صدغها:

- آه! الجامع.. طيب ما كنت تقفل أوضتك عليك وتصلِّي فيها،

ولَّا ضروري يعني تصلي في الجامع؟

لم أُجِبْ، وظلتْ عيناي تطوفان على الهدوم والكراكيب التي تملأ الغرفة.

- تعرف يا جلال ولا حاجة من كل ده هتنفع هناك، هبقى زَيّ اللي جاية من الفلاحين، يمكن الفستانين التلاتة دول، والكام جزمة وشوية الغيارات دي.

وأشارت إلى كومةٍ من الملابس، وعلب للأحذية مرصوصة فوق بعضها البعض بجوار السرير.

- آه والباقي أشحَّنُه، طب أشحته لمين؟ لمين؟ لمين؟ أشحته دا إيه! واد يا جلال إلَّا هو عمك يونس بتاع الروبابيكيا لسه بييجي زَيّ زمان وأنا أبيعهم له.

وسحبت طربوش جدِّي من أحد أرفف الدولاب:

- طب وبسلامته دا أعمل فيه إيه، دا مزيَّت ومايساويش مليم ولا هينفعه بحاجة هناك، وللا حتى عاد له لزوم هنا.

وتسألني:

- تفتكر عمك يونس يرضى يشتريه؟ إن شا الله بربع جنيه.

لم أُجِبْ، فحدقتْ فيَّ غاضبةً:

- ولد مالك؟ واقف ساكت ومطرشم كده ليه!

ثم أخذت تقلب الطربوش في يدها، وكأنها تتكلم معه "خلاص يا عم زكي كلها شهر بالكتير وأكون عندك، إلا قولِّي إنت بتلبس إيه على راسك دلوقتي، تلاقيك بتلبس برنيطة وبقيت خواجة، وإنتي يا ست ماما عامله إيه دلوقتي...".

لم أسمع بقية الكلام، تركتُها وعدتُ إلى غرفتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

34

ونجحتُ بتفوُّق..

وكانت أعجوبةً من الأعاجيب التي تستحق الإدراج في موسوعة (چينيس)، أن يحصل طالب في فصل ثالثة عاشر على سبعةٍ وثمانين في المائة بامتحان الثانوية العامة، بل وحدثٌ يجب أن تتناقله وسائل الإعلام، كما قال مرقص أفندي معاون المدرسة.

كان الرجل يمسك بكشف الدرجات في يده، ويتفحَّصُني من أول الفَرْق الذي في شعري حتى ربطة الحذاء. يدقق في الكشف ثانيةً، ويعاود التأمُّل فيَّ من أعلى نظارة القراءة وحدقتا عينيه تتسعان من الدهشة، وكأنما شيءٌ يقول له إنه في حُلْم وليس في علم، معذور - ورب الكعبة - فأنا الآخر مثله، ولم أستوعب بعد هذا الذي حدث.

يُحدث جلبةً وهو يقوم من كرسيه، ويمد يده إليَّ مُسلِّمًا:

- واد يا جلال يخرب بيتك، إيه ده اللي إنت عملته، الأول! وعلى المنطقة كمان! أنا بقالي تلاتين سنة في المخروبة دي ومشفتش كده، الأول على المنطقة من مدرستنا، دي حكاية لوحدها، ومنين؟ من تالتة عاشر! دي بقى اللي تفوت في النافوخ وتخلَّص عليه، من تالتة عاشر..

وينظر ناحية الأستاذ سُمعة مدرس الموسيقى، الذي كان جالسًا على مقعد يطلُّ منه على حوش المدرسة.

- وللا إيه رأيك يا أستاذ سُمعة، مش والنبي الحكاية دي تنفع حدوتة تنحكي للعيال في الليل، زَيّ حدوتة الشاطر حسن والزير سالم وأبو رِجْل مسلوخة.

يتأملني الأستاذ سُمعة، وعيناه تقولان إنه يفتش عن صاحب هذه السحنة في الجانب غير السار من مخزون ذكرياته..

ثم يسألني:

- مش إنت اللي؟

ويسكتُ مراجعًا نفسه، وأتحوَّل أنا إلى الأستاذ مرقص مستفسرًا:

- والباقيين يا أستاذ عملوا إيه؟

- باقيين! هو عاد فيه باقيين يا ْبنِي، كله على الشارع، كله كله ولا واحد نجح طبعًا.

- والليثي كمان؟

- ليثي! ليثي مين! وهو الوسخ ده بتاع علم، قال إيه جاي من الصبح بدري يسأل على النتيجة، تعرف جاي بإيه؟! النَّطْع ده لابس جلَّابية بلدي وعلى راسه لاسة وماسك في إيده خرزانة، يكونش إحنا هنا سوق خضار وللا شادر سمك، تعرف جاب كام؟

فتطلعتُ إليه..

- جاب تسعة في المِيَّة في المجموع الكلي، أي والله!! وخد عندك في الكيميا والطبيعة والرياضة، صفر صفر صفر. قلت له: سبع سنين يا ليثي في الثانوية العامة! روح شوف لك حته بعيد عننا، إنت لا ينفع لك تعليم ولا مدارس، دا حتى حكاية المدرسة دي بقت مش لايقة عليك ولا تناسب سِنَّك، دا يا ْبنِي مدرس الرياضة اللي عينته القوى العاملة([3]) عندنا السنة اللي فاتت من دورك، إنتو الاتنين مواليد سنه واحدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واستدعاني حضرة الناظر إلى مكتبه..

شدَّ على يدي بحرارةٍ وهو يقول بأني رفعت رأسه ورأس المدرسة عاليًا، بعد أن يَئِس من فصل ثالثة عاشر ووضع يده في الشق.

واحتضنني الأستاذ البصراطي، ثم التفت إلى حضرة الناظر:

- دا فصل ملعون يا سعادة البيه، دا كان ناقص إن الواحد مننا يرخَّص بندقية آلي ويعلقها على كتفه وهو داخل من باب الفصل الوسخ ده، ويضربلوا عيارين تلاتة في الهوا على سبيل التهديد قبل ما يشرح الدرس، إنما الولد ده!

وأشار إليَّ:

- ولد محترم، ابن ناس طيبين، وأنا طول عمري أتنبأ له بمستقبل زاهر، مش بعيد يبقى زَيّ الدكتور مُشرَّفة وللا الدكتور أنور المفتي، أما من حيث الأخلاق، ذوق ومؤدب ومطيع، حاجة تفرح.

هز حضرة الناظر رأسه طربًا، فاستمر الأستاذ البصراطي:

- دا تربيتي، وكنت كده زَيّ أبوه الروحي، أقول له: شد حيلك يا جلال، يقول لي: حاضر، عايزك ترفع راس حضرة الناظر في الامتحان، يقول لي: حاضر،

وعلى كده على طول حاضر حاضر.

ويلتف إليَّ:

- مش كده يا جلال؟

فأجبته وأنا ما بين الضحك والخجل:

- طبعًا طبعًا يا سيادة الرائد العام، ربنا يخلِّيك لينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي البيت استقبلتني أُمُّ حسن بالزغاريد على سُلَّم العمارة، وصعدت إلينا بدستة شربات وثلاثة أقماع كبيرة من السكر. وأرسل المعلم حبيب صندوقين إسباتس وكوكا كولا، وأتى الحاج محمود وأبو السعد أفندي والكابتن فريد وباقي سكان العمارة مع زوجاتهم وأولادهم، ودارت الست شوق بأكواب الشربات وكلما همَّت بإلقاء زغرودة، كان الجالسون يسارعون بحماية رءُوسهم مخافةَ أن تقع صينية الأكواب التي ترتعش في يدها الثانية على رءُوسهم. مسكينة! باءَت محاولاتها بالفشل، كانت الزغرودة غالبًا ما تنحاش في زورها وإن خرجت تبدو كمُواءِ قِطٍّ عجوز.

وفي المساء أخذني حسن إلى سينما مصر..

شاهدنا فيلم (أطول يوم في التاريخ)، ثم فيلم (الخطايا)، ظللت أتابع عبدالحليم حافظ طول الفيلم وهو حائر ضائع، وتبدو لي نادية لطفي وكأنها نادية حبيبتي..

وعندما تمددتُ على الفراش في آخر اليوم حام طيف جدِّي لأبي في خيالي، وحال بيني وبين النوم.

لم أكن قد تذكَّرته منذ أشهر وربما سنة بطولها، أحاول الإفلات منه فيستمر في الإلحاح، أفكر في شيءٍ آخر، أضع مخدة على رأسي ولا جدوى، وهببتُ فجأةً من النوم على أذان الفجر، يبدو أني غفوتُ غفوةً قصيرة، وأكاد أجزم أنه جاءني في المنام، هي العمامة، والعصا نفسها التي يتوكَّأ عليها، وهو الوجه نفسه إلا أنه أكثر شبابًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

35

وتقول لي أمي صباحَ اليومِ التالي لنجاحي:

- اسمع يا جلال أنا لحد كده عملت اللي عليَّه، خلِّفتك وربِّيتك واتحملت كتير علشانك، ودلوقتي عايزاك تربَّحني.

فتسارعت دقاتُ قلبي، وقلت في نفسي "أكيد هتفتح موضوع السفر، استر يا رب"، وأزحت كوب الشاي جانبًا وأنا أنظر إليها خلسة، عيناها شاخصتان نحوي وتقاطيع وجهها تقول إن معركةً سوف تنشُب بيننا إن لم أتجاوب معها.

شرعت في المراوغة..

نظرتُ إليها وعلى شفتي ابتسامةٌ كاذبة، فلم تعبأ وبدا وجهها وكأنما ينتظر مني ردًّا على الفور..

قلت:

- صباح الخير ياست ماما، إيه رأيك نتفسح النهارده بمناسبة نجاحي، نروح الهرم، هرم إيه الدنيا حر! نروح جنينة الحيوانات.

- ولد! أنا مش فايقة وبَتكلِّم جد.

- نشوف الحمار المخطط، ونلاعب القرود أو نركب الفيل أبو زلومة.

صاحت في وجهي:

- بطَّل الكلام الخايب ده واسمعني كويس، أنا خلاص ناوية على السفر، هروح أعيش مع الماما والبابا، ألحق أقعد معاهم لحسن حد يجراله حاجة منهم وأفضل ندمانة العمر كله.

- طيب نأجِّل الكلام في الحكاية دي لبعدين.

- لا بعدين ولا قبلين، وكلامي دا نهائي.

- يا ماما!

- لا ماما ولا بابا، إنت خلاص كبرت وزِّيني كده هتصرَّف أمورك إزاي؟

توترتُ أنا الآخر، وقلت بضجر:

- وإيه المطلوب مني؟

- نصفِّي حاجتنا هنا، الشقة نشوف هنسيبها لمين وللا هناخد فيها خلوّ رجل كام، ومن الصبح تروح لعمك في البلد تحايله تخانقه تلاطفه اعمل اللي تقدر عليه؛ علشان تعرف اللي لك وتاخده.

- اسمعي يا ماما أنا بالعربي كده مقدرش أسيب هنا، معرفش أعيش هناك، أموت، أفطس.

ردت بأَسَى:

- تفطس!

ومضت برهةٌ تحاشى فيها كلٌّ منا النظر إلى الآخر..

لم يكن يُسمع إلا صوت الرشفة أو الرشفتين اللتين تناولتهما أمي من كوب الشاي، وتطايُر أوراق النتيجة الورقيَّة المعلقة على الحائط بفعل نسمة هواء هبَّت علينا، وكانت الحركة في الخارج هادئةً على غير العادة، والشارع ساكت لا يأتي منه صوت.

ومدت هي يدها مُربِّتةً على ذراعي:

- طيب تعالى وجرب، تعالى وصَّل ماما، تعالى شوف جدك، وللا كتير علينا دا يا سي جلال! كتير على ماما اللي علشانك مشافتش يوم حلو في دنيتها وللا جدك الراجل الغلبان اللي نفسه يشوفك!

- ماما..

- ماما إيه بقى!

قالتها على نحو حرك قلبي، فعاودتُ جدالها ولكن بصوتٍ خافتٍ وقلبٍ مرغم:

- بس حكاية نصفِّي حاجتنا دي.. أصل يعني.. طيب إزاي بس نسيب شقتنا هنا؟ أمَّال لما نرجع تاني هنا هنقعد فين؟ وبعدين أنا لسَّه ما بلغتش سن الرُّشْد ومش هقدر آخد حاجتي وأرضي من عمي دلوقتي، لسه فين! سنتين وللا تلاته على الأقل.

- يعني هتيجي معايا؟

- آجي بس أرجع آخر الصيف.

- زَيّ بعضه..

- على دخول الجامعة.

- خلاص على دخول الجامعة.

- وترجعي معايا؟

فردت بانفعال:

- بتقول إيه! أرجع، أرجع دا إيه! دا أنا بحسب السنين هنا يوم بيوم وساعة بساعة، وبتقولّي أرجع! أرجع لمين؟ للست شوق وأم حسن والكام جارة اللي عايزين الحرق، دا أنا مَبَنمْش الليل، ليلي طويل ونهاري زَيّ لِيلي، اسكت اسكت.

- ومالها أُمّ حسن يا ماما؟

- أُمّ حسن دا إيه! أنا عايزة ناس تانية، عايزه أهلي، ناسي، أعيش بينهم وأروح وآجي معاهم.

- يا ماما مش كده، إنتي فاهمه الدنيا غلط.

- غلط! خلّي الصح لك إنت يا جلال.

ظللتُ ساكتًا وهي تكمل كلامها:

- تروح لعمَّك وتحاسبه، تشوف إيه اللي لك، واللي تعرف تجيبه منه هاتُه.

- حاضر.

- تروح بعد يوم وللا اتنين.

- حاضر.

- يعني على آخر الأسبوع تكون رجعت وجبت الفلوس معاك.

- حاضر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

36

ولاحت لي البلدة من نافذة الباص..

شجر الكافور، مدخنة وابور الطحين، بيوت من طابق وطابقين أُنشئت حديثًا على أطراف الحقول، وحوائط من الطوب الأحمر وسقوف وأعمدة من الحديد المُسلَّح في وسط الزرع، تبرز منها أسياخ نالها الصدأ ومربوط بأطرافها خِرَقٌ من الخيش تتطاير في الهواء. ورجل سبق الجميع وفتح دكان بقالة في الخلاء، مركون بجوار بابه برميل زيت يلطخ السوادُ حافَّتَه، وبرميل أكبر للجاز له صنبورٌ صغيرٌ وفي أعلاه طِسْتٌ به فوارغ من كل المقاسات.

وكنت أرى الحمير على طول السكة الزراعيَّة وهي تنوء بأحمالها، ومع ذلك كانت تزفر برضا وبين الحين والحين ترفع رءُوسها وتنظر بألفة إلى الزرائب والشّوَن التي تلوح مع البيوت من بعيد، وتسرع في خُطاها، كأنما تطمح في أن تريح ظهورها بعد هذا المشوار الطويل، وتحظى بشَرْبَة ماء أو تستلقي في الظل كسائر خلق الله.

وطفقتُ أتابعُ الفلاحين الذين يملئُون الحقول..

كانوا بملابس العمل، الفانلَّات ذات الأكمام الطويلة والسراويل، وأسمعُ الصخب الذي يُحدثونه والنداءات. وألمح الذين يجلسون منهم في دوائر حول بَرَّاد كبير للشاي مدسوس بين جمرات النار، والذين يتمدَّدُون في ظلِ شجرةٍ أو بين أعواد الغاب وأبدانهم المُتعبَة راحت في سُباتٍ عميق، والبنات اللائي كُنَّ يحملن كيزان الذُّرة في حجورهن ويلقين بها في أكوام وضحكاتهن ترن في السماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كُنَّا في أول الحصاد، والفَرح مولود لتَوِّه، وريحُه تسري في كل مكان.

وعندما أبطأ الباصُ في السير، اقترب مني المُحصِّل وقال وهو يريح كفَّ يده على حافة المقعد الذي أجلس عليه:

- أظن الأستاذ قاطع لحد المنصورِيَّة؟

هززتُ رأسي بالإيجاب، فطلب مني أن أتجهَّز.

نزلت..

تلفَّتُّ حولي ببطءٍ وبشيءٍ من الثقة كي لا أبدو غريبًا أو أثير أي فضول، وإن كنتُ في الحقيقة مشدودًا وكأن رجفةً تسري في بدني، فشتَّان ما بين هذه المرة والمرة السابقة، كنت في الأولى وثَّابًا وعيناي ملهوفتان على أيِّ شيءٍ تريانه، أما الآن فالحال غير الحال، كان الجد والجدة في انتظارنا أما اليوم فالعم إبراهيم! لعنة الله على هذا العم الكئيب..

تُرى سوف يعرفني بعد أن صرت في طول جدِّي، وأصبح لي ذقن خشنة وطلعة كطلعة الرجال؟ وكيف سيلقاني؟ وما الهيئةُ التي يبدو عليها هذا العَمُّ الآن؟

ظللتُ واقفًا أتطلَّع حولي، إلى أن لفت نظري مقهى صغير على بعد ياردات من الطريق فاتجهتُ إليه.

ليس مقهى كالمقاهي التي في شارعنا، مجرد عُشَّة كبيرة يحيط بها سياجٌ قصيرٌ من الغاب المضفور، وجزء منها مسقوف بلوحين من الأبلكاش والباقي بالخيش وأعواد الجريد، والسقف كله يرتكز على أربعة جذوع من النخيل. لم تكن متساوية الطول، الجذعان الأماميَّان هما الأقل طولًا؛ ولذا بدا السقف مائلًا ناحية الواجهة وكأنما على وشك السقوط.

أما المقاعد الخشبية فكانت من طرازٍ فريد..

استحالة أن تكون خرجت من ورشة، أو ساهم في صنعها نجَّار ولو حتى جديدًا في الكار. صاحب المقهى هو الذي صنعها بيده! أكيد هذا الرجل السمين المُتكوِّم على البنك الذي في أول المقهى، وعشر ذبابات على الأقل تلهو على شال عِمَّته.

فما هذا الذي أراه؟!

مقعد بخمسة قوائم وآخر بثلاثة ومقعد بمسند مخلوع، والغريب أنها ترتفع عن الأرض ارتفاعًا غير مسبوق في عالم النجارة، ولو جازفَ أحدٌ وجلس على أيٍّ منها دفعة واحدة وبلا حذر أو أيَّة احتياطات، لكانَ هو المُقصِّر في حق نفسه والمسئول عما يجري له. وطاولات قصيرة كأنما أُعدَّت لزبائن قصار القامة، ويُفضل لو كانوا أقزامًا، والرعشة والتزييق إذا لمستها ولو بحنان، ناهيك عن المسامير التي تطلُّ برءُوسها في كُلِّ مكانٍ، ولو لم تضع عينيك في رأسك لصار أي ثوب ترتديه (ضبَّة ومفتاح)..

آثرتُ ألَّا أجلس في الواجهة، توقيًا للغبار الآتي من جراراتِ الحرثِ والدَّوابِّ التي تعبر الطريق. اتجهتُ صوبَ الجانب الأيمن المحاذي لبوابة وابور الطحين، تخيَّرت مقعدًا أتسلى منه برؤية الداخلين والخارجين من البَوَّابة،

وكانت الريح تهبُّ خفيفًا، فأتاني غبار من نوع آخر وفعمتني رائحته، رائحة الدقيق، كنت أرى ذرَّاته تسبح في أشعَّة الشمس المتسللة من بين أعواد الغاب، وأتابعها وهي تدور حول نفسها دوراتٍ متعاقبةً إلى الأسفل لتستقرَّ أخيرًا على بنطالي خاصةً في موضع الركبتين.

وتذكرت الميزان القَبَّاني الذي كان موجودًا بجوار البَوَّابة، غير أني لم أجده.

يبدو أنهم وضعوه في مكانٍ آخر خلف الوابور؛ إذ كنت أرى النسوة اللائي يحملن قُفَف الحَبّ متجهاتٍ صوب الحائط الغربي للوابور، ليظهرن بعدها من الجانب الآخر ويمرقن من البَوَّابة وفي يدِ كُلِّ واحدةٍ منهن الورقة المُسجَّل عليها مقدار الوزن والمبلغ المدفوع، أما الحمير المُحمَّلة بالأجولة فكانت لها سكة أخرى ذات التواءات، وتُفضي في النهاية إلى الوابور من الخلف حيث الميزان.

وانداح بصري نحو المدخنة..

لم تعُدْ عالية، جاورها بيتان من ثلاثة طوابق لا يزالان تحت الإنشاء، ودهنوا الوابور كله بلون أزرق فاقع، فبدا كعجوزٍ يقول إنه ابن اليوم والناس لا تعطي لقوله اعتبارًا، والمساحة الواسعة التي كانت تربض فيها الحمير ضاقت، أقاموا فيها أربعة دكاكين تطلُّ على الطريق.

لم يعُد الوابور مهيبًا مثلما رأيته وأنا صغير..

ورغم أني أطلتُ النظرَ فيه هذه المرة، إلا أنه كلما استدعيته إلى خاطري بعدها لم أكن أستدعيه إلَّا على الحال الذي كان عليها يوم أن رأيته وأنا صغير، أما هيئتُه الجديدة بلونها الأزرق الفاقع فقد نسيتها، وإذا لاحت لي مرة من تلقاء نفسها كنت أعبسُ في وجهها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يطُلْ بي المُقام في المقهى، غادرتُه ومشيتُ نحو بيت جدِّي، قادتني الذاكرة من شارع إلى آخر. كنت متوتِّرًا بالطبع وأعمل ألف حساب للسحنة التي سوف يلقاني بها العم، وشيئًا فشيئًا بدأت تومض أشياءُ لم أكن أحسب أنها لا تزال في بالي، وكأن قلبي يألف لها وتخفُّ ضرباته، وبدا لي الأمر وكأن البيوت تتطلع إليَّ بعد غياب، والرجل الآتي في مواجهتي الآن كأنه أحد صاحبَي جدِّي اللذان أتيا إليه وجلسا يُسامرانه على الحصيرة وأنا موجود، والمرأة العجوز التي تجلس على عتبة بيتها في الظل النحيل للجدار، وجهها يقول إنه الخالق الناطق وجه جدَّتي.

وهذه الدكاكين.. وهنا.. في هذا المكان.. عند هذا المنعطف بالتمام، رأيت رجلًا بصديري وقميص طويل من الدَّمُّور وجلبابُه مطويٌّ على كتفه. شاهدنا أنا وأمي فهُرع إلينا وظل يدفع الأولاد عنا بعود من الحطب التقطه من الأرض وهم يتقافزون أمامه، وأمام هذا البيت صادفتنا المرأة ذات الشعر المنكوش والحزام التيل الذي تلفُّ به خاصرتها، أخافتني نظراتُها فأمسكت بيد أمي مستنجدًا، فشددت قبضتها على يدي وفي عينيها خوفٌ أكثر مما بي.

وأندهش من كل هذا الذي أتذكَّره، فلم أكن أحسب أنه محفور في رأسي إلى هذا الحد وأنا لا أشعر ولا أحس..

وعندما وصلتُ إلى مفرق لعدة حارات، سألت فقالوا: إن البيت القديم لم يعُدْ موجودًا، هدموه بعد أن مات الجد عبدالحميد، وأشاروا إلى بنايةٍ من الطوب الأحمر القاتم أُقيمت مكانه. ورأيت أولادًا كبارًا يقفون أمام بوابتها التي صفَّحوها بالحديد الأسود، وركَّبوا عليها قضبانًا ملتوية لها سنونٌ كسنون الحِرَاب، ومقبضُ فولاذيٌّ على هيئة رأس أسد منكوش الشعر ويلقاني بتكشيرة من أنيابه.

وقفت على مقربة منهم وخفقانٌ دافقٌ يلاحقُ صدري، وقلبي يهيمُ في البَوَّابة القديمة، البَوَّابة الخشبيَّة التي دلفت منها خلف جدِّي أول يوم جئت فيه، والجدار الغربي، والدهليز، وغرفة الخزين التي كُنَّا ننام فيها أنا وأمي، حتى شجرتا التوت ليستا موجودتيْن، اقتلعهما أصحاب البيت الجديد وأقاموا مكانهما صفًّا من أشجار الزينة التي تُنبت أزهارًا نارية لونها الأحمر لا يريح العين.

ترَيَّثتُ برهةً لأضبط مشاعري، ثم أقبلتُ على الأولاد الذين كانوا يرمقونني بدهشةٍ ويتهامسون.

قلت لهم من أكون..

فلم يبدُ عليهم أي انفعال، لا بالخير ولا بالشر، سلموا عليَّ بتحفُّظٍ كما يسلمون على عابر سبيل، وقادني أكبرهم إلى غرفةٍ فسيحة، أجلسني وخرج دون أن يُحكم إغلاق الباب فظلَّ موارَبًا.

الغرفة طويلة وأقرب لأن تكون مَصْيَفَة لاستقبال الغرباء، وليس للاستعمال الدارج لأهل البيت، ومليئة بكنب بلدي تعلوه بياضات لها لون أخضر زرعي، وفي الزاوية ثلاثُ أرائك مُذهَّبة أمامها منضدةٌ عليها دفاتر وأوراق، وكان بمواجهتي ثلاثة شبابيك ذات مقاسات كبيرة تطل على الشارع.

لفت نظري أن الأولاد الذين لقيتهم على الباب قد اتَّخذوا أماكن يرمقونني منها جيدًا، وأنهم يزدادون، بلغوا عشرةً في حين لم يكونوا سوى أربعةٍ لحظة دخولي. أحببتُ أن أناورهم فانتقلتُ إلى الناحية المقابلة، جلست وظهري للحائط ورأسي ويداي وباقي أجزائي مختبئة بين ضلفتَيْ شباكين متجاورين، وانكمشت تمامًا مُضيِّقًا عليهم أي منفذ لمراقبتي اللهم إلا إذا ابتدعوا حيلة جديدة، وهم في هذا - والحق - لا يُبارَوْن. وكانت المفاجأة أن أرى صورة جدِّي معلقة على الجدار المقابل لي، لم أرَهَا من أول لحظة، لعلَّها الرهبة التي أخذتني عندما دخلت، فم جدِّي كان مزمومًا وتقطيبةٌ تعلو جبهته، ورغم ذلك بدت قسمات وجهه طيبة رخيَّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وشاع الخبر في البيت..

أحسست بحركةٍ خفيفةٍ وهمهمات، وعيون تتطلَّعُ من فتحة الباب المُوارَب، أولاد وبنات يتزاحمون على الفتحة، ومن تدافعهم كانت تنفرج منهم، لكن يدًا كانت تسرع بشكل تلقائي وتعيدها إلى حالها الأول للمحافظة على المساحة الصحيحة بيني وبينهم حيث يرونني ولا أراهم. وبعد برهةٍ سمعتُ صوتًا أنثويًّا يهشُّ هذا الجمع ويدفع الباب، وتدخل فتاةٌ شعرها ملموم بمنديل أبيض به خطوط سوداء، قدمت لي الشاي في كوب من الحجم الكبير، سألتها عن الأكواب الصغيرة والشاي ذي الرائحة النفَّاذة الذي كنت أشربه مع جدِّي.

لم تُجِبْ.

مددتُ يدي لها مُسلِّمًا، فسلمت عليَّ دون أن تغطي يدها بكُمِّ الجلباب كما يفعل أهل الريف عندما يسلمون على رجلٍ غريب، ولما سألتها عن اسمها قالت: ليلى..

وأسرعتْ خارجةً تتعثرُ في خطواتها، أظنُّها أختي التي كانت تُقعي في حِجْر أُمِّها يوم أن أتينا هنا أول مرة وأنا ابن سنوات..

وأتى إمام..

دخل على عَجَلٍ ووجهُه يتألَّق بضحكة كبيرة.

- سي جلال، أهلًا أهلًا أهلًا.

وأخذني بالأحضان:

لم أرَهُ من سنين طويلة، جفَّ وجهه وضمر واستغربت أكثر من اللحية التي ربَّاها في منطقة الذقن حتى التحمت بشاربه، والشعر الذي برز من حوافِّ

الطاقية صار أشيبَ مجعدًا وأشبه بقطن التنجيد. بان عليه الهُزال، أحسستُ بذلك لما احتضنته، شعرتُ بأنه ضئيل في يدي وأني قادر على حمله.

سألتُه عن جدَّتي، فقال: إنها قضت من سنة أو يزيد، واندهش من أني لا أعرف ذلك، وأردف: بأنه جاء لأمي في اليوم الثالث لوفاة جدَّتي خلسةً من وراء عمي إبراهيم، وطلب منها إبلاغي وأن نأتي معًا للعزاء فيكفي أنها قصَّرت في عزاء جدِّي، بل وسألها بعدها أكثر من مرة، فقالت: إنها مريضة ولا تقدر على السفر إلى الأرياف، وأن ابني مشغول بالمذاكرة الآن وعندما تنتهي الامتحانات سوف أحضر للعزاء.

والتفت إليَّ وهو يزيح طاقيته للخلف كاشفًا عن جبهته المُبلَّلة بالعرق، مسحها بمنديل كان في حِجْره، وقال وعيناه تبرقان بعلامة استنكار: ألم تبلغك؟!

صَمَتُّ..

رَبَّت على يدي وقال بصوتٍ هامس: إن جاءت السيرةُ مع عمك فلا تقُلْ إنك تعرف أو أني أبلغتكم.

وصفق عمي إبراهيم علينا الباب ودخل ونظرة معتمة تلوح في عينيه، بدا أطول وأعرض مني بكثير، وبعينيه اليسرى حَوَلٌ خفيفٌ يبدو أني لم ألحظه عندما كنت صغيرًا، وازداد مهابةً لما استبدل الطاقية بالعمامة.

تأملني لحظةً وعلامةُ رضا تلوحُ في وجهه ويقول:

- ما شاء الله! ما شاء الله! والله كبرت يا جلال.

ثم قطَّبَ ما بين عينيه، وهو يسوِّي قَبَّة الجلباب:

- بس كان واجب عليك يا جلال تعزِّي في الحاجة الكبيرة، مش هي برضه جدتك، طيب ساعة لما مات جدك كنّ صغير ومعلكش حساب.

وسكت برهةً، ثم أردف والضيق على وجهه:

- إنما دلوقتي، أقول إيه عاق ومفيكش خير..

انعقد لساني، وأسرع إمام قائلًا:

- وهو كان يعرف منين يا سي إبراهيم، الغلط غلطي أنا، أنا اللي كان مفروض أروح وأبلِّغه بنفسي.

هزَّ رأسه هازئًا، وحلَّ علينا صمتٌ قاتم لا تخدشه إلا السعلات المتبادلة ورشفات أكواب الشاي. وكان كل شيء في الغرفة ينظر إلينا مثلما ننظر

إليه، الأرائك والكنب والحيطان، وبدا الصمتُ ذاته كالكلام له صوتٌ وطنينٌ ثقيلٌ على الآذان.

قلتُ بعد برهةِ سأمٍ طويلة:

- أنا ناوي أسافر مع والدتي وكنت محتاج موافقة حضرتك.

- موافقتي، موافقتي على إيه؟ على السفر والغيبة والبعاد وللا على إنك تطلَّع جواز سفر زَيّ ما بتقول الحكومة.

باغتني فتطلعتُ إليه مرتبكًا، وأردف هو وعيناه تحدقان في وجهي:

- مش إنت برضة لسه قاصر ومحتاج لموافقتي قُدَّام بتوع الجوازات، هوَّه دا اللي إنت عايزه وللا جاي تسلِّم علينا وتستأذن منِّي، مش أنا برضه في مقام جدك..

وتدخَّل إمام، فأشاح له العم بيده كي يسكت.

قلت متلعثمًا:

- هوه دا اللي أنا اقصده.

- تقصد أي واحدة فيهم؟

ازداد ارتباكي..

- هوَّه فيه فرق بينهم يا عمي؟

- أيوه فيه فرق، وكل واحدة لها حسابها وتمنها.

قلت في نفسي إنه يناور، وأكيد يود الاستفادة من الوضع الذي أنا فيه، فنظرتُ إليه بنصف عين:

- مش فاهم يا عمي، حساب وتمن إزاي؟!

تأملني، ثم قال:

- اسمع يا بْنِي، إذا كنت عايز موافقتي على جواز السفر يبقى تتنازل عن اللي ليك عندنا، مبقولش تتنازل كده ببلاش، يعني ناخده بيع وشرا ومع السلامة بعد كده، ترجع من بره ما ترجعش إنت حر، وكل حي بعدها في حاله. وإن كنت جاي تزور تربة أبوك وجدك وجدتك وتترحَّم عليهم، وتقعد معانا يوم واتنين وتلاته، وبدال ما تقعد معايا دلوقتي لوحدك تيجي عمَّاتك وأختك ليلى وكلنا نقعد مع بعض، وآخر قعدتنا تستأذن مني في السفر والغيبة وعلى شرط

إنك ترجع تاني وميضحكوش عليك بره، كده أقولّك أرضك محفوظة، ومش كده وبس واسمك كمان محفوظ في قلوبنا، وكل الفلوس اللي انت عايزها علشان السفر لك ولوالدتك وأكتر منها كمان جاهزة.

فهبَّ إمام قائمًا ويصيح:

- براوة عليك يا سي إبراهيم.

وانسابت دموعي وأنا أقول:

- معاك حق يا عمي.

وقام هو الآخر واقفًا واحتضنني فوجدتُ نفسي أبكي على كتفه، غير أني وأثناء عودتي بالباص عاودت التفكير فيما قاله العم إبراهيم، ولا أعرف لماذا ثار هاجسٌ في نفسي بأنه غير صادق ويودُّ أن أذهبَ مع أمي ولا أعود!

فهل السبب هو الكُرْه والشك اللذان زرعتهما أمي في قلبي تجاه أهل أبي؟ أم الضآلةُ والضعفُ اللذان كان يعترياننني وجعلاني أتحسَّس وأتحسَّب من أناس جبابرة قياسًا عليَّ ويمثلون لي المجهول؟

أختي ليلى هي التي ران قلبي إليها، ولا زلت أذكرُ قولها بأنها كانت تعدُّ الأيام لتراني، وأن صورتي وهيكلي هما اللذان سوف يلوحان أمامها كلما جاء أبي في خاطرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

37

حطَّت بنا الطائرةُ في مطار أورلي..

ووَطِئَتْ أقدامُنا الأنبوب الطويل الذي يصل بين باب الطائرة وأرض المطار، والحال بين الركاب ما بين فرحةٍ على الوجوه وثرثرةٍ وضحكٍ أو تعليقات ساخرة على وجبة الغداء التي تناولناها في الجو قبل قليل، وعلى طاقَم الضيافة خاصةً الرجل القصير أبا شاربٍ مثل شارب هتلر.

كان وحق الله أعجوبةً في شكله وفعله..

لم يستجب هذا (الزَّلَنْطَحِي) ولا مرة لنداءات الركاب، طلب منه أحدُهم كوبًا من الشاي، وناشدته امرأةٌ أن يأتي لها بقرصٍ مُسكِّنٍ لأن رأسها يكاد ينفجر، وراكبٌ آخر توسَّم فيه الخير وطلب منه جريدةَ الأهرام.

قال للجميع: حاضر حاضر، ثم اختفى عن الأنظار، وعندما طال الوقت قام أحد الركاب مغتاظًا لتحرِّي الأمر، فوجده مسترخيًا على مقعد في مُؤخَّرة الطائرة (وهات يا نوم) ومخدة صغيرة موضوعة على رأسه لكي لا يوقظه ضجيج الطائرة أو يُقلقه أحد. ولما أيقظه أحد الركاب معاتبًا هبَّ غاضبًا وشمَّر عن ساعديه استعدادًا للشِّجار، كان الراكب هو الآخر رجلًا لا يُستهان به ومن النوع الذي يضرب بالرأس، ولولا لطف الله وتدخُّل أولاد الحلال لتطوَّر الأمرُ ووجدنا سيارة إسعاف في انتظارنا الآن على ممر الهبوط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كُنَّا نسير أنا وأمي في ذيل الناس، ملهَيْن بأنفسنا ونعمل ألف حساب لما يمكن أن يحدث لنا لو لم نجد أحدًا في انتظارنا على باب المطار، ولم يكفَّ قلبانا عن الدق وجلًا من هذه الدنيا التي نحن مقبلان عليها.

توقفنا فجأةً في نهاية الأنبوب..

لا أعرف لماذا..

ربما لأن رجلًا كان يسير أمامنا انتحى جانبًا وتوقف ليشعل سيجارته ففعلنا مثله، والغريب أنه مضى إلى حال سبيله، إلا أننا استمررنا واقفين حتى أغلقوا باب الطائرة وبدأ طاقم الضيافة في الانصراف وفي مقدمتهم أبو شارب. وعندما طال بنا الوقوف واختلط بنا ركابُ طائرات أخرى أخذنا أنا وأمي نتلفَّتُ إلى بعضنا البعض ولا ندري ما الذي نفعله، وأحسستُ بكفِّ يدها باردَةً وهي تلتفُّ حول رُسْغ يدي فربَّتُّ عليها مطمئنًا.

قلت في نفسي، أنا الرجل ولا بد أن أتصرف وآخذ زمام المبادرة، وتصادف أن لمحت جمعًا من المسافرين ممن كانوا معنا على الطائرة، يقفون عن بُعد ويدققون النظر في إحدى اللوحات المُعلَّقة على جدار أحد المَمَرَّات. أخذت بيد أمي وأسرعت نحوهم، فلا خيار أمامنا إلا السير وراءهم، من قومنا ولن يضيعونا!

كانوا ثلاثة رجال لا يكفُّون عن الضحك بصوتٍ عالٍ أو الكلام المصحوب بإشارات اليد، ومعهم امرأةٌ مُسنَّة وأخرى يافعة تحمل طفلًا يتململ على صدرها، وكانت مشدوهةً مثلنا بما تراه من إعلانات برَّاقة عن سجائر الكِنْت والجلواز والچيتان أو أصناف الخمور والعطور، وبفتيات شقراوات كُنَّ يمرقن عكس اتجاهنا وهن يثرثرن بكلماتٍ سريعةٍ ذات إيقاعٍ ونغم.

قلت: آه.. هذه إذن اللغة الفرنسية، وتبسَّمت على اللغة المضحكة التي كُنَّا نتعلمها على يد الأستاذ تادرس.

وكُنَّا نرى رجال الشرطة بقاماتهم الفارعة وملابسهم الزرقاء الدَّكْنَاء وقُبَّعاتهم المستطيلة، التي طالما رأيتها عندما شاهدت فيلم (إيرما لا دوس) لشيرلي ماكلين نجمة هوليوود وفيلم (جميلة بوحيرد) لفنانتنا الكبيرة ماجدة.

ائتنسنا بهذه الصُّحْبة التي من طرف واحد، وأومأتُ لأمي كي نستمرَّ في السير وراء هؤلاء المصريين الذين يبدو أنهم مُحنَّكون في الأسفار وقلوبهم ليست في أرجلهم مثلنا، فكانوا إذا سلكوا أحد الاتجاهات نسلكها معهم، وإذا توقفوا فجأةً وعادوا من حيث أتوا فأيضًا وراءهم، أما إن توقفوا لشراء شيءٍ أو لمساندة المرأة الصغيرة عندما يتلوَى منها الطفل ويصرخ عاليًا، فكُنَّا ننزوي على مقربةٍ منهم ونظل نتطلع إليهم حتى يفرغوا ويعاودوا السير فنقتفي أثرهم. وبعد جولةٍ من المشي الممتع وجدنا أنفسنا قُبالَة موظف الجوازات، ثم السير الكهربائي حيث قمنا بأخذ حقائبنا التي كانت - وبحق - تحفةً بين الحقائب، وأكيد ذكَّرت الناس حولنا بموديلات الحقائب في منتصف الأربعينيَّات.

ترتَّبَ على انشغالنا بمسألة الحقائب، أن ضاعت منَّا الصُّحْبَة التي كُنَّا نسير خلفها، فانتابني الارتباكُ وأخذت أتلفَّت باحثًا عنهم هنا وهناك كي نمضي وراءهم كالمعتاد، ولا فائدة، ضاعوا منا، تلاشوا، وأحسست ببعض المرارة وكأني تعرضت لخديعة، وأنه كان من الواجب عليهم انتظارنا، وأخذَنا طوفان الناس حتى وجدنا أنفسنا نتجه معهم صوب الباب الزجاجي للمطار ونخرج أنا وأمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لفحتنا لسعةُ بردٍ خفيفة رغم أننا لا نزال في شهر أغسطس، ووقفنا ننظر إلى بعضنا البعض وقد أسلمنا أمرنا لله، إلى أن انشقَّت الأرض عن غادةٍ حسناء ترتدي بنطلون چينز وبلوزة شفافة وذات شعر متهدل.

وقفت تُحدِّق فينا، وعلى وجهها ابتسامةٌ عريضة:

- تانت! تانت كاميليا مش عارفاني وللا إيه، أنا راشيل! راشيل!

- مين! راشيل!

وارتمتا في أحضان بعضهما، تتبادلان القُبَل وكلماتِ الاشتياق ودمعهما ينساب.

- وبتتكلمي عربي كمان! كنت فاكراكي نسيتيه.

- أنساه إزاي يا تانت! دا احنا كلامنا مع بعضنا على طول بالعربي.

والتفتت نحوي:

- جلال!!

واحتضنتني وقبلة هنا وقبلة هناك، ولم أتوانَ أنا الآخر عن معاملتها بالمثل ما دامت هذه هي عادةُ أهل باريس.

اصطحبتنا في سيارة رينو سپور، عرفنا أنها تملكها، وأنها تعيش وحدها الآن في غرفةٍ كبيرةٍ بمنافعها حمَّام ومطبخ صغير ومدخل خاص في شارع (سان ميشيل) بالحي اللاتيني، بعدما ملَّت من العيش مع أمها وأبيها اللذيْن يقطنان في حي (بلڤيل) المليء بالمهاجرين والفقراء.

سألناها عن جدِّي وجدَّتي، فقالت: إنهما شاخا لكن لا يزالان قادريْن على الحركة والخروج وقضاء طلباتهما بأنفسهما، ويسكُنان بحي (بارباس) وهو حي فقير ويمتلئ هو الآخر بالمهاجرين خاصة الأفارقة وأبناء المغرب العربي.

- ولسَّه بابا بيشتغل؟

- شغل إيه يا تانت! دا ساب الشغل بقاله سنتين.

- وعايش إزاي؟

- لأه دا من الناحية دي هو مرتاح، أنا بَدِّيله ألف فرنك في الشهر وكمان ألفين مساعدة من الضمان الاجتماعي بتاع البطالة، دا بقى غير اللي بيبعته خالي إيزاك.

- إيزاك!

نطقت أمي اسم خالي بوجدٍ شديد، وأردفتْ وعيناها سارحتان:

- وإزيه دلوقتي؟ عامل إيه؟ بتشوفوه؟

- طبعًا يا تانت طبعًا، دا بييجي يزورنا مرة كل سنة، والفلوس جريت في إيده بعد ما فتح سوپر ماركت كبير في حيفا.

أخرجت أمي منديلًا صغيرًا من حقيبتها تُجفِّفُ به دمعةً أفلتت من عينيها، وتقول بصوتٍ باكٍ:

- كده برضه يا إيزاك! سنين وسنين وسنين، آه يا وِحِش.. آه..

تركت راشيل يدها اليسرى على المِقْوَد، ووضعت اليد الأخرى على كتف أمي مشجعة:

- وإنتي كمان واحشانا يا تانت وعمَّالين نعدِّلك بالأيام ونقول إمتى هتيجي؟ وامتى القرد ده هياخد الثانوية العامة؟

واستدارت ضاحكةً إلى المقعد الخلفي حيث أجلس، وأنا أنظر إلى الشقاوة التي تطلُّ من عينيها وشعرها المتطاير بفعل الهواء الآتي من النافذة.

قالت أمي وعلى وجهها ابتسامةُ رضا، وإن كانت عيناها لا تزالان تلوح فيها نُذُر بكاء:

- نفسي أشوفه يا راشيل!

- يا خسارة دا لسَّه راجع إسرائيل بقاله أسبوع، فضل قاعد شهر بحاله في شقة جدِّي هو وحنَّة مراته وبنته إستر.

هزت أمي رأسها بأسًى، فأردفت راشيل:

- الأيام جاية يا تانت وياما هتشوفيه بدال المرة عشرة، وإن كنتي مشتاقة له قوي أرتب لك سفرية لإسرائيل أنتي وجلال.

ورمقتها أنا رمقة سريعة ثم ملتُ برأسي نحو نافذة السيَّارة متأملًا الشوارع الواسعة التي نمضي فيها، والبنايات الدسمة التي تحفُّها من الجانبين، ذكَّرتني بالبنايات القديمة ذات التماثيل الصغيرة التي تتخلل البناء والجداريَّات المنحوتة والأعمدة النحيلة القصيرة التي في الشرفات، كنت أراها خطفًا في شارع شريف أو شارعَيْ عدلي وعبدالخالق ثروت وعند تقاطع شارع فؤاد بشارع رمسيس.

ويبدو أن أمي فطنت إلى ما ألمَّ بي، فغيرت مجرى الحديث سائلةً عن خالي شمعون، فقالت راشيل: إنه سيِّئ الحظ ولا يستقر في عمل واحد أكثر من سنة.

- وساكن فين دلوقتي؟ جنب جدك وللا بعيد؟

قالت: إنه يسكن في المنطقة (العشرين)، وهي منطقة موبوءة وتُعتبر وكرًا للعصابات والمتعطِّلين وتُدبر فيها مختلف أنواع الجرائم، وتُباع فيها كل الأشياء الممنوعة وأولها المُخدِّرات.

- وشمعون مش خايف على نفسه؟

ضحكت راشيل:

- وهو عنده حاجه علشان يسرقوه وللا حتى حد يبص له، وكمان كل الشارع عارف إنه كنَّاس في البلديَّه ومحلتوش أي حاجة.

- كنَّاس!

قالتها أمي بدهشةٍ كبيرة رغم أنها تعرف من خطابات جدِّي وجدَّتي أنه كان مجرد حمَّال، فما الفرق بين الكنَّاس والحمَّال يا أمي حتى تندهشي هكذا!

واستطردت راشيل:

- أيوه كنَّاس، ولولا إني بساعده كان مات من الجوع، مَنْفعِش يا تانت في أي شغلة هنا! اشتغل بيَّاع في كشك بتاع واحد جزائري لحد ما لخبط له الدنيا فكرشه، وبعدها شيَّال وبرضه منفعش، كل ما يشيل شنطة على كتفه تقع منه ويتكسر اللي فيها! وفضل حضرته ييجي سنة من غير شغل لحد ما طلبوا كنَّاسين في البلدية فاشتغل هناك، آهو بقاله شوية ولسه محدش اشتكى منه لحد دلوقتي، لكن عن قريب هنلاقيه عامل له فضيحة وللا مشكلة ومطرود.

واستمرت متأفِّفةً:

- تعرفي يا تانت أنا ساعات وأنا معديه بالعربية قدام الأوبرا وللا شارع (أوسمان) ألاقيه واقف بالمقشة، أشاور له وتبقى عينه في عيني وما يردش عليَّه، مرة والتانية لحد ما قلت يتفلق ومَعُدتْش بعبره.

- شمعون! الطيب! العاقل! إيه اللي جراله؟

- ومش كده وبس دا بيتحسر على أيام مصر، ولو كان الأمر بأيده زَيّ ما بيقول كان رجع من زمان.

قالت أمي والدهشة على وجهها:

- عايز يرجع!!

لم تفرغا من الحديث إلا بعد أن توقفت بنا السيارة أمام عمارةٍ متواضعةٍ بزُقاقْ ضيق، لا تفترق كثيرًا عن عمارتنا بحي الظاهر، وفي عقار مجاور لها محلٌّ للجزارة مكتوب أعلاه باللغة العربية وبخَطٍّ كبير (الشيخ مُنْجي - اللحم الحلال).

وبمجرد أن دلفنا من باب العمارة، سمعتُ من أعلى صوت جدِّي وهو يصيح علينا:

- جلال، كاميليا، حمد لله على السلامة.

وإذا هو في أعلى الدرابزين..

وقفتُ أتطلعُ إليه ورغم ما بيننا من مسافة، فإنِّي لمحت على الفور التغير الذي طرأ عليه، وعندما دفعتني راشيل كي أبدأ بالصعود، انطلقتُ مسرعًا كما كنت أفعل على سلالم عمارتنا وقلبي يسبقني بعدَّة درجات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

38

مسَّاكِ الله بالخير يا شقة الظاهر..

كنتِ محترمة والله، إذا قارنَّاكي بالشقة التي يسكنها جدِّي الآن.

غرفتان: الصغيرة والتي خصصوها لنا تحتوي على سرير ودولاب يتَّسع بالكاد لحاجاتِ نفرٍ واحد، وشمَّاعة معلقة على الحائط، وكنبتين أفرنجي من عمر جدِّي كل واحدة منهما تتحول إلى سرير وقت اللزوم.

لكن كيف؟ فهذه هي المشكلة!

فقد حاول جدِّي مرتين إجراء تجربة على واحدة منهما أمامنا وفشل، فانحنيتُ لمساعدته مسترشدًا بتعليمات جدَّتي التي تقف على رأسي وبوز حذائها ينغز ساقي. نسمع تزييقًا ثقيلًا وينبعث في وجوهنا غبار مشبع برائحة الأبلكاش فيبدأ جدِّي في السعال، فنتوقف برهةً ونفتحُ الباب عن آخره حتى يصلنا الهواء الآتي من شباك المطبخ ويطرد هذه الرائحة، فالغرفة ليست بها نوافذ، مجرد طاقةٍ صغيرةٍ تطلُّ على المنور وهواؤها راكد.

نعيدُ المحاولةَ من جديد ولكن في كل مرة وفي آخر لحظة بالضبط تحرن منَّا الكنبة وترفض استكمال دورتها، فنعيدها إلى حالها الأول ونحن نلعن أباها وأبا النجار الذي صنعها. تفاقمت المشكلة أكثر وأكثر في المحاولة.. لا أدري بالضبط! ربما المحاولة العاشرة.. تحركت معنا الكنبة في أول الأمر بسلاسة ولين ثم توقفت فجأة في منتصف الطريق، لا خطوة للأمام أو حتى للخلف، وحِرْنَا في أمرها، فلا هي صارت سريرًا أو عادت كنبة كخلقتها الأولى.

اغتاظ جدِّي وركلها بقدمه ثم غادرنا إلى الحمَّام ليُجفِّف عرقه، أما جدَّتي فرأت الأمر عاديًّا وقالت من طرف لسانها:

- نُو بزُوبلِم (مفيش مشكلة)، شوية كده وأنا أنده على الكونسيرج (البَوَّاب) وهو يشوف أي حلّ معاها.

لم أندهش من عوجة لسان جدَّتي، فهي إن لم تفعل ذلك لن تكون مدام إيڤون أم منقار كما كانوا يسمونها في مصر.

الغرفة الكبيرة، هي غرفة جدِّي وجدَّتي..

لا كبيرة ولا شيء وإنما اعتبرناها كذلك قياسًا على الحُقِّ الذي خصصوه لي أنا وأمي، وأول ما دخلناها لاحظنا أنها معتمة رطبة؛ لدرجة أنك لا تستطيع أن

ترى أي شيء فيها حتى ولو كنت في عز النهار ونظرك ستة على ستة، إلا إذا ضغطت على زر الكهرباء واشتغلت اللمبات الثلاث المتدلية من السقف. والأساس ما شاء الله! تشعر من أول نظرة أنه من أيام (ماري إنطوانيت) آخر ملكات فرنسا، وكله - بالطبع - خُرُوم وسوس وخرابيش، ولا أعتقد أن أي شخص مهما كان رشيقًا يستطيع حفظ توازنه إذا جلس على كرسي التسريحة، وإن فعلها فمن المستحيل النهوض من عليه دون مساعدة لوچستية، والمرآة تناسب الأعمى والبصير على السواء، أما السرير والدولاب فحَدِّث ولا حَرَج.

قالت جدَّتي إنها أخذت كل هذه الأشياء (شروة) بثلاثمائة فرنك من سوق اسمه سوق (البراغيث)، تُباع فيه الأشياء القديمة مثل سوق الكانتو عندنا.

والشقة بمجملها بينها وبين نور ربنا عداوة، فكل نوافذها على مَنْوَر تهيم فيه فرقة من القطط لا يقلُّ إجرامُها وقلَّةُ أدبها عن القطط التي كان يطاردها عم إدريس بعصاه.

سألت جدَّتي، فقالت:

- نعمل إيه في الجزار الوسخ اللي فاتح تحت، هو السبب، القطة من دُول تخطف حتة اللحمة منه وجَرْى على المنور ووراها خمسين قطة ويدور الخناق عندنا.

يصعب عليك معرفة النهار من الليل في هذه الشقة إلا إذا خرجت إلى الشارع، أو شببت على أطراف أصابعك ونظرت من نافذة المطبخ ذات العِصِيّ الحديدَّية فهي وحدها التي تطلُّ على الشارع، لكن والحق كان المطبخ كبيرًا، ويتسع لطاولة من الحجم المتوسط لتناول الطعام، ولا توجد صالة تقريبًا، مجرد ممر طويل ومتسع قليلًا وضُعتْ به عدة مقاعد متقابلة كأننا في معزى، والجزء الأخير من هذا الممر أخلوه لأنابيب الغاز المتصلة بالجدار وتشعُّ منها الحرارة لتدفئة الشقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مكثتُ يومين كاملين لا أخرج من هذه الشقة اللعينة، أمي وجدَّتي في المطبخ أغلب الوقت، ولا تكفَّان عن الكلام الذي ينقلب إلى وشوشة إذا شعرتا بأن أحدًا يقترب من المطبخ، وأنا وجدِّي قُبالَة بعضنا البعض على مقعدين في الصالة، والمسكين ذقنه غير حليقة، ووجهه ليس نحيلًا وشاحبًا فقط من أثر الشيخوخة، وإنما تشعر بأن مرضًا ينهش في جسده.

يدقُ النظر في وجهي وأحسَبُ أنه سوف يتكلم إلا أنه يظل صامتًا، وساعات كان يرفع حاجبيه قليلًا ثم أراهما يتهدلان منه، وينحني برأسه داخلًا في غفوة.

لم تكن تستمر طويلًا، دقيقة أو دقيقتين ثم يفتح عينيه بعدهما متبسِّمًا لي، وهو يمسح اللُّعاب الذي ظنَّ أنه يسيلُ من شفتيه، ففي غفواتٍ كثيرة لم يكن يخرجُ من فمه أيُّ لعاب، غير أنه كان يفعل الشيء نفسه بحكم العادة.

ويتركني ويقوم ليأتي بعلبة سجائره، يسير متحاملًا على نفسه ويبدو رأسه منكفئًا على عنقه، وتلحظ أمي ذلك وهي واقفة في المطبخ فتسأل جدَّتي.

أسمعها وهي تجيب:

- من كتر الهم اللي معيِّش نفسه فيه، صاحي زعلان نايم زعلان، أقول له: اخرج فُكّ نَفْسَك شوية، تعالى نروح هنا وللا هنا، ابنك إيزاك ياما اتحايل عليك علشان تزوره دي كلها أربع ساعات بالطيارة ويلاقينا داخلين عليه ومفرَّحينه ومفيش فايدة يا بنتي.

لا أعرف ما الذي دفعني إلى الاعتقاد بأن نظر جدِّي أصبح ضعيفًا هو الآخر وأن سمعه صار ثقيلًا، وأتأملُ باب الغرفة الذي دخل منه ولا يزال مُوارَبًا. لا ألحظُ أي حركةٍ بالداخل، وأخشى أن أسمع صرخةً خافتةً وصوتَ شيءٍ يرتطم بالأرض، ونُهرع إلى جدِّي فنجده في غيبوبة.

يفاجئني بخروجه وهو يعقدُ على وسطه حزام الروب البُنِّي الذي ارتداه للتَّوّ، يبدو أكثر مهابةً عمَّا قبل، أتطلع إليه وهو يقف أمام المطبخ صائحًا في جدَّتي:

- وإيه اللي جاب الهَمّ والغَمّ دلوقتي يا إيڤون، مش كنتي معايا عند الدكتور وسمعتيه وهو بيقول إن كل اللي عندي شوية دوالي في رجلي على حَبَّة خشونة في الرقبة، مفيش فايدة فيكي! مش هتبطِّلي تأليف وكذب! واللي في بالك ده عمري ما هعمله حتى ولو انطبقت السما على الأرض.

وينقطع الصوت في المطبخ..

أكيد يتوشوشان عن هذا الذي في بال جدَّتي، ويرفض جدِّي الإقدام عليه.

وكنت ألاحظ أن بال جدَّتي أصبح طويلًا، ولم تعُدْ تدخل في مشاجراتٍ معه وسمعتُها مرةً تقولُ لأمي: إنه لا يكفُّ عن لومها وتوبيخها بسبب وبلا سبب وأحيانًا أمام الغرباء، وأنها تعمل بأصلها وتتحمله.

تُربِّتُ عليها أمي وتقول:

- ومن إمتى على الحالة دي؟

- السنتين تلاتة الأخرنيين.

تصمت أمي.

- وقال إيه! بيقول إنه كان نفسه يقضي اللي باقي من عمره في مصر ويندفن هناك، شوفي الراجل الخايب!

وأمي بتأثر:

- يا حبيبي يا بابا.

ويعود جدِّي إلى الجلوس معي..

يخرج سيجارة (جولواز) من العلبة الملقاة بحجره، السيجارة قصيرة ومدكوكة وبلا فلتر، يُشعلُها وينفخُ الدخان في وجهي. لم يكن يفعلها في مصر بتاتًا، كان يدخن سجائره دائمًا إما في الحمَّام أو الشرفة، وعندما تنادي عليه جدَّتي كان يقول لها: إنه يخاف أن يؤذيني برائحة الدخان.

دخانُ السيجارةِ كثيفٌ ورائحتُه أشبه بالرائحة المنبعثة من تبغ السيجار، وجدِّي مشغول باللعب في أسنانه الأمامية بطرف إصبعه.

أداعبُه فيهزُّ رأسه وتبدو ابتسامةٌ على وجهه، أُذكِّره بأيام حي الظاهر، يسترخى للوراء ويمدُّ ساقيه إلى الأمام ثم يسألني:

- وإزي المعلم حبيب؟

- الحمد لله، بيسلِّم عليك يا جدِّي.

- والحاج محمود العطار أبو حسن؟

أتمهلُ برهةً قليلةً وأقول:

- يا سلام يا جدِّي دا أنت واحشه خالص وباعت لك ألف سلام.

لا يعرف جدِّي إننا اقتدينا به وسافرنا خلسةً دون أن نخبر أحدًا وكل هذه السلامات من عندي، مِنَّها لله أمي حرمتني من توديع أحبِّ الناس إليَّ وتركنا شقتنا فجأةً كما اللصوص أو المُطارَدين.

ويسرح هو بعينيه محاولًا تذكر باقي الأسماء، ثم يقول:

- ولبيب الصُّرَماتي؟

أقول له: إن دكانه مغلق من سنوات ولا أعلم عنه شيئًا.

يندهش..

- مَلِكّش حق يا جلال، مش كنت تسأل عليه وتعرف إيه اللي حايشه عن فتح الدكان؟

ويصمتُ برهةً ثم يعاودُ الأسئلة:

- والشيخ خلف؟

- مات، تعيش إنت يا جدِّي.

- بتقول مات! الله يرحمه، لا حول ولا قوة إلا بالله.

يقولها مثلما يقولها أصحابه المسلمون في مصر وتعلو وجهَه مسحةُ ضيقٍ من أمي:

- ويعني الماما مقلتليش في جوابها الأخراني أما ملهاش حق، جواباتها كلها كلام فاضي والحاجات المهمة مبتقولش عليها.

ويستديرُ ناحية المطبخ مناديًا عليها بصوتٍ غاضب، لا تسمع، فيعود إليَّ:

- وتلاقيك على كده مبترحش شارع الأزهر.

- إزاي يا جدِّي! رحت كام مرة.

- مبصيتش على محل الحاج دسوقي؟

أحدق فيه..

- الحاج دسوقي تاجر المانيفاتورة اللي أخدتك معايا في العزا بتاع الست والدته.

أهزُّ رأسي، ويبدو عليَّ كأنني أتذكَّر..

- يا واد الحاج دسوقي اللي إنت فضحتنا قُدَّامه، وقعدت تعيَّط لما سمعت الشيخ عبدالباسط وهو بيقرا قرآن.

أحاول التجاوب معه:

- آه. آه، افتكرت افتكرت.

- ويا ترى بترينة الساعات لسَّه واقفة قدام المحل بتاعه؟

أصمت..

- وعباس الصبي بتاعي هو برضة اللي واقف عليها؟

أتطلعُ ببصري ناحية الجدار..

أرى صورةً حديثةً لجدِّي وجدَّتي معلقةً في برواز كبير، ملصق به من أسفل وعلى ناحية صورتان صغيرتان وقديمتان لي أنا وراشيل، وفي الناحية الأخرى صورتان حديثتان لطفلين آخرينِ، لا أعرفهما، ربما كانا أولاد خالي إيزاك أو خالي شمعون.

- دا واد مظبوط، لما ساعتك تعطل يا جلال روح صلَّحها عنده، فكَّره بنفسك قولُّه أنا ابن المعلم زكي وهو يحُطّ الساعة في عنيه ومش هيرضى ياخد منك فلوس.

أنتبهُ إليه مومئًا برأسي..

ويُطرق هو صامتًا وتبدو نظرةٌ كئيبةٌ في عينيه، وهو يضمُّ أطراف الروب مغطيًا ركبتيه.

- تفتكر أقدر أرجع مصر تاني؟

أحدق فيه صامتًا..

تخرج جدَّتي من المطبخ متوجهةً إلى غرفتها فيتوقف عن الكلام، وبعدما تغلق الباب عليها يقول:

- تعرف إنها كانت عايزانا نروح نعيش هناك مع إيزاك!

أشعر بالدماء تسري في وجهي ولا أجيب..

- إسرائيل دي مش بلدي، يمكن تكون بلد إيزاك ولَّا البت راشيل أو حتى شمعون، إنما أنا!!

أتطلعُ إليه، فيقولُ وعيناه تهبطان إلى أسفل:

- منهم لله اللي كانوا السبب ورموني الرمية دي..

ثم يتأملني ويدخلُ في غفوةٍ جديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

39

أتت راشيل بعد أسبوع..

البنطلون كتَّان لونُه رَماديٌّ فاتح ومعقود برباط عند سمَّانة الرِّجل، والبلوزة شفَّافة وتصل بالكاد إلى حافَّة البنطلون، ويبدو أنها لم تكن تضع حمَّالة للصدر أو ربما كانت الحمالة من النوع الرقيق، فقد كان صدرُها غير محكومٍ وثدياها يهتزَّان لأقلِّ حركة.

وللمرة الأولى أعرف أن كلمة (بارفا) هذه ليست كلمة هيِّنَة..

كان أنفي يعيش في الحضيض من قبل، ولا يفهم إلا في زجاجات الكولونيا أُمّ جنيه ونصف التي كنت أشتريها من عم زوزو، والغريب أنني إذا سألته مرة أن يخفض ربع جنيه في الزجاجة، كان يشمخ بأنفه إلى أعلى ويقول: إن أسعاره محددة وبضاعته (برفكس).

أتطلَّعُ إليه، فيضيف:

- يعني أصلية يا سي جلال! أصلية! بتيجي من المصنع على طول على عندي ومفيش فيها فصال.

أستمرُ في الجدال مصممًا على التخفيض، فيلوحُ الغضبُ على وجهه:

- اسمع يا بْنِي، أنا هنا ببيع شغل مضمون وماركات مسجلة، اللي عاجبه السعر أهلًا وسهلًا، واللي مش عاجبه أحسن له بقى يروح يدوَّر له على بصلة ويقعد يشمّ فيها.

- يا عم زوزو!

- زوزو مين وبتاع مين يللا يللا زُقّ عَجَلك، أمَّال ياخويا لو شَمِّمتك أسانس الورد وللا الفُلّ البلدي أبو أربعة جنيه تقول إيه!

- طيب وزِّيني كده.

- مينفعكش يا حبيبي، أنا مخلِّيه للزبون التقيل.

أين أنت الآن يا عم زوزو؟

أين أنت يا صاحب (الشِّرْز) المتهدل على كتفيك والبيريه الأجرب الذي تخفي به صلعتك! والله لو اتبعت كلامك لأصبح أنفي في خبر كان، ولو كنت معي الآن وشممت العطر الذي يفوح من راشيل لعرفت أن الدنيا

لا تزال بخير، ولعُدْتُ في أول طائرة إلى مصر وأضرمتُ النار في هذه الكُناسة التي تبيعها. صدِّقني يا عم زوزو، فهذه أول مرة في حياتي أعرف أن حاسة الشم هذه حاسة جهنمية، وقادرة على أن تجعل الدم يغلي في العروق.

ويبدو أني تبسَّمتُ أو لاح شيءٌ على وجهي؛ إذ لمحتُ أمي ترمقني وعلى وجهها استفسارٌ باسم، وأقبلت راشيل نحوي، جلست على يد (الفوتي) الذي أجلس عليه وهي تضرب بإصبعها على شَحْمَة أُذُنِي مداعبةً، وجذعُها وجانبٌ من مُؤخَّرتها يلتصقان بكتفي، فأفلتت عيناي رغمًا عني تجاه أمي، لأجدها تتابعنا ووجهها يكسوه الراحة.

وضعت راشيل حقيبة يدها على الأرض، وكوَّرت البلوڤر الأبيض الخفيف الذي كان في يدها وألقت به في حِجْري، ووراءه الإيشارب النبيتي الذي كان يحيط بعنقها. تحسَّستُه، أكيد حرير، ورأيت على طرفه رمزًا يشير إلى الصانع: مودموازيل (كوكو شانيل).

اعتذرت لنا عن غيابها، قالت: إنها انشغلت مع ضيفٍ من (أبو ظبي) وصل فجأةً مع أسرته، وكان يرغب في أن يلفَّ باريس من شرقها لغربها في أسرع وقتٍ قبل أن يطير إلى لندن.

قالت لها جدَّتي، وهي تختلسُ النظر إلى جدِّي:

- يعني على كده جيبك عمران يا بت؟

- كان راجل طيب وكريم يا نينة، إداني مبلغ محترم ولو طلبت أكتر مكنش هيمانع.

- طيب إيدك بقى على ألفين فرنك، وتفوتي عليَّه بكره نشتري الخاتم اللي قلت لك عليه.

فنظر جدِّي إليها غاضبًا:

- عيب كده يا إيڤون، البنت تقول عليكي إيه؟

قامت راشيل نصف قومة، وهي تقول عاتبة:

- جدِّي! كده برضه.

- كده ونص كمان، أنا منبه عليها ميت مرة متبُصِّش لحاجة العيال، اللي معانا مكفينا، خاتم إيه ده اللي هي عايزاه، عندها جوَّه في الدولاب عشرين خاتم.

وأخرجت جدَّتي منديلًا صغيرًا من صدرها تمسح به عينيها، وهي تقولُ بصوتٍ مخنوق:

- كده برضة يا زكي وبتغلط فيَّه قُدَّام العيال، هو أنا لسه هتعلم الصح من الغلط على كبر، اللي بكلمها وبَتعشِّم فيها دي بنتي وأنا مربِّياها وليَّه حق عليها.

وشاطت النار في البيت..

فشلنا جميعًا في السيطرة على جدِّي الذي انفتح على آخره في الكلام والزعيق، ولم يكتفِ بتقريع جدَّتي وإنما استدار إلى راشيل يلعنها ويلعن أباها وأمها والدنيا والعيشة وكل شيء، فتركوه كلهم ودخلوا إلى غرفة جدَّتي، وبقيت أنا وهو وحدنا.

ساعة كاملة وثلاث أو أربع سجائر حتى هدأ، سألني بعدها وهو يتثاءب:

- هو انت مجبتش جرايد معاك وللا مجلات أو أي حاجة تنقري؟

- جرايد؟

- أيوه جرايد..

- والله يا جدِّي..

قاطَعَنِي:

- يعني مجبتش. طيب.

ثم رفع وسادة المقعد الذي يجلس عليه، وأخرج مجلةً قديمةً اسمها (الجيل) كانت تصدر في مصر أيام الستينيات، ورفع ساقيه ثانيةً متربعًا على المقعد وبدأ في القراءة. هما دقيقتان فقط وأعادها ثانيةً إلى مكانها، وأخذت عيناه تتنقلان بين السقف والجدار والمقاعد واحدًا تلو الآخر، وتبدو صفحة وجهه يابسةً لا حياة فيها. وكان صوت الجالسين في غرفة جدَّتي يعلو أحيانًا فيمد رأسه إلى الأمام مرهفًا السمع، وعندما يخفتُ الصوتُ يستديرُ ببصره ناحيتي.. أقول في نفسي إنه سوف يتكلم الآن، وأتطلَّعُ إليه مُشجِّعًا غير أنه لا يفعل، يتركُني ويعاود التحديق في الأشياء مرة ثانية.

يلتفت إليَّ فجأة، فأسأله:

- بتضيَّع وقتك إزاي يا جدِّي؟

يردُّ بفتور:

- زَيّ ما انت شايف يا على الكرسي ده، يا نايم في السرير.

- مش تخرج شوية يا جدِّي؟

- أخرج..

- أيوه يا جدِّي، تمشِّي رجليك، تتسلَّى، تعمل أي حاجة.

- أعمل أي حاجة. آه. طيب.

ودخل في نوبةِ تثاؤبٍ من النوع الذي له صوتٌ ويأتي من أعماق القرار، وبعد أن هدأ مَدَّد ساقيه إلى الأمام وأرخى جفنيه.

حشرة صغيرة أكبر قليلًا من حجم النملة، كانت تقف على حافة المقعد الذي يجلس عليه. ألاحظها منذ مدة وهي على هذا السكون، من المُؤكَّد أنها من سكان الخروم والخرابيش التي بسرير جدِّي وتاهت في الشقة، وتنتظره الآن لتعود معه إلى بيتها.

لا أعرف ما الذي استهوى هذه الملعونة في أُذُنه بالذات؟

تحركت حتى صعدت على كُمِّ البيجامة، وسارت في خَطٍّ مستقيمٍ بحذاء الخياطة حتى بلغت الياقة وبقفزةٍ أصبحت أسفلَ العنق. لم أدعها تفلتُ مني في هذه المنطقة المليئة بالشعر، ظللت معها حتى شقت طريقها بثقةٍ ودخلت في صيوان أذنه وهو لا يشعر.

يرجع بساقيه إلى الوراء، وعلى وجهه ابتسامةٌ كئيبة:

- بقى عايزِّني أخرج يا سي جلال! أروح فين؟ لا هنا محل المعلم حبيب ولا شارع كلوت بيه ولا ميدان العتبة، أنزل الشوارع هنا أعمل إيه؟ أتبصَّص على الخنافس وللا النسوان المَلْط!

وتركني متجهًا إلى الحمام..

كانت إحدى فردتَيْ بنطلون البيجامة مشمورةً شمرتين والأخرى مفرودة، والجزء العلوي واسعًا يخبُّ فيه والأكمام قصيرة قليلًا.

ظللتُ أرمقه وهو يمشي حتى واراه باب الحمَّام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

40

واصطحبتني راشيل في نزهة..

قالت، وأنا أهمُّ بالجلوس إلى جوارها في المقعد الأمامي للسيارة:

- معلش هنفوت الأول على شارع الشانزليزيه، عندي معاد شغل هناك وبعدين نكمل.

أومأتُ برأسي فأردفتْ:

- وكمان الشانزليزيه من ضمن برنامج فسحتنا، آهو نبتدي بيه.

وانطلقت بنا السيارة من شارعٍ إلى آخر وأنا أتأمل الدنيا من حولي، وكأني أركب سفينة فضاء أتابع منها ما يجري في كوكب آخر، الناس الذين في عَجلَة من أمرهم، القُبَّعات، المِظلَّات التي في الأيدي تحوُّطًا لمفاجآت الغمام، الكلاب التي تتجول برفقة أصحابها كأنما هو حق لها وفرض من الفروض، خصلات الشعر المتدلية من الأغطية الصوفية التي على الرءُوس، القطط المحمولة في سِلَالٍ صغيرةٍ وحول أعناقها شرائط بكل الألوان، والسيارات الستروين بشكلها غير المألوف.

كنت أشبه بالقروي الذي أسقطوه بمظلة وتركوه، أحاول أن أقرأ المكتوب على لافتةٍ أو في إعلانٍ فأفشل، وأندهشُ من فتى وفتاة يتعانقان أمام الناس بلا حياء أو وازعٍ من ضمير، أو يشدني بصري إلى سلالم تتدلَّى في باطن الأرض ورجال يصعدون منها أو ينزلون، لم أعرف إلا في اليوم التالي أنها محطات لمترو الأنفاق.

ومن شدة توهاني لم أنتبه إلى أن راشيل تنادي عليَّ، لم أشعر إلا عندما دفعتني بإصبعها في كتفي فاستدرت نحوها.

الدلال الذي طغى على نغمة صوتها وهي تقول: "إنت يا واد، رحت مني فين؟"، والنظرة الماكرة الشقية التي تلوح في عينيها، أطاحتا برأسي وشعرتُ بدمٍ مجنون ينطلق في كل عروقي.

تماسكتُ وأنا أقولُ ورعشةٌ تسري في جسدي:

- آه. آه. صح، دي باريس فعلًا زَيّ ما بيقولوا عليها.

- وهو انت لسه شفت حاجة يا واد انت، أمَّال لما ألِّفك في الحِتَت اللي تستاهل وأسهَّرك في الليدو([4]) هتقول إيه؟ وبعدين أخدك على غابة (بولونيا)

وأفرَّجك على اللي بيجرا فيها، أنا ناويه أجنِّنك هنا.

أُريح رأسي على ظهر المقعد مستمتعًا بحلاوة اللحظة، فترمقني منتشيةً وأصابعها الطويلة تزيحُ شعرَها إلى الوراء.

أقول:

- والله أنا صعبان عليَّه جدِّي، حابس نفسه في الجُحْر دا ليه، مش ييجي يسكن في الدنيا الحلوة دي.

- جدك!

وتضحكُ ضحكةً عاليةً وهي تستدير نحوي، فيفلتُ صليبٌ ذهبيٌّ صغيرٌ كان مخفيًّا وراء فتحة البلوزة، هو وجزء من السلسلة المتدلية من عنقها.

أنظر إليه مستغربًا..

تقبض عليه بين أصابعها ووجنتاها تتضرجان بالدماء، وبحركةٍ خاطفة تفك زرار البلوزة وتداريه في حمَّالة صدرها فينكشف جزءٌ ليس بالهيِّن من ثَدْيها. لم يكن لونه خمريًّا كما توقعتُ وإنما شديد البياض وكأن حُمرةً خفيفة تضرب فيه، وفي الأعلى من الناحية المتجهة إلى الإبط ألمح شيئًا غامقًا أشبه بالوَحْمَةِ وحوله شُعيراتٌ قليلةٌ صفراءُ اللون.

تسرعُ قائلةً:

- دا شغل، متخليش دماغك تروح لبعيد.

أزدادُ انتباهًا، فتكمل:

- إنت عارف إني بَشْتغَل في السياحة ولحسابي الخاص لا تبع شركة ولا تبع أي حد، تبع نفسي، وشغلي كله على العرب، وهما زَيّ ما انت فاهم عندهم حساسية من اليهود.

وصمتت لحظةً:

- أصل واحد ابن كلب طلَّع إشاعه في قهوة الفوكيت اللي شغلي فيها إني يهودية، فضلت أكدِّب فيها لما لساني وجعني وتلاقيني أول ما اروح هناك أكون مجهِّزاه معايا، وقبل ما ادخل القهوة أبيِّنه على صدري.

قلت مبتسمًا:

- طب ما كنتي تعلقي مصحف دهب أحسن؟!

- إنت بتقول فيها، جه في بالي بس لقيتها هتبقى زايدة حبتين ويمكن تنكشف، وإنت عارف إن سمعتي هي رأسمالي.

تشاغلتُ بالنظر إلى الطريق، وبقايا الابتسامة لا تزالُ على وجهي.

- مش مصدق إيَّاك؟!

- وجدِّي عارف كده؟

- بتقول جدك! جدك دا معدش له لزوم في دنيتنا وأحسن له يدوَّر على تربة ويدخل فيها من دلوقتي.

- جدِّي..

- أيوه يا خويا جدك! دا من مُخلَّفات الماضي، يا ريتنا كُنَّا سبناه في مصر وفضل عايش في الحي اللي اسمه إيه ده؟

قلت وأنا أرمقها مغتاظًا:

- قصدك حي الضاهر!

- أيوه أيوه حي الضاهر، وأنت بقى مشروعاتك إيه هنا؟

رددت وعيناي تتأملان أنفها الذي لم ألحظ من قبل تقوُّسه إلى هذا الحد:

- مشروعات إيه وبتاع إيه! أنا كلها شهر وراجع مصر.

- مصر!

أجبت بإصرار:

- أيوه مصر.

- أمَّال تانت...

وتوقفت، ولما سألتُها راوغت وقالت كلامًا آخر، فبدا عليَّ الضيق:

- متاخدش في بالك يا جلال، أصل تانت كاميليا كانت فاكراك قاعد شوية، فقالت لي: أدبَّر لك حاجه تتسلَّى فيها، قلت نبتدي الأول بجمع العنب، لسه فاضل شوية على الموسم وأقدر أشوف لك شغل هناك.

- عنب! عنب إيه؟!

- بقول لك مؤقَّتًا.

وتوقفت بنا السيارة قرب ميدان الأوبرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سرنا على الأقدام حتى شارع (أوسمان)، ثم دلفت بي إلى محلٍّ كبيرٍ للملابس اسمه (لافاييت)، وبعدها إلى محل آخر لا يقلُّ عنه فخامةً اسمه (البرانتون). اشترت عدة قمصان وبنطالين وحذاء كوتشي وسويتر للمطر له غطاء على الرأس، حتى الملابس الداخلية اشترت منها دستة من كل نوع وكله على مقاسي، ولما بدت الدهشة على وجهي قالت:

- دول لأندريه، أندريه صاحبي، أصل مقاسك على مقاسه بالظبط.

وألقينا بأكثر من سبعة أكياس كبيرة على المقعد الخلفي، واتجهنا صوب الشانزليزيه.

شارع مجنون تخاله يغمز لك بعينيه، وإذا ضحك عليك وسحبك إلى داخله فقُلْ على نفسك السلام. فالشارع طويل عريض وعلى جانبيه صفوفٌ متوازيةٌ من أشجار المارون والبلانتين أو الكستناء، وبريق، ووسع، ومحلات لا تملُّ حتى ولو وقفت أمامها نصف نهار، ومطاعم، وبوتيكات، ومسرح الليدو بمدخله الذي تعلوه لوحةٌ كبيرةٌ عن عرض المساء، وصالة (إسباس كاردان) التي يؤمُّها الرسَّامون والنحَّاتون وأعلام الموسيقى والغناء، وقوس النصر ببنائه المتين الذي يلوح من بعيد، والمَسلَّة المصريَّة التي تقف غريبةً في آخر الشارع عند ساحة (الكونكورد)، والمقاهي ذات المداخل والفتحات التي تعلوها تندات حديد مغطاة بقماش سميك لونه برتقالي أو أزرق دْاكن، بروَّادها الذين ينعمون بالموسيقى وفي يد كل منهم جريدة أو كتاب أو يثرثرون، إلا إذا كانوا من العرب فالثرثرة عندها تكون بصوتٍ عالٍ وإشارات الأيدي في كل الاتجاهات.

والغريب أنك تُفاجأ أحيانًا بأن أصواتهم المرتفعة هذه تسكن مرة واحدة وتقترب رءُوسهم من بعضها البعض، ويبدو الحديث خافتًا والوجوه تشي بأن في الأمر شيئًا ليس بالعادي وإنما أمر كبير. أعتقد أنهم يلمحون في هذه اللحظة عميلًا من عملاء استخبارات بلادهم يمضي في الطريق، أو ربما امرأة يخططون لاصطيادها.

مشيتُ إلى جوار راشيل حتى منتصف الشارع حيث مقهى (الفوكيت)، لم نكن قد وصلنا إلى منتصف النهار بعد، ومع ذلك كانت أغلب الطاولات مشغولةً. عرب من الخليج، شوَّام، سُيَّاح من بلاد العم سام ومن اليابان، واثنان من الأفارقة، رجل وامرأة، الرجل ببدلة سفاري غامقة وسحنته نفسها مُكفهرَّة وأشد قتامةً من البُنّ الأسود، أما المرأة فكانت شديدة المرح وتتألق

بملابسها الوطنيَّة المزركشة، وذراعاها العاريتان تمامًا تلمعان تحت شعاع الشمس الآتي من النافذة وتبدوان بلون الباذنجان الأسود الخارج لتَوِّه من الحقل، ولم يكن موجودًا من الفرنسيين أهل البلد سوى رجلين وامرأة والثلاثة تخطوا السبعين.

أجلستني راشيل إلى طاولةٍ في جوف المقهى وطلبت لي آيس كريم، ثم اتجهت إلى طاولة يجلس عليها رجلان من الخليج أحدهما قصير وسمين وياقة قميصه الواسعة تكشف عن لغد مترجرج وواضح أنه محنك

وذو خبرة، أما الآخر فكان أنحف منه وأصغر سنًّا ويبدو أنه لا يزال تحت التدريب.

سلما عليها بحفاوةٍ فهمست لهما بشيء، فالتفتا إليَّ مرة واحدة لفتةً خاطفةً وبلا اكتراث. ربما قالت لهم إني السائق الذي يقود سيارتها، أو قريب فقير ومن بعيد. الجونلة التي كانت ترتديها قصيرة، تصل بالكاد إلى منتصف الفَخِذ، ومع ذلك وضعت ساقًا على ساق. كان منظرها مثيرًا، والحركات التي تبدو منها وإنثناءَة نصفها العلوي بين الحين والحين قادرة على قصم ظهر أي مقاومة، لكن والحق كان الرجل الكبير عاقلًا وعيناه اللتان يغطيهما جفنان دسمان تحدقان بلا انفعال أو نِيَّات ظاهرة.

المشكلة كانت في الخليجي الصغير، لم تكن هناك أية قوة أو نفحة من ضمير ولا أدوية أو مهدئات قادرة على كبح جماحه. كان المقعد يهتز أسفل منه، وقدماه تتقلقلان بلا انقطاعٍ كالطفل الذي سوف يفعلها على نفسه إن لم يُدخلوه على الفور إلى الحَمَّام، والغريب أنه أدخلني طرفًا في الموضوع، وكان بين لحظة وأخرى يرمقني بنفور، كأنه يقول لي اذهب من هنا، ما الذي تفعله معنا؟!

جرى الدم في رأسي أنا الآخر ووَدِدْتُ أن أتجه إليها، أزجرها بكلمتين وآخذها من وجه هذا الولد التلفان.

وعندما غادرنا المقهى قالت: سوف آخذك الآن لترى الحي اللاتيني وكاتدرائية نوتردام، تعلَّلتُ بالصداع وبأني أودُّ العودة إلى البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

41

- تاني يا جلال، تاني!

ويعلو الصوت:

- هترجَّعنا لأيام مصر تاني، للزعيق والخَبْط على ضهر السرير علشان تصحَى!

صوت أمي تشوبه مسحةُ غضب، وكأنَّه آتٍ من مكان بعيد وأنا ونادية في دنيا ثانية..

كُنَّا في غرفة نوم جدِّي القديمة! في حي الظاهر! على بُعد خطوةٍ من دولابه العتيق ذي المرآة العجوز التي تبدو فيه الأشياء على غير وضعها الحقيقي، ولفت نظري وجود شباك كبير له ضلفتان من الألوميتال ومغلق بمزلاج من الحديد! لفت نظري بالفعل، فالشباك الذي بغرفة جدِّي صغير وضلفتاه خشبيتان، كما لم يكن للغرفة التي أحلم بها بابٌ. كانت مصمتة إلا من كَوَّة في أعلى الجدار، تأتي منها نسمةُ هواءٍ لاسعةٌ مصحوبة بنداءات الباعة الذين في الشارع..

ونادية بين يديَّ، ألملم شعرها فأرى نَدْبةً عميقةً على صفحة عنقها، لم تكن قد اندملت بعد وشكلها يؤلم، جال في خاطري لحظتها أنها ربما حدثت بفعل مخلب أو شيء حاد.

هممت بسؤالها إلَّا أنَّ لساني لم يطاوعني، كان ثقيلًا، وكلما تكلمت بدا الصوت كما لو كان خارجًا من فم رجل أبْكَم فسكتُّ، وعندما أحسست بأنه لا حركة تأتي منها حسبت أنها غفت على صدري، وجُلْت بعينيَّ في المرآة التي أمامي. كان شعرُها الأسود المنسدل على كتفيها مختلطًا بشُعيرات بيضاء، ومتقصفًا عند الأطراف، وفي الأسفل سمانتا قدميها مترهلتان وعليهما تشققات بلون الجلد، وقدماها اللتان كالقالب المنحوت أصبحتا مثيرتيْن للشفقة. وعندما ضممتُها إلى صدري لم أشعر بأيَّة حرارة في جسدها، هززتُها، لا نبض ولا حركة، ولونها شاحبٌ ويداها اللتان تلتفان حول عنقي واهنتان لا وزن لهما.

تنفرج عيناي..

الدنيا التي أمامي كأنما تعلوها مسحةُ ضباب، وأمي واقفةٌ بالقرب من السرير تتأملني وشفتاها انطبقتا للتَّوّ..

يبدو أنها كانت تنادي عليَّ، وتوقفت لما فتحت عينيَّ..

أتابعها بعينين نصف مغلقتين وهي تتجه صوبَ النافذة المفتوحة، وبحركةٍ تلقائيَّةٍ أشدُّ الغطاء على صدري اتقاءً لصاروخ الهواء الآتي منها، وتنشغل هي بإغلاق ضلفتَي النافذة، وأتذكَّر أنا ما سبق من الحُلم..

الأستاذ فوزي مدرس الألعاب في مدرستنا..

الوسيم صاحب الشعر الناعم والعينين العسليتين، الأستاذ الذي لم أرتَحْ له يومًا وطالما بادلني نفورًا بنفور، كُنَّا على وشك العراك بالأيدي بسبب نادية..

يقول: إنها خليلته وأنجب منها ولدًا وجهُه كطلعة القمر..

وأنا أصيح فيه..

يضحك من صياحي فتبدو أسنانه الأماميَّة مطليَّة بالذهب وحجمها أكبر من المعتاد، أندهش لأني لم أرَهُ من قبل على هذه الهيئة. وأسنانُه، أسنانه عرفتها سليمةً لا خدش ولا كسر فيها. فينتابني الخوفُ وتموت رغبتي في العراك، ويقتربُ هو مني بخطواتٍ عدائية فأفقد السيطرة على أعضائي، تتيبَّس مني، وأعجز عن تحريك قدمي طلبًا للفرار، وحلقي تخرج منه شهقات كتلك التي تحدث للغرقى في الماء.

أنظر إلى أمي، فتقول:

- يللا قوم، يللا يللا، دي راشيل جت من بدري ومستنيَّاك في الصالة.

أنتبه إليها..

تمسك بيدها كيسًا من الأكياس التي اشترتها راشيل عندما كُنَّا معًا بالأمس..

تُخرج قميصًا وبنطالًا، تطلب مني ارتداءهما، باقي الأكياس على مقعد مجاور. ألتفت نحوها، فتقول وبريقُ رضا يلمع في عينيها: إنها كلها لي وأن راشيل لم تشأ إخباري بذلك ساعتها، أحبَّت أن تكون مفاجأةً لي. وتلوحُ ابتسامةٌ على وجهها، وهي تضيف: إنه ليس في الدنيا مثل راشيل، حلوة وابنة حلال وباَرَّة بأهلها.

تتأمَّلُني متوقعةً أن أُجاريها في الكلام..

أشيحُ بوجهي قليلًا، وخزٌّ خفيفٌ يمتدُّ من أول الرُّسغ حتى المرفق، إبر لا حصر لها دؤوبة دقيقة ولا تُجدي معها أيَّة حكَّة بظاهر الجلد.

وعندما يزداد صمتي، تردف أمي:

- وكمان يا جلال يا بْنِي القرش بيجري في إيديها، معارف وشغل هنا وهناك، إيه الشطارة دي!

وبنظرةٍ من عينيها أفهمُ أنها قالت ما عندها، والباقي عليَّ.

أشعرُ بالغثيَان. شيء لَزِج قبيح عالق بأمعائي. عصارة حَمْضيَّة تصل إلى حلقي. طعمُها حارق. كريه. أدفع بالكيس بعيدًا وأقول لأمي: إني مريض، وأضع الغطاء على وجهي قبل أن أسمع ردَّها.

يأتون كلهم، جدِّي وجدَّتي وراشيل، يلتفون حولي وأنا أزداد إصرارًا على أني مريض. أرى الجزع على وجه جدِّي وأمي يساورها القلق، لكن شيئًا آخر لم أتبينه لحظتها لاح على وجهها.

تُربِّتُ راشيل على كتفي مشجعةً، وتقول لتستحثَّني على النهوض:

- يللا يا جلجل بلاش كسل، دا أنا النهارده محضرالك حتة برنامج ومش هنرجع إلا آخر الليل.

تقترب أهدابي من بعضها البعض، وتبدو عيناي شبه مغمضتين.

- في الأول هنركب (الباتوموش)[5] وأفرَّجك على نهر السين، وبعدها نتغدى في مطعم يوناني تحفة في الحي اللاتيني، محشي ورق عنب وكباب وكل اللي قلبك يحبه.

أفتح عينيَّ..

- ومعايا تذكرتين في (المولان روج)[6]، دا فيها عرض يجنِّن، وبالمرة أوِّريك حي (بيجال).

تسرح عيناي في الأستاذ فوزي، لم يكن ضمن اهتماماتي في أي يوم، أو حدث أن كلمته سوى مرة أو مرتين أيام المدرسة، ولا يعرف نادية أو سمع عنها.

ويجيئني هكذا! في الحُلْم! ومع نادية!

وراشيل لا تزال مستمرةً في الكلام:

- قوم بقى قوم، دا إنت لو منزلتش معايا النهارده هيفوتك نُصّ عمرك.

لا أجيب..

تشعرُ بثقل دمي وينتابُ الملالُ جدَّتي فيتركانني، ووراءهما أمي تبحث لي عن حَبَّة أسبرين، جدِّي هو الذي بقى جالسًا على حافة السرير.

وددتُ أن أبوحَ له بالحقيقة..

أقول له: إني مكتئبٌ من الدنيا كلها.

غير أنِّي لم أفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

42

أربعة أسابيع وأنا أصلِّي الجمعة بمسجد باريس الكبير..

أقوم إلى الحمَّام وأتحمَّم كما يفعل المسلمون صباح هذا اليوم، وأصلِّي الصبح والسُّنَّة وأختم الصلاة على أصابعي وأنا جالس على سجَّادة الصلاة، ثم أضع المسبحة في جيب القميص تاركًا شُرَّابتها الخضراء مُدلَّاة من فتحة الجيب، وأضع الطاقية البيضاء على رأسي وأنزل إلى الشارع. يكون عم الشيخ منجي العياري وهو رجل تونسي مستوطن في فرنسا ويمتلك محلًّا للجزارة بعقار مجاور، قد أغلق المحل ويقف في انتظاري، نتجه معًا صوب محطة المترو.

عندما كنت في مصر لم تكن تشغلني هذه الطقوس، وساعات كثيرة كنت أسمع أذان الجُمُعَة وأنا في الشارع فأتجه إلى أي صنبور أو آخذ جردل ماء من الست شوق زوجة البَوَّاب وأتوضأ، وإلى الجامع بلا مسبحة أو طاقية على الرأس.

لا أعرف ما الذي جعلني أتمَّسك بهذه الطقوس هنا في باريس؟!

الحمد لله أنهم اعتادوا عليها، واكتفت جدَّتي بمصمصة شفتيها إذا رأتني أو الاحتجاب في غرفتها فترة الصباح حتى (أنكشح) من البيت.

المشكلة كانت في المرة الأولى..

يبدو أن جدَّتي كانت محصورة في البول يومها، اندفعت من باب غرفتها وطيران نحو الحمام، وفي قدمها فردة شبشب واحدة، فلمحتني خطفًا وأنا جالس على مقعد في الصالة أتلو القرآن من مصحف صغير في حجري.

كان صوتي متسارعًا وبنغمةٍ خافتةٍ تحاكي أزيزَ النحل، ورأسي يهتزُّ هِزَّاتٍ متواترةً إلى أعلى وأسفل وعيناي شبه مغمضتين. وعندما سمعت تكَّة ترباس الحمَّام ورأيتُها خارجةً منه توقفت عن التلاوة، إلَّا أنِّي ظللتُ منحنيًا على الكتاب الكريم وعيناي تختلسان النظر إليها.

كان شعرها منكوشًا وقطرات ماء تسيل خلف أذنها وأكيد عرفت ما الذي أفعله، مشت خطوتين على أطراف أصابعها ثم توقفت والتحفُّز يأكلها أكلًا، وبدأ قلبي هو الآخر في الدَّقّ. لم تتحمل أم منقار ويبدو أن عُدَد الشر والقتال التي تسبح في دمها واتتها فرصة لا تُعوَّض، فانتفضت للعمل وبأقصى طاقتها..

باغتتني، باغتتني بنت (الإيه)!

وفي غمضةِ عينٍ كانت مطفأةُ سجائر تطير فوق رأسي وتصطدم بالحائط، وعندما تزحزحتُ مذعورًا عاجلَتنِي بشريط كاسيت كان مُلقًى على مقعد مجاور، أصابتني به إصابةً مباشرة بطرف أنفي ثم استقرَّ تحت أقدامي.

فعلت كل ذلك هذه الحيزبون ثم وقفت واضعةً يدها في خاصرتها تتحداني، وأنا أحدِّقُ فيها غير مصدق. نعم فعلتها! ولو كانت صحتها تساعدها، لكانت قفزت عليَّ كما الهِرَّة وأطبقت على عنقي مثلما كانت تفعل أيام زمان.

قمت ثائرًا بالطبع وكفُّ يدي اليُمنى تقبض على أنفي الذي تنزف، ودارت بيننا معركةٌ كلاميَّةٌ أتى جدِّي على أثرها مسرعًا وهو نصف نائم ويتثاءب ووراءه أمي.

وجدَّتي تصيح بأعلى صوتها:

- خلِّي بالك. آه.. إحنا هنا مش في جامع السيدة وللا الحسين.

وأنا أرد عليها بكلام ثقيل فتزداد هياجًا وأمي تكتم الدم بمنديلها وتزيحها بعيدًا عني، وجدِّي الحائر بيننا يقول كلمة لي وكلمة لها.

لم يُحسم الأمر إلا لما قالت:

- لما تكون عايز تقرأ قرآن ابقى روح اقرا عند الشيخ مُنجي اللي ساكن في الدور التحتاني، آهو راجل ناقص ووسخ زيك.

فعندها ثارت ثائرةُ جدِّي..

كانت الأمور سوف تمضي حتى لو قالت لي جدَّتي لفظًا أقذع من ذلك، فأنا في النهاية حفيدها - كما قال - وكل ما يبدر عنها من وراء قلبها.

المشكلة في الشيخ منجي..

فقد كان للرجل تاريخ طويل مع جدَّتي، وعندما نطقت باسمه خاف جدِّي أن يتجدد الماضي فأوقفها عند حدها مُنهيًا الموضوع لصالحي، وكانت المرة الأولى التي تُربِّت فيها على كتفي معتذرة.

فالشيخ منجي من سكان العمارة الأوائل، وعندما جاء جدِّي للسكن فيها كان كل واحد منهما يبادل الآخر مشاعر حيادية، فلم يكن بينهما وُدٌّ ولا خصام، لكن مع جدَّتي كان هناك كلام آخر.

تبادل الاثنان المشاعر العدائيَّة من اللحظة الأولى، ولم يَستسِغْ أيٌّ منهما الآخر.

الرجل ما شاء الله جسده من فولاذ ولحية جبارة، ويدخل ويخرج من الباب وفي خاصرته نطاق مليء بالسكاكين، ومبدؤه في الحياة: عدوك هو عدو دينك ولا مهادنة أبدًا مع الظالمين. ولذا لم تقترب منه جدَّتي، قصرت نشاطها على زوجته الست (زهيرة بوصاف) ضئيلة الجسم السهتانة البهتانة أُمّ رِجْل مثل أرجل المعيز مثلما تقول جدَّتي.

استفزازات وشتائم خفيفة، وفي مرة كانت جدَّتي تصعد على السلم فألقوا عليها ثمرة قلقاس، وكانت هذه نقطة تحول في الخلاف بين العائلتين واستخدام الأيدي في حسمه.

اقتحمت جدَّتي الشقة وعاثت فيها فسادًا، ضربت زوجته وطفلين أحدهما لا يزال يحبو ناهيك عن التلفيات التي قُدِّرت وقتها بمائتَيْ فرنك، ولم يَنْتهِ الأمر إلَّا في مخفر الشرطة!

ثلاث سنوات من المعارك وقفت فيها جدَّتي مرتين أمام المحاكم متهمةً بالضرب والإتلاف، حُكم عليها في الأولى بالغرامة، وفي الثانية بالحبس شهرًا مع وقف التنفيذ فضلًا عن تعويض التلفيات، الشيخ منجي هو الآخر صدر عليه حكم بالغرامة لأنه كسر نظارة جدِّي.

انقضت المشاكل الآن..

لكن كل واحد في حاله ولا يكلم الآخر، وبعد أن قدِمتُ أنا إلى باريس لم يجد جدِّي أيَّة غضاضة في العلاقة التي نشأت بيني وبين الشيخ منجي، وربما قال في نفسه ما المانع من هذه العلاقة؟ ألا يجوز أن تكسر حالة اللاسلم واللا حرب الدائرة بين العائلتين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

43

نقصد أنا والشيخ مُنْجِي العيَّاري محطة مترو (بارباس)..

يشتري لي جريدة باللغة العربية من الكُشك الملاصق للمحطة أو قالب شيكولاتة، فتأخذني الحمية وأمدُّ يدي لأدفع أو أشتري له شيئًا بالمقابل، فيمسك بيدي غاضبًا. كان ينظر إليّ على أني أخ أصغر له أو ربما ابن، وكنت أشعر بالراحة وأمشي إلى جواره وديعًا مُمتنًّا.

يتقدمني داخلًا من باب المحطة، ونظل نهبط على السلالم الكهربائية حتى نصل إلى الرصيف الخاص بالمترو المتجه إلى محطة (جوسي).

يكون الجو هادئًا في ذلك الوقت، وربما نجد بعض السيَّاح الذين فرغوا لتَوّهم من زيارة كنيسة (الساكركير) والتجوُّل على تلة (مونمارتر) القريبة من المحطة، وفي طريقهم الآن إلى فنادقهم. وعلى طول الرصيف يقف فرنسيون وفرنسيات بالطبع، لكنهم غالبًا ما يكونوا قليلين وكبارًا في السن وفي أيديهم أكياس أو كتب صغيرة يقرءُون فيها، وكما هي العادة هنا لا صوت يصدر عنهم وكل واحد في حاله.

الجلبة تحدث عندما يستيقظ (الكلوشار) من نومهم..

(الكلوشار) هؤلاء جماعة من الناس تستحق الرثاء، منهم الرجال والنساء، والعجائز والشباب، هزمتهم الدنيا التي على سطح الأرض، فنبذوها ونزلوا إلى الجحور. أقاموا مستعمراتٍ لهم تحت الأرض، على الأرصفة وفي زوايا وأركان محطات شاتليه وسان دوني وبيجال وبارباس وسان لازار وغيرها من المحطات. منهم المتعطِّل، والمصاب بعقدة نفسية، أو سياسي من الدرجة الرابعة مهزوم للمرة العاشرة في الانتخابات المحلية واتخذ الحزب قرارًا نهائيًّا بطرده، ومن اكتشف أنه أهدر عمره سُدًى فنزل إلى باطن الأرض حيث الدنيا الحقيقية، وقد تجد فيهم محاربين قدماء، وأصحاب مبادئ نبيلة، وفنانين كانوا ملء السمع والبصر.

يتمدَّدون أغلب الوقت بالهلاهيل التي على أبدانهم وبروائحهم الكريهة وإلى جوارهم زجاجات الخمر الرديئة، ولا مانع من أن يقوم أحدهم من عز النوم ليأخذ رشفتين من زجاجته أو يلقي بشتمتين في وجه الناس ويعود للنوم في نفس اللحظة ويبدأ في الشخير. كنت أقف مشدوهًا ساعتها ولو كانت معي ساعة (ستوب ووتش) لحسبتها بالثواني، هي دقيقة، وربما أقل، التي يستيقظ فيها الكلوشار ويفعل فعلته ثم ينام ثانيةً بل ويشخر أيضًا. نعم يشخر! وياليته شخير خافت مؤدب وإنما شخير من النوع الذي يوتِّر أعصابك ويلفت نظرك

ولو كنت على مسافة، وأقول في نفسي من يدلّني على أستاذ في علم النوم كي يفسر لي هذا اللغز.

نومهم - والله - رحمة، لأنهم إن استيقظوا يبدءُون في الشحاذة، فرنك، ساندوتش، كيس شيبسي، علبة عصير، سيجارة، أي شيء يرونه في يدك، ويبدءُون بعدها في تبادل الشتائم مع بعضهم البعض بأقذع الألفاظ وبأصواتٍ عالية. وترى وجوههم مُحمرَّة وعروقهم منتفخة ويشيحون بأياديهم في وجه بعضهم البعض، فتحسب أن مشاجرة سوف تقع ولا محالة، وتبتعد عنهم خوفًا من أن يصيبك أذَى؛ لكنهم يخيبون ظنك بسكاتهم فجأة وبلا سبب منطقي، فعادة ما يكتفون بالبصق في وجوه بعضهم البعض أو تبادل الإشارات البذيئة.

والأسباب غالبًا ما تكون صراعًا على مناطق النفوذ؛ حيث أن لكل كلوشار منهم قطعة من الرصيف متر في مترين يعتبرها مملكته ينام فيها أو يستقبل ضيوفه أو يضع حاجياته، ومحظور على أي كلوشار آخر الاقتراب منها إلا بإذنه ورضاه، أو قد يكون النزاع على إحدى الكلوشارات والتي عادة ما تكون قد تجاوزت السبعين، أو على كسرة خبز خطفها أحدهم من يد الثاني أو غافله وهو نائم وشرب من زجاجة الخمر التي تخصه. ولو تريثت قليلًا على الرصيف لوجدت كلوشارًا عاقلًا ومحترمًا يخرج من أحد الأركان متقدمًا بمبادرة صلح بين الطرفين المتشاجرين، ولا تكلُّ قدماه من المشاوير المَكُّوكيَّة التي يقوم بها من هذا إلى ذاك أو العكس، حتى تصفو النفوس ويلتئم الشملُ ثانيةً ويعودون للقهقهة وقلة الأدب.

الجلبة الحقيقية هي التي تحدث عندما يأتي رجال البلدية ليجمعوهم بالقوة ويصعدون بهم إلى سطح الأرض، لإجبارهم على أخذ حمَّام ساخن في حمَّامات البلدية.

يكون هذا اليوم يومًا أسود على رءُوس الركاب، لأن الكلوشار لا يذعنون أو يستسلمون بسهولة، يفعلون مثلما يفعل الأطفال الصغار في البيوت، عندما تصمم أمهاتهم على إدخالهم الحمام. كانوا يفرون من أمام رجال البلدية، يجرون هنا وهناك وتنقلب المحطة إلى سيرك أو فصل من مسرحة هزلية.

ونسمع قائد فيلق البلدية، وهو يصيح في أحد رجاله:

- أمسك يا چاك بهذا العجوز المختبئ بين الركاب.

يسرع چاك للإمساك به، فيصرخ فيه القائد:

- لا يا أيها الغبي! ليس هذا! هذا سائح من اليابان، أتودُّ إدخاله الحمَّام هو الآخر! أمسك بهذا العجوز الأصلع الذي يمسك بقنِّينة خمر في يده.

ويستشيط القائدُ غضبًا:

- ليس في هذه الناحية أيها الأعمى! هنا هنا، المختبئ وراء المرأة السمينة.

تلتفت المرأة السمينة إلى الخلف منزعجةً، ونرى رجلًا آخر من رجال البلدية قادمًا يلهث من بعيد وهو يمسك برجلين من الكلوشار من أقفيتهم كما الأرانب، وكلوشار يقفز من رصيف إلى رصيف وفي ذيله رجلان والقائد يصيح فيهما مُشجِّعًا:

- أحسنتما أحسنتما، عليكما بابن اللئيمة هذا ولا تتركاه أبدًا.

ويلتفت إلى رجل آخر من رجاله:

- وأنت يا مكسيم هل سوف تبقى واقفًا هكذا بلا عمل؟ عليك بهذا الكلب العجوز الذي يجري بلا سروال، أسرع أسرع، فقد اندسَّ قليلُ الحياء بين الناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كُنَّا أنا والشيخ منجي نتحاشى هؤلاء الكلوشار حتى لا ينقضوا وضوءنا كما يقول، ولم يكن الرصيف في أيام الجمعة يخلو من المسلمين المتجهين للصلاة. كنت أعرفهم من ملابسهم، البدلة السفاري الضيقة عند الإبط، وطاقية الرأس أو المسبحة في اليد، والحذاء الذي تجاوز عمره الافتراضي بسنة على الأقل. كانوا فقراء، بسطاء، والطيبة تعلو وجوههم. يعرفوننا هم الآخرون، ويسلمون علينا بإيماءَة أو إشارة يد، أما زبائن الشيخ والذين لا يشترون اللحم إلا من عنده، فكانوا يُقبلون علينا ويشدُّون على أيدينا بحرارة، وإذا عاتبه أحدهم على قطعة اللحم التي اشتراها منه آخر مرة لرداءتها وللشغت والدهن الكثير اللذيْن يملآنها، كان الشيخ يروعه بنظرة من عينه، وإذا أطال في الكلام يقول له الشيخ بحسم: إننا في طريقنا للصلاة والعبادة، ولسنا في مقام لهو أو تجارة.

ويأتي المترو..

المقاعد شبه خالية، نجلس أنا وهو متقابلَيْن بجوار النافذة.

الشيخ منجي يعرف حكايتي كاملةً، ولا يملُّ أبدًا من نُصحي بلهجته التونسيَّة:

- اسمع يا وليدي باريس هاذي كيلغول (زَيّ الغول) اللي يعيش فيها تبلعه! ليش تقعد فيها؟!

أصمت.

يمرر أصابعه على لحيته قائلًا بنغمة تختلط فيها السخرية بالشفقة:

- ليش تقعد فيها؟ إيش تعمل؟ تخدم عند ززار (جَزَّار) وللا تخدم في حانوت وللا تكنس في الطريق؟! هذا اللي تنجمه! (تريده).

أحدق في وجهه.

- كأنك محتار، استخير ربك، تعرف تستخير ربي وللا متعرفشي؟

يبدو على وجهي أني لا أعرف الاستخارة أو حتى سمعت بها من قبل، فيقول:

- متعرفشي!

أهز رأسي مؤكدًا، فيبدأ الشيخ في تعليمي الاستخارة.

أن أتوضأ أولًا ثم...

يتأفَّفُ من صوتنا المرتفع، رجلٌ فرنسيٌّ كان قد صعد من المحطة السابقة وجلس إلى جانبي. يلحظه الشيخ منجي إلا أنه لا يأبه به، ويستمر في الكلام معي بصوتٍ أعلى وأعلى وبسعلات جبارة مفتعلة تضرب في سقف المترو، وعيناه ولحيته تجوسان في وجه الرجل وكأنه يقول له، ألم تسمع عن الشيخ منجي من قبل؟ هل تود المبارزة حتى تعرف قدري من قدرك؟! فيفهم الرجل أنه لا حيلة له مع هذا الشيخ الملتحي، وينسحب من المكان وهو يبرطم بألفاظ فرنسية غاضبة، أعتقد أنها كانت ألفاظًا بذيئة وشتائم في الشيخ؛ لأن الدم غلى في عروقه وبدا مغتاظًا لكنه تماسك وقال، وهو يشيح بيده:

- سيب عليك منه (سيبك منه) تافه هاذاك، وربي كان مجتش رايح نصلي وخايف نتعطل كنت ندقدقه (نكسَّر عضمه).

لم يكن الرجل الفرنسي قد ابتعد كثيرًا.

يشعر بأن الكلام عليه والشيخ يشتمه باللغة العربية فيقف ويلتفت نحونا مُشيحًا بيده، ويقوم الشيخ هو الآخر نصف قومة وهو يقول غاضبًا:

- وربي لو ما تركنا في حالنا لنعطيه طريحة (عَلقَة) الآن وندقدقه.

أمسك بيد الشيخ وأهدئ من ثائرته، وهو يصيح بالفرنسية في وجه الرجل:

- مارش لوان، مارش لوان (امشي بعيد).

يدرك الفرنسي أن الشيخ غير هازل وأنه عقد العزم بالفعل على الشجار، فيتجه مسرعًا نحو الباب كي ينزل في أول محطة ويترك لنا المترو كله.

وبعد برهةٍ يهدأ الشيخُ، ويقول بنغمةٍ قاطعة:

- ارجع لبلادك يا وليدي، ولي (اصبح) طبيب وللا مهندس وأكبر في بلادك، مهما كبرت في باريس ومهما عملت متوصلش حتى حاجة.

أقول:

- طيب وأنت عايش هنا إزاي يا سيدنا الشيخ؟!

- نقولَّك حاجة يا ولدي، إحنا هنا عايشين وكأننا في تونس، مكلتنا وشرابنا تونسي مياه في الميه، منعرفوش عن بلاد الفرنسيس هاذي غير البسبور.

أزداد إنصاتًا، فيكمل:

- وكمان إنت حالتك مش كيف حالتي، أنا عايش في وسط توانسة، وأنت أشكون عندك هنا؟! (وإنت عندك مين هنا؟!).

أقول مندهشًا:

- عندي أمي يا شيخنا!

- أمك يا وليدي اختارت تقعد هنا لأن معندهاش مشكل، أمك عايشه في وسط أهلها، أمها وبوها واخواتها ناس كيف كيف يهود، وإنت معندكش مجتمع كيف مجتمعها.

أصمت.

- وبعد أمك أشكون عندك من ناس؟ تبقى مع الجداه بتاعتك! حد يطيق يعيش معاها العزوزة الشمطة دي (العجوزة)، دي كلبة بنت كلب.

ينتابُني الضيق، فرغم ما بيني وبين جدَّتي من حب مفقود أكتشف فجأة أني لا أقبل أن تُهان، إلَّا أنَّ الشيخ لا ينتبه ويستمر قائلًا:

- وبراس أمك فهمني حاجة؟ كيفاش وليِّد كيفك ناس ملاح ويلد أصل يعيش مع جداه مثل هاذي؟! وربي لو كان مجيتش في الدنيا هاذي مسلم ونخاف ربي راني كنت أعطيتها طريحة نباش لقبور (علقة ساخنة) وارتحت من خلقتها المشئومة.

أزدادُ كدرًا وهو لا يزال يتكلم:

- أما جدك فمسكين وبحبوح، لكنه يا ولدي تافه وشخصيته ضعيفة وكمان كراكوز (أراجوز).

نفترق عدة لحظات، كل منا يُدخل تذكرته في الماكينة الحديدية التي بحذاء الرصيف كي تدور عجلاتها وتسمح له بالعبور، وأجده يلحق بي وهو يتكلم بفمه ويده ووجهه مؤكدًا وجهة نظره في جدَّتي:

- عمرك شفت امرأة تهاجم البيوت الآمنة وتعيث فيها فسادًا، لا يسلم منها لا كبير ولا صغير ولا اللي يدبي (يحبو) على الحصير، حتى وليدي الصغير المسيكن (تصغير كلمة مسكين) مَسلمِش منها، ركلته بقدمها، وخالتك زهيرة مرتي كومبلكيه منها (عندها عقدة منها)، تصدق حتى لتو الجداه بتاعتك بتجيها في الكوابيس، مرة شاده موس (ماسكه سكينة)، ومرة جاية متحزمة بسلاح تقولش عليها ماشيه الحرب، الله لا يربحها الإبليسة هاذي!

نخرج من المحطة ونمشي خطواتٍ قليلة، فيلوحُ أمامنا مسجد باريس الكبير بزخرفته الإسلاميَّة ومئذنته الشامخة، ويتوقف الشيخ منجي عن الكلام، وأرى عينيه منشغلتين بالواقفين حول المسجد. تنفرج أساريرُه مرةً واحدةً ويلتفَّت إليَّ مبتسمًا، يكون قد لمح صديقًا أو أحدًا من معارفه، يشبُّ بوجهه وتخرج من فمه صيحة فرح مكتومة.

ويصيح ملوحًا بيده:

- يا زين العابدين إيجه إيجه (تعالى تعالى).

يرفع زين العابدين ذراعه قائلًا، وهو يتجه نحونا:

- آه منجي جيتك، باهي باهي جيتك.

فيلتفت الشيخ إليَّ ويقول:

- باهي جلال بالسلامة تو ونتقابلوا العصر في الحانوت، ولا إسمع ايجا أتعشى معانا، خالتك زهيرة عاملة عشاء قمقوم (لذيذ)، كسكسي بالعلوش وسلاطة مشوية وكعبات بريك بالتون.

ويتركني.

تجمعاتُ المسلمين تلتفُّ بأركان المسجد وعند الباب، أفارقة من السنغال وتشاد وچيبوتي بملابسهم الزاهية الفَضْفاضَة، ومغاربة وتوانسة وأبناء الجزائر.

الشباب منهم بملابس على الطراز الفرنسي، والكهول والشيوخ بالبرانيس البيضاء والبيچ والبُنِّي المحروق وفي أقدامهم (البُلَغ). أصواتهم عالية، كنت

أسمعها قبل أن أصل إلى المسجد، تنطلق من أفواههم حادَّةً وسريعةً كشرارات الكهرباء، وبلكنة أبناء شمال أفريقيا المُطعَّمة بالكلمات الفرنسية.

ويقف باعةُ البَخُور والمسابح والعطور الشرقية إما على طاولات صغيرة أو يفترشون الرصيف، ولا يخلو المكان من رجل أو اثنين يبيعان شرائط كاسيت لمقرئي القرآن الكبار عبدالباسط والحُصَري والشيخ مصطفى إسماعيل، وأحاديث وخطب الجمعة للشيخ كِشْك والشيخ البدري، وكتب الدين التي تخيف الناس من أهوال يوم القيامة والملائكة التي تحمل عصيًّا غليظة وأسياخًا من الحديد تضرب بها تارك الصلاة أو المرأة التي لا تسمع كلام زوجها، ولا مانع من أن تجد في هذا الزحام كتابًا عن أصول المعاشرة الزوجيَّة أو في فن الغَزَل.

كانت البلديَّة تتساهلُ معهم في هذا اليوم، وعلى مقربةٍ تقف سيارةُ شرطةٍ لمتابعة الأمن والنظام، وحولها عساكر طوال على رءُوسهم القبعات المستطيلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما أفرغُ من الصلاة كنت أستقلُّ المترو، ومحطة في محطة حتى أصل إلى الحي اللاتيني.

تصادفني مكتبة (جلبير) وربما توجد مكتبة أخرى في الأزقَّة الداخليَّة، المكتبتان متخصصتان في بيع الكتب المستعملة، وروادها من كل الأشكال، المثقف، التافه، الصغير، الكبير، المُتسكِّع، والجاد، والأرفف مليئة بكل ما تشتهي الأنفس، كتب في الجغرافيا وفي التاريخ والفلسفة والقانون والفيزياء وإلى جوارها كتب الجنس والتفاهات والصور الفاضحة، وإذا قلبت جيدًا سوف تعثر على كتاب لسيمون دي بوڤوار أو چان پول سارتر أو كوكتو أو مختارات من شعر بلزاك أو لمستشرق كبير مثل دوركايم أو مرجليوث، والسعر واحد بالنسبة إلى الجميع عشرون فرنكًا في الغالب. وعلى طاولة عتيقة ومزويَّة على جنب كنت أجد كتبًا كبيرة ومجلدة، أتصفحها فأجدها قديمة والأوراق صفراء وبها ثقوب وخدوش وبين الثنيات وفي الكعوب حشرات ميتة من زمن بعيد، والعناوين حسبما قرأت وترجمت لنفسي رأس المال لكارل ماركس ونظرية فائض القيمة لآدم سميث والبؤساء لڤيكتور هيجو وقصة مدينتين لتشارلز ديكنز أو الأم لمكسيم جوركي أو الغريب لألبير كامي، والسعر مخفَّض إلى عشرة فرنكات ولا أحد يشتري، الكل مُنكبٌّ على الحداثة والكتب المليئة بالصور وما لا معنى له.

تأخذني قدماي بعدها إلى الأزقَّة والشوارع القديمة..

خطوتان وأفاجأ بمهرِّج صبغ وجهه بالألوان وأنفه أحمر كالدم يأتي في مواجهتي، يداعبني أنا والناس التي تسير إلى جواري فأشيح بوجهي عنه. وساحر يعرض ألاعيبه وخفة يده ويدعوك لمشاركته في العرض الذي يقدمه، أقف دقائق أمامه وأشعر بالملل فأنصرف، وحلوى غريبة ولها مذاق خاص تُباع في محلات يديرها توانسة ومغاربة، ومأكولات يونانيَّة وتركيَّة وتذكارات لبرج إيفل وقوس النصر. وحلقة عن بُعد أقترب منها فأجد رجلًا نصفه العلوي عارٍ وفي يده عصا طرفها يشتعل نارًا، يقربها من فمه مُخرجًا منه سائلًا رشاشًا يشتعل عند تلامسه بالعصا، ولا تعرف بعدها ما إذا كانت النار آتيةً من فمه أم من هذه العصا، فأبتسم متذكرًا يوم أن أخذنا جدِّي زكي إلى جبل الدرَّاسة، ورأينا هذا العرض في سيرك أولاد عاكف، وأمشي غريبًا تائهًا فيوقظني من شرودي فنان عجوز، يمسك بآله كمان يعزف عليها ألحانًا من الفُلكلور الفرنسي، ألحان كلها شجن يقولون إنهم كانوا يعزفونها في القرون الوسطى عند وداع أبنائهم الراحلين لنهب كنوز الشرق باسم الصليب.

أظلُّ وراء الرجل من شارعٍ إلى شارع وأتوقف بالقرب منه كلما توقف، وتهفو نفسي إلى جدِّي الذي مات، وجدَّتي لأبي، ونادية، وأشعر بمرارة في حلقي وشيء يُطبق على صدري، فأترك المكان وأخرج إلى الشوارع الواسعة سان ميشيل وسان چيرمان.

كُنَّا في شهر أكتوبر والغمام كثيفٌ، والأشجار الكبيرة التي على جانبَيْ هذين الشارعين عارية وأوراقها الصفراء ملقاة على الأرض فأزداد كآبةً، وصوت أم كلثوم ينساب في أُذُنِي رقيقًا أملسَ باكيًا، وهي تغني وتقول:

على بلد المحبوب ودِّيني..

زاد وجدي والبعد كاويني..

يا مسافر على بحر النيل أنا ليَّه في مصر خليل..

من حبُّه مابنام الليل..

على بلد المحبوب وديني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

44

ساقتني قدماي إلى كاتدرائيَّة نوتردام..

كنت قد زرتُها مرتين من قبل، ولم ألحظ سوى هذه المرة الأكشاك الخشبيَّة التي يعدُّونها للاعتراف، فوقفت بالقرب منها.

رجال الدين بالداخل، والنساء والرجال الذين يرغبون في الاعتراف يقبعون مهمومين صامتين على مقاعد خشبية، لا يلتفت أحدٌ منهم إلى الآخر، وإذا التقت نظراتهم صدفة كانوا يومئون برءُوسهم ويعود كل منهم إلى حاله. وترى الواحد منهم يخطو بأقدام ثقيلة نحو رجل الدين المكلف بتلقِّي اعترافه، غير أن كل طرف منهما يظل محجوبًا عن الآخر بساتر خشبي به كَوَّةٌ صغيرةٌ تسمح بتبادل الحديث.

أراهم خارجين بعدها أكثر راحةً، وكأنهم ألقوا بعبءٍ ثقيل، والغريب أن البعض، ومنهم شباب، كانوا يبكون بالداخل ويخرجون ولا يزال الألم مرتسمًا على وجوههم. كنت أشعر بالرثاء لهم، وأسأل نفسي عن الرجل الطيب الذي بالداخل، يظل ينصت إلى ما يعذب الناس ويؤلمهم، لكن ما الذي يفعله بكل هذا الكلام؟!

وتمكَّنت هذه المرة أيضًا، من رؤية المكان الذي توجد به أجراس الكاتدرائيَّة.

لم أكن أحسب أنها مَهُولَة بهذا الحجم، وطافت ببالي رواية (أحدب نوتردام) التي اشتريت نسختها المترجمة من سور الأزبكية. كنت أيامها في المدرسة الإعدادية، وصنعت في مُخيَّلتي صورة (لكوزيمودو) الأحدب العاشق بطل الرواية، محنيًّا بفعل الحدب لكنه قوي متين، خصلات شعره الأشقر المتسخ تطلُّ من غطاء رأس باهت كالح قديم، قدماه تطرقان الأرض بوقعٍ شديد، وحذاؤه مليء بالفتحات والثقوب.

لاح المسكين في ذاكرتي وهو يدقُّ الأجراس ويتعلق بها منتشيًا، بعدما عطفت عليه محبوبته (أزميرالدا) بنظرةٍ حانية.

وخرجتُ أمشي على مربعات البازلت التي أمام الكاتدرائية، أرثي الأحدب الذي نصبوا له عمودًا وربطوه فيه بالسلاسل بعدما عرفوا أن له قلبًا يحب كما تحب قلوب الناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الغمام قد وصل إلى منتهاه في هذا اليوم وزخَّاتُ مطرٍ خفيفة محملة بقطع ثلج في حجم الفراشات وأنا بلا مظلة، لكني لم أعبأ أو أفكر في العودة إلى البيت، تركت نفسي للمترو فحملني إلى محطة الأوبرا.

وعندما صعدتُ إلى سطح الأرض، كانت زخَّات المطر أكثر شدةً وحبَّات الثلج صارت في حجم نُدَف القطن. وتهدأ الدنيا فجأة وأشعر بشعاعِ شمسٍ خَجولٍ يتلألأ في السماء، أرفع رأسي بعد برهةٍ فأجد قرص الشمس بأكمله وبزهوته قد شق له طريقًا بين السحابات الثقال والتي سرعان ما تلتحم مع بعضها وتصبح الدنيا بلون الرماد، والناس لا يكترثون، يسيرون هنا وهناك والمظلات والبلاطي الووترپروف تعرف أن هذا هو وقتها فتؤدي عملها وتذود عن الناس.

أسرعت أسفل البواكي التي تغطي الأرصفة إلى أن بلغت أحد الشوارع الجانبية بمدخل إحدى البنايات، وقفت أتأمل ثُلَّةً من طلاب المدارس يمضون أمامي مسرعين، وقد تدثروا من أعلى بملابس صوفيَّة تعلوها سويترات ذات أغطية رأس مُحْكمة، والحقائب مشدودة على ظهورهم بأربطة تعلو أكتافهم، ويلهون ويلعبون، منهم من يدفع زميله مازحًا تجاه سيارة تأتي مسرعة، أو يرشقه بحبَّات الثلج الناعمة في وجهه، أو يتسلل خلفه بحذرٍ ويزيح ملابسه بغتةً ويلقي على ظهره العاري كومة ثلج في حجم كف اليد.

ظللتُ أتابعهم بملابسي البسيطة ذات الطابَع الشرقي، القميص الذي اشتريتُه من محل (عمر أفندي) بثلاثة جنيهات، والبنطلون التفصيل والشِّرْز الصوفي المفتوح عند الصدر، وأتذكَّر الطريق الذي كنت أسلُكه كل يوم متجهًا إلى المدرسة، والترام، والكمساري الذي كان يطاردنا من عربة إلى عربة، وأقول لنفسي لو عشت هنا العمر كله ما الذي أفعله مع هؤلاء الناس الشُّقْر شديدي البياض، الذين يلبسون الأحذية الطويلة ذات الجلد السميك وعلى رءُوسهم القُبَّعات..

وتمرُّ أمامي فتاتان من طالباتِ المدارس، فأهيمُ بقلبي ناحية حي الظاهر وشارع عباس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

45

لم يمضِ أسبوعٌ إلَّا وأنا أوقظ أمي من النوم..

لم تصدق، وأنا أقف أمامها بملابسي كاملة وفي يدي تذكرة السفر والجواز.

ودخلنا في جدالٍ أشبه بالشِّجار، واقتحم جدِّي علينا الباب، حاولوا كلهم إثنائي عن السفر، حتى جدَّتي بدا عليها الانزعاج وحاولت خطف الجواز من يدي.

لم يُفلح أي شيء معي، لا بكاء أمي، أو عينا جدِّي المتوسلتان.

وجلست أمي على حافَّة السرير، تعاتب الدنيا على العمر الذي راح، والزوج الذي مات، وولد كأنه ضاع، وظلَّلتْ كآبة معتمة على سيارة الأجرة التي تقلُّنا إلى المطار.

قال جدِّي:

- يعني شوية كده وراجع يا جلال؟

تطلَّعتُ في وجهه دونَ أن أتكلم.

- ربَّحنا يا ْبنِي.

- إن شاء الله يا جدِّي، إن شاء الله، بس أطمِّن الأول على مستقبلي.

فقالت أمي بصوتٍ عاتب:

- مستقبلك! وهو مستقبلك هناك بس!

قلت وأنا أضغط على معصم يدها:

- متقلقيش يا ماما، وهيكون بيَّنا جوابات.

- جوابات! جوابات إيه يا جلال، بقى هان عليك تعملها وتسيبني، وهتعرف تنام لوحدك إزاي؟!

وقال جدِّي:

- سيبيه دلوقتي يا كاميليا، جلال ابننا وملوش غيرنا وهيرجع تاني، مش كده يا جلال؟

قلت بصوتٍ خافت:

- كده.

وبعد برهةِ صمتٍ:

- معاك فلوس يا ْبنِي؟

- الحمد لله يا جدِّي.

أخرج ظَرْفًا من جيب الچاكت وقال:

- دول اللي كانوا في البيت، ألفين فرنك، فلوسنا كلها في البنك يا ْبنِي وإنت سافرت على غفلة.

واستدار ناحية أمي:

- إقلعي يا كاميليا السلسلة الدهب اللي على صدرك دي، وإنتي يا إيڤون إخلعي الخواتم.

ففعلتا، وناولني هو هذه الأشياء، ولمَّا رفضتُ وضعها عَنْوةً في جيب القميص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

افترقنا على باب المطار.

سلمتُ التذكرة ووضعتُ الحقيبةَ على الميزان، ثم جلستُ على مقعدٍ قريب.

هي ساعة وانتهى كل شيء..

أغلقوا الكاونتر وانصرف الحمَّالون، وبدءُوا في النداء على الركاب للتوجه إلى الطائرة.

وعندما اكتشفوا غيابي بدءُوا في النداء على اسمي مرة واثنتين وعشرًا، وأنا جالسٌ أنظر.. لا أنا قادرٌ على الاستجابة، ولا أنا عارفٌ ما الذي أفعله!

لم أقُمْ، أو أتحرك، أو حتى أحسب الأمور، أو أفعل أي شيء، كنت عاجزًا، رأسي فارغ، وبدوتُ أمام نفسي كالمهزوم..

نادوا على اسمي بعد برهةِ انقطاع، قالوا: إنه النداءُ الأخير..

ولم أُجِبْ بالطبع..

فقد كانوا ينادون على شخصٍ مَيِّت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدر للمؤلف

أولًا: الأعمال الأدبية:

- لقمة العيش: مجموعة قصصية/الطبعة الأولى، دار النسر الذهبي، سنة 1994/الطبعة الثانية، دار النيل، سنة 2005/الطبعة الثالثة، دار سفنكس، سنة 2011/وقد فازت قصتان من هذه المجموعة بالجائزة الأولى لنادي القصة، عامي 1997، 1998.

- قلوب منهكة/ المسْلم اليهُودي: رواية/ الطبعة الأولى، دار النيل، سنة 2004/ الطبعة الثانية، دار سفنكس، سنة 2009/وقد نالت هذه الرواية جائزة الدولة التشجيعية سنة 2005، كما صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2013، بعنوان:

(Diary of a Jewish Muslim).

وقد نَفَدت هذه الطبعة وأعيد نشرها في طبعة جديدة سنة 2018، ضمن سلسلة (Hoopoe) الصادرة من الجامعة الأمريكية.

كذلك ترجمت الرواية إلى اللغة الألمانية، ونشرتها دار فيلتن (WELTEN) سنة 2017، وعنونت باسم

(ErschöpfteHerzen-Der Muslimische Jude).

- أيام الشتات: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2008/الطبعة الثانية، دار العين، سنة 2020/ وقد صدرت ترجمة إنجليزية لهذه الرواية من الجامعة الأمريكية سنة 2012، بعنوان:

(Days in the Diaspora).

- أحلام العودة: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2012/الطبعة الثانية، دار العين، 2020/ وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2017، بعنوان:

(Menorahs and Minarets).

- المليجي: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، 2014.

- أيام لا تُنسى: رواية/الطبعة الأولى، دار العين، 2018.

- قهوة حبشي: رواية/ الطبعة الأولى، دار العين، 2019.

ثانيًا: الأعمال القانونية:

- السلطة في الفكرين الإسلامي والماركسي: دار النهضة العربية، سنة 1986. وقد حصل هذا المؤلَّف على جائزة أفضل بحث قُدم لكلية الحقوق/ جامعة القاهرة/ عام 1987.

- النظم السياسية والقانون الدستورى: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

- القانون الإداري: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

- المدخل للعلوم القانونية: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

- الإدارة العامة: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

- الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والاتجار غير المشروع فى المواد المخدرة: مطبوعات جامعية، سنة 1995.

ثالثًا: ما كتب عن المؤلف:

- اللذة والمتعة/قرأة في سرد كمال رُحيَّم، دراسة نقدية للدكتور محمد علي سلامة: دار العين، سنة 2019.

- تقنيات السرد الروائي عند كمال رُحيَّم: رسالة ماچيستير بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأقصى/فلسطين/سنة 2016.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
إهداءٌ خاص
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23

24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
صدر للمؤلف
الفهرس..

Notes

[←1]

(1) سلسلةُ نوادٍ خاصة بيهود مصر.

(2) خبرٌ خاصٌّ بالطائفة اليهوديَّة. [←2]

[←3]

(3) يقصد مرقص أفندي وزارة القوى العاملة، التي أُنشئت في العهد الناصري وعُهِدَ إليها بتعيين خرِّيجي المدارس والجامعات كافةً في وظائف حكوميَّة.

[←4]

(4) ملهى ليليّ شهير بشارع الشانزليزيه.

[←5] *(5) مراكب سياحيَّة يستقلُّها السيَّاح وأهل باريس، ويجوبون بها نهر السين جيئةً وذهابًا.*

[←6]

(6) ملهى ليلي كبير بحي بيجال.